جامعة الجزائر
معهد الفلسفة

مشكلة التاريخ
عند مالك بن نبي

رسالة لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب
الأخضر شريط

تحت إشراف
الدكتور: عبد الرزاق قسوم

السنة الجامعية: 1988-1989

((من علمني حرفا صرت له عبدا))

" أثر " .

مقدمة

اذا كان التاريخ هو الغاية من تطور الدولة فان الحركة التاريخية تكون محددة من أسس انطلاق هذا التاريخ هادفة نحو وجهة تتسم بالتغير والتطور ، فلماذا تتدهور حضارة وتقوم أخرى ؟ و اذا كانت الحركة التاريخية هي خلاصة جدل قائم بين الفكرة ونقيضها فما هي الغاية لهذا الجدل و اذا كان الجدل هذا قائم على أسس " موضوعية " فما مصير الانسانية ؟ وهل يتدخل العامل الديني في أسس الجدل ليحسم الموقف؟ وهل هذا العامل الديني يتسم بالجغرافيا ؟ جملة تساؤلات حاولنا أن نجدلها جوابا في فكرة مالك بن نبي من خلال تطرقة من حين لآخر لفكرة التاريخ ، و للحركة التاريخية وكيف يمكن لها أن تؤول نحو غاية يسميها الحضارة .

و لقد كان لهذه التساؤلات المعقدة محاولة مني لايجاد معالجة لها قد تكون علمية أو موضوعية - لسنا ندري - لكنها محاولة متواضعة و قد لا تتسم بطابع العلمية أو بطابع الموضوعية لأن هناك جملة صعوبات وقفت حجر تعثر أمامنا و سنأتي الى ذكرها بعد أن ندلي بمحتويات هذه المحاولة .

خصصت الباب الاول لالقاء نظرة في فكرة التاريخ عند العلامة المسلم عبدالرحمان بن خلدون ، و كيف يربط التاريخ بتطور الدول و تعاقبها عبر أحقاب وفترات زمنية ، و حاولت أن أقارن بين فكرته عن الدورة الحضارية و فكرة مالك بن نبي فيها ، و بعد تحليل حاولت أن أركب باستخلاص أن تفسير ابن خلدون للتاريخ مبني على أساس بيولوجي، وهو يقدم لنا فكرة عميقة عن العمران البشري وتطوره عبر مراحل تاريخية معينة، و لاحظنا أن الفكرة عنده كانت لاتحتاج الى عالم حياة و انما الى مهندس اجتماعي أيضا .

و خصصت الفصل الثاني من هذا الباب للنظر في عقلانية هيجل فوجدت أنه يبني التاريخ على أسس عقلية فيصور أن الشعوب التي تعيش التاريخ هي تلك التي بلغت مرحلة من الوعي ، ثم ان التطور يحصل فيها بطريقة اوامنهج الديا ليكتيكي بين الفكرة و نقيض الفكرة و بين هذا والتركيب بينه .
و لاحظت أن هيجل رأى التاريخ بدأ من اليونان لتغيب شمسه في العصور الوسطى و لتبزغ مرة أخرى في الشعوب الجرمانية و يبقى " النهار" عندهذه الشعوب لأن أمريكا حسب هيجل هي أرض المستقبل و بعد تحليلي لهذه الأفكار لاحظت على أن هيجل يتناسى أو يتجاهل مافعله " العقل " في القرن التاسع عشر و في القرن العشرين في الشعوب التي تعرضت للاستعمار من طرف "العقل " و العقل الاروبي هذه المرة !؟ و استخلصت في تركيبي للتحاليل السابقة أن التفسير الهيجيلي يميل الى العنصرية و مع الفصل الثالث انتقلت الى فكرة التاريخ عند كارل ماركس فحددت المنهج الذي استقاه من هيجل نحو الذي قيل عنه أنه قلب هيجل على رأسه متبنيا أن عامل التطور الاجتماعي في التاريخ أساسه الاقتصاد، هذا ايمانا منه بالمادية التاريخية التي بنى قواعدها على الديا ليكتيك ، و سلم أن الصراع "هو باني التطور " أساسه مادي . و حسب دراسته للتاريخ البشري الذي بين فيه أن هذا الاخير مر بمراحل تاريخية كان العامل المحفز فيها للتطور مادي وحسب ، و عدت في تحليلي لفكرة التاريخ عند ماركس و لاحظت مدى تأثرها بالداروينية .

.../...

و استخلصت أن التفسير الماركسي للتاريخ الإلهوبي أساسه تساوي الكل .

و في الفصل الرابع من هذا الباب انتقلت الى أرنولد توينبي في تفسيره للتاريخ فلاحظته يضع عاملا التحدي - و الاستجابة " عوض المنطق الجدلي " في تفسيره للحركة التاريخية. ايمانا منه أن التاريخ البشري بنى حضارات في بيئات صحراوية كما بناها على ضفاف الأنهار ؟ فيرى أنه في حالة ما اذا تنحى عامل التحدي فلا تكون هناك استجابة و هذا بالضبط ماحدث مثلا لشعوب الاسكيمو، التي تحجرت في القطب الشمالي و لم تستطع أن تتحدى تلك الطبيعة القاسية. وهو أيضا ما حدث "الشعوب انقرضت أوكادت أن تنقرض نتيجة لعدم قدرتها على التحدي الطبيعي: كشعوب الشنود الحمر وشعوب روما القديمة ، وبعد تحليلنا لسير الحركة التاريخية استخلصنا من هذا التفسير أنه يغلب العامل البيولوجي النفسي على عوامل آخرى طالما تحكمت في هذه الحركة .

و خصصت الباب الثاني لأصل فكرة التاريخ عند مالك بن نبي .

ففي الفصل الأول تكلمت عن المقارنة التي يجريها بن نبي بين المذهب المادي والمذهب الغيبي : ليرى أن المذهب المادي انتهى الى فكرة " الحاجة" أو الى فكرة "المنفعة". وان المذهب الغيبي هو الذى بنى قاعدة على أساس تلك العلاقة " العمودية - الأفقية " . بمعنى أن العلاقات الانسانية كانت ... الصبغة فيها - رغم"لا ئكيتها"- دينية . كذلك كان شأن القانون التشريعي الفرنسي أيام "نابليون بو نابرت ... "

و في الفصل الثاني من هذا الباب و جدت ضرورة تحليل معامل الفعالية الذي صاغه المؤلف في تفسير تو ينبي لكن هذه المرة حسب وجهة القرآن الكريم و بعد تحليلنا لمدى العمل الذي تقوم به فكرة الفعالية في الافراد وفي المجتمع وبالتالي في التاريخ عززنا هذه الفكرة ببعض الأمثلة . .

و في الفصل الثالث من هذا الباب تطرقنا لفكرة الوعد و الوعيد لأنها حسب مالك بن نبي قضية يمكنها أن تكون بمثابة طرفي حد تجعل الضمير المسلم محافظا على فعاليته دون ان تسقط في التفريط أو أو في الافراط ، هذا شرط أساسي لها .

.../...

و دعمنا الفكرة بأمثلة و ركيناها بقدر تحليلها بمقارنتها مع الفكرة عندالمعتزلة .

و خصصنا الباب الثالث لفكرة التاريخ من عواملها .

ففي الفصل الأول تطرقنا الى فكرة " عالم الأشخاص " فحللناه باعتبار عالم العلاقات الاجتماعية المبني على أساس قويم تلعب فيه الاخلاق دورا كبيرا في تمتين الروابط بين أفراد المجتمع وفي ذات الفرد نفسه بتقويم سلوكه نحو وجهة يؤمن بها المجتمع :" فكما أن الانعكاس الفردي يخلق شروطه في المجتمع فان الانعكاس الاجتماعي يخلق شروطه في ذات الفرد " و بضرب أمثلة على تحليلنا هذا استخلصنا أن هذا العامل لا يقوم و حده .

و مع الفصل الثاني من هذا الباب تطرقنا الى فكرة "عالم الأفكار" ايمانا من المؤلف أن الفكرة تكون لها قيمة رياضية عندما تكون صحيحة و [illegible] في الآن نفسه والعكس يفقدها هذه القيمة و هي بالتالي لا تساهم في توجيه التاريخ و بعد تحليلنا لنوعين من الأفكار : الأفكار الصادقة والأفكار المخذولة و كيف أن الأولى يمكنها أن تمارس نشاطها في ذاتية الفرد التاريخي و كيف أن الثانية سواء منها "الأفكار الميتة" أو "الافكار القاتلة" تساهم اما في عرقلة المسيرة التاريخية أو في انحرافها عن غاياتها الأسمى للتاريخ و في كل الذي سلف كان تحليلنا مقارنا [illegible] ضرب أمثلة .

و مع الفصل الثالث تطرقنا الى فكرة "عالم الأشياء "،حاولنا ابراز ما لهذا العالم من أهمية حسب ما سطره مالك بن نبي ، اذ أن هذا العالم هو:المحيطالمادي و الثقافي للانسان وكيف أن على هذا الأخير أن يضع خططا اقتصادية تمكنه من الاستفادة من هذا العالم دون اللجوء الى الاقتصاد المنظر في المحيط الغير الاسلامي ، لأن هذا الاقتصاد جعل من الانسان آلة صماء أمام فائض الانتاج أو أمام عامل الاكتفاء الذاتي و بعد تحليلنا لتلك المقارنات التي يقيمها بن نبي بين الاقتصاد الاشتراكي والرأسمالي ضربنا عدة أمثلة تؤيد الأفكار هذه .

.../...

ايمانا من أن بن نبي يرى أن التاريخ هو عملية نشاط مشترك بين كل من عالم الأفكار و عالم الأشخاص و عالم الأشياء حسب تحديد مرشبكة علاقات اجتماعية موجهة،فانه يولي عامل البذرة الدينية كأساس تقوم عليه شبكة العلاقات وهو تركيبنا لتحليل العوالم الثلاث .

و في الباب الرابع حاولنا أن نبين العلاقة بين التاريخ والحضارة باعتبارها فكرتان مكملتان لبعض .

خصصت الفصل الأول لمفهوم الحضارة عند مالك بن نبي فقدمت تعريفها من زاويتين :

أولا : التعريف الاجتماعي للحضارة : من حيث هي أو لا و قبل كل شيء " جو " و مناخ ثقافي و " جو " و مناخ مادي وروحي .

ثانيا : التعريف الوظيفي للحضارة : و هوقائم على أساس التحليل و التركيب و أعقبت كل هذا بتحليل للمعادلة الحضارية التي يضعها المؤلف حضارة = انسان + تراب + زمن .

و في الفصل الثاني تطرقنا الى عناصر الحضارة الممثلة في تحليل لعناصر المعادلة الحضارية انسان + تراب + زمن و بعد تحليلنا لهذه العناصر ضار بين أمثلة تاريخية أشرنا الى العنصر الذي يضعه المؤلف كشرط ضروري للتأليف بين عناصر المعادلة الحضارة ، واستخلصنا أن هذه العناصر يمكنها مجتمعة أن تقوم بالدور الحضاري التاريخي في ذات الفرد الفعال في المجتمع كي يساهم في صنع السيرورة التاريخية .

و في الفصل الثالث من هذا الباب قمنا بتحليل المراحل التاريخية للحضارة التي يضعها المؤلف ابتداء من مرحلة الغريزة فمرحلة الروح فمرحلة العقل فمرحلة ما بعدالتحضر،و كنا دائما نلجأ الى أمثلة من التاريخ .

و انتهينا الى تحليل الدور الحضاري التاريخي للانسان انطلاقا من تحقيق شرطين :

.../...

شرط الاقناع و الاقتناع بالفكرة القرآنية و كيف يقومان بفعل موحد مشترك حتى يكون الانسان هذا يقدم دورة " كممثل " و " كشاهد " على عصره وأن يكون حاكما على نفسه وعلى غيره في حركاته التاريخية .

و خصصت الفصل الرابع من هذا الباب لمقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة المسيحية انتهى بنا تحليلنا الى أن الحضارة تاريخ يستند الى جغرافيا ثم تجاوب لـ : " و تلك الايام نداولها بين الناس " ، وعززت تحليلا في كل هذه بأمثلة واقعية تاريخية مستندة الى منهج التحليل والتركيب.

و ختمت بحثي هذا المتواضع بعدة استنتاجات نعتقد أنها موئشر نحو بحوث أخرى توفي فكرة التاريخ حقها في فكر مالك بن نبي.

و من الصعوبا ت التي وقفت أمام محاولتنا هذه هـــــي :

أو لا : ان فكرة التاريخ في فكر مالك بن نبـــــي تشغل جانبا هاما و جوهريـــــا في دراساتـــــه لفكرة الحضارة ، هذا يعني أن الفكرة جاء ت مع عمـــــق أفكاره في هذه الأخيـــــر ة ، أي كون أنـــــه لم يخصص لها دراسة خاصـــــة في بعض كتبـــــه ، كان بالنسبة لمحاولتنا هذه جهدا كبير يتمثـــــل في البحث عنها في عمق تلك الأفكار الخاصـــــة بالحضارة ، مما اضطرنا الى دراســـــة كل ماهب ودب من أفكاره .

و ثانيا : ان فكرة التاريخ عنده لم نعثرلها على دراسة خاصة بها من طرف دارسي فكر مالك بن نبـي ، مما اضطرالي الفـــــير مرات عديدة .و تمكنا فعلا من بعضها

و ثالثا : ان الاهتمام بفكرة التاريخ كفلسفة قائمة بذاتها لم تتداول أيضا حـــــتى عند منضر ي الفكـــــر العالمي ماعدا دراسة أحد المتخصصيـــــن فيها الا وهوالفيلسوف الانجليزي " أرنولدنوينبي" اضطرنا الى النظر في الدراسا ت القائمة حولها ومقارنتها ببعضهـــــا البعض .

و من الصعوبا ت الأخرى نذكر صعوبا ت تتمثل في المراجع والمصادر الكافيـــة و المتخصصة في فكرة التاريـــخ ، ضف الى كل هذا أن هناك جملة مشاكل اجتماعيـــة و اقتصاديـــــة كون انني كأول محاول في البحث في فكرة التاريخ عند مالك بن نبـــــي مع التكاليـــف الاجتماعيـة الملقاة على عا تقي ، مع التوافق بين البحث والعمل ، مع مواجهـــــة مشكل نفسي تمثل في كون انني أعدت الرسالة للمرة الثانية بعدأن رفضت رسالتي الأولى لظروف علمية و موضوعيـــة بعد عرضها على لجنة القراء ة و بعدموافقة الأستاذ المشرف الأول بطبيعها ؟ "

و مع كل و اكثر لا اريد ان أطيل الحديث حوله اعتقدأنني تغلبت كشاب ناشيء على كل هذه الصعوبات التي يواجهها أي باحث ، وعلى التي لا يواجهها أيضا .

.../...

ونعتقد أن الفضل الأول يعود الى جميع اساتذتي الكرام والى الاستاذ المشرف د/ عبدالرزاق قسوم الذي "تبنى" الاشراف على رسالة كان وأن سبق أن رفضت و مدى تحمله لكل التوجيهات و الارشادات في ضوء رؤية للبحث ، و أشكره أخيرا لأنه كان بمثابة " المعز ز" الأول لاعادة دمجي في البحث أولا،وثانيا لمدى انهماكه في مراجعة بحثي و توجيهاته التي لم يبخل بها علينا ، ومع كل هذا نذكر من أعماقنا أنه في " الاعادة افادة " شاكرين كل من تعلمنا عليه حرفا وكل من ساهم بقسط أو بآخر في مساعدتنا لانجاز هذه المحاولة المتواضعة .

وشكرا

الاخضر شريط : في1988/08/12.

الباب الأول

الأصول الفلسفية لفكرة التاريخ

الفصل الأول : فكرة التاريخ عند ابن خلدون

الفصل الثاني : فكرة التاريخ عند هيجل

الفصل الثالث : فكرة التاريخ عند ماركس

الفصل الرابع : فكرة التاريخ عند توينبي

الفصل الأول

فكرة التاريخ عند ابن خلدون

فكرة التاريخ عند ابن خلدون[1] (1332ـ1406م)

يمكن أعتبار العلامة المسلم ابن خلدون أحد الذين أرسوا قواعد البحث التاريخي ، وتأكيد حقيقة أن الحوادث مرتبطة بعضها ببعض. فهو بحق الرائد الأول لدراسة علم العمران في تاريخ الفكر الانساني، حيث أستطاع أن يستخلص من دراسته للعمران ، أن الحضارات تتعاقب على الجنس البشري في أربع مراحل هي:

01ـ مرحلة البداوة

02ـ مرحلة التحضير

03ـ مرحلة الترف

04ـ مرحلة التدهور" التفسخ"

ومعنى هذا أن الحضارة عمرا لعمر الافراد، حيث نجد الأفراد، في طور بداوتهم يتسمون بالخشونة ، والشجاعة والتعصب ، مما يدفعهم الى تأسيس الدولة التي تمثل الطور الحضاري في حياتهم ، ويستمرون في مسيرتهم التحضرية ، الى أن ينغمسوا في قمة الترف الذي هو المؤشر الأول لبداية التدهور" التفسخ"

وأما عن التاريخ في حركته فهو" تمثل لتلك الجماعة التي تنقلب في صور مختلفة من حالة البداوة ، ثم القبيلة ، ثم الدولة "[2]. وأما عن القوة المحركة للجماعة فهي الدين والعصبية باعتبارهما أقوى عاملين يتم بهما اتحاد الجماعة بارادة الحاكم ، وبما يؤلف بين أفرادها من حاجات ومن أمور.

ومن تحليلنا لهذا الكلام الذي قد يبدو غامضا للقارئ ندرك أهمية العصبية ومالها من دور أساسي في البناء الفردي أو الجماعي ، وبتعبير ابن خلدون فانها " الرابطة الحيوية "التي تشد الافراد بعضهم لبعض اذا أنها القرابة الطبيعية ، وهو

---

1) عبدالرحمن ، بن خلدون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ،اشراف زكي نجيب محمود دار القلم ، بيروت ، لبنان (بدون تاريخ ص14.

2) المصدر نفسه ، ص14.

بهذا يخالف فكرة أوغست كونت(1857م) القائل أن الاتحاد والانسجام بين الأفراديتم " بتلاحم اللحمة العقلية مع اللحمة العاطفية "[1]، بمعنى أنه لابد من مستوى عقلي مقبول،ولابد من مستوى عاطفي أيضا مقبول،حتى يتم الاتحاد، وهذا لايوءهل المجتمع"البدائي"مثلا" للاتحاد" أو"الانسجام" ، لأن هذا المجتمع فاقد للشرطين السالفي الذكر، ومن هنا فان مايمكن أن يقال في هذا الشأن هو أن تفسير "كونت"، لم يأخذ في الحسبان هذه الحالة ، رغم مايدعي من أنه وضع فلسفة للتاريخ يتجلى مضمونها، في أن التاريخ صيرورة من المرحلة الكهنونية الى الميتافيزيقية الى العلمية الوضعية ، وبخلاف هذا فان ابن خلدون يرى أن القرابة الطبيعية هي الواسطة التي يلتحم الأفراد بها ، ومن هنا تكون لهم نفس العصبية بمعنى أن لهم نفس المزاج البيولوجي، اذا فالخصائص الطبيعية والوراثية هي التي تتحكم في علاقاتهم .

وبهذا المعنى فان تفسير ابن خلدون يصبح صحيحا أكثر في مجاله التاريخي اذ أن التلاحم يحصل في بداية التطور ، وشاهد عيان ذلك المجتمع القبلي الجاهلي ،على أيام بعثه النبي (ص) أومجتمع مابعد الموحدين على أيام ابن خلدون ،ويتجلى لنا ذلك واضحا حين يحدثنا القرآن الكريم عن تلك القبائل من الأعراب حينما يقول: ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم توءمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم))[2] أو في قوله تعالى :((الاعراب أشد كفرا ونفاقا ...))[3]

ويولي ابن خلدون مفهوم العصبية أهمية كبرى، حتى أن الملك والدولة العامة في رأيه يحصلان بغلبة العصبية ،وابن خلدون حينما يوءكد ذلك فانه لاينفي الخصائص الطبيعية للانسان التي من سماتها التنافس والغلبة في شكل صراع حاد بين الأفراد، والذي في رأيه أساس كل تطور اجتماعي في التاريخ، بينما ابن خلدون يصور التنافس والغلبة في شكل ضرورة تفرضها العصبية" الملقحة "بالدين

---

1)محمد البهي: الفكر الاسلامي في مواجهة الاستعمار الحديث، المكتبة العصرية ،صيدا بيروت، بدون تاريخ ص55.

2)سورة الحجرات آية 14.

3) سورة التوبة آية 98.

وحينئـــذ ينفـي كل شكــل من أشكال الصراع الذي ربما ـ في كثير من الحالات كان صـراعـا دنيويـا بحتـا ، أي خاليـا من أي دافـع روحـي ، غائي هـادف ولنقـف هنـا لنتأمـل مفهـوم التنافس والغلبـة للعصبيـة ، فنجدأنه لايمـت، بصلـة الى التفسير " الطبيعـي "المتمثـل في فكرة"الحاجـة " عند" كارل مـاركس (1883م) ولافكـرة"المنفعـة" عنـد" ادم سميث"*(1790م)، لانّ هـذا التفسيـر لايحقـق لنـا الغائيـة التي تعمـل عملها في التنظيـم الاجتماعي للافراد وبالتالـي في تاريـخ شعـب ما . وتفسيـر الماركسيـة في فكرتها هـذه عن الحاجة تصـور لنـا الانسـان المادي والمادي في حال اشبـاع " حاجة" بطـن. أو في حال اشباع لـذة مـال كمـا ترى الرأسماليـة .

فالتنافـس ليس من أجل الصراع كما تقـول النظرية الماركسيـة وليس مـن أجـل الحيـاة الراغـدة كما تقـول زميلتهـا الرأسمالية ، بل أنه تنافـس طبيعـي غيـر أنـه هادف الى توجيـه السلـوك الاقتصادي نحو علاقـة أفقيـة تربـط الفـرد بالوجتمـع من جهـة ، ومن جهـة أخـرى فهـي علاقـة عموديـة يتحكم فيهـا الوازع أو السلطـان كما يقـول أبن خلـدون.

لاحظنـا أن الملـك والدولـة العامـة أنمـا يحصلان بالغلبـة والعصبيـة يقـول في هـذا المعنـى ابن خلـدون:" ان الملـك منصـب شريـف ملذوذ يستمـل في جميـع الخيـرات الدنيويـة والشهوات البدنيـة والملاذ النفسانيـة فيقع فيـه التنافـس، وقلأن يسلمـه أحـد لصاحبـه الااذاغلـب غلبـة فتقع المنازعـة وتفضـي الى الحـرب والقتـال والمغالبـة وشيء منها لايقـع الابالعصبيـة".(1)

---

*) كارل ماركس فيلسوف أشتراكي الماني(1818ـ1883م)صاحب البيان الشيوعي مع أجلز فريدريك" ورأس المال" الموءلف الاساسي للماركسية .

*) آدم سميث اقتصادي أنجليزي(1723ـ1790) صاحب نظريـة الاقتصـاد الحـر .

1) ابن خلدون ، المقدمـة ، تحقيق عبدالواحدوافي، الطبعة الثانية و لجنة البيان العربيـة (بدون تاريخ) جـ 2ص637.

وبهذا نرى أن ابن خلدون لاينكر القتال والحرب باعتبارهما شروراًلابد منهما وباعتبارهما قوتي شر لامناص منهما ، اذ أنه لايمكننا أن نتصور الحياة بدون هذا الجانب الذي هو جانب سلبي بالنسبة للحياة في طورها الحضاري، أعني أن جانب الشر له دور، ولذلك فهو ينجم تلقائيا عن التطور التاريخي، بمعنى أن الشر في هذه الحال ليس مفتعلا من طرف عنصري ، التنافس والغلبة ، بل هو يسايرهما حتى يتمكنا ؟ هاتان الاثرتان " من أداء دورهما الايجابي في الحياة ، وهو تفسير لم تستطع أية نظرية على مدار التاريخ أن تتنكر له :" سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا"(1).

ويحلل لنا ابن خلدون الدور الايجابي الذي تقوم به هذه القاعدة : " العصبية "، من أجل بناء صرح التاريخ ، فأهميتها في سير الحركة التاريخية تتحدد عنده كالتالي :

- انها تستند الى البداوة في الأول ، أي حيثما وجد البدو تتوغل فيه العصبية ، والأفراد في هذه الحال يكونون مهيئين نفسيا مزاجيا بفضل طبيعتهم الخشنة لتمتين صلة القرابة فيما بينهم ، ويستدل ابن خلدون على ذلك من مدى الاختبارات التي فرضها القرآن الكريم على الأعراب، ونجد في مقدمته أوصافا كثيرة للبدو لاداعي لذكرها في هذا المقام ، وأشهرها أن البدو مفطورون على الخير ، والأفراد في مرحلة البداوة مستعدون أتم الاستعداد لاقامة صلات التعاون والبناء وتشييد معالم " القوة "* دائما باشعاع من العصبية بوازعها الديني.

---

1) سورة الأحزاب ، آية 62.

*) القوة عند ابن خلدون ، بمعنى البأس، ولايمكننا حملها على المفهوم المادي.

سقنا آراء ابن خلدون هذه حول العصبية ، وذلك من أجل ايضاح القاعدة الأولى التي يبني عليها تفسيره للتاريخ، وإلا استحال علينا فهم التطور التاريخي ويتحتم علينا الآن أن نقف مع تفسيره لتطور الدول وتعاقبها ، حتى تكون قد ألممنا بالتفسير التاريخي لهذا المفكر من الناحية الموضوعية .

إن ابن خلدون يرى أن الدولة تمر بأطوار على النحو التالي:

- **الطور الأول:** ويسميه ابن خلدون بطور الظفر بالبغية والغلبة وغلب المدافع والممانع والاستلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها .

ويكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد(.....) وينفرد دونهم بشيء منه لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع فيها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها "(1) ويعني من كلامه هذا أن صاحب الملك لايتم له ذلك الابعدة شروط أولاها أن يكون مالكا لأسباب القوة ،(كأن تكون هي العصبية ، وعاملا التناصر والتعاون) .والشرط الثاني أن تكون هناك ظروف تدآلت بدولة أخرى الى الضعف والتقهقر مما يجعله (أي صاحب الملك) يستطيع الفتك بها والمسك بزمام السلطان ، دون أن يكون هناك عامل طبيعي آخر غير العامل الذي سميناه بعامل القوة التي أكسبها هذا الملك والمتمثل في خشونة أفراده ، وتوثبهم المستمدة من العصبية .

اذن فعملية الغلبة بشروطها الأساسية ، تعتبر ذات أهمية في تطور المجتمع وليس بشيء آخر.

- **والطور الثاني** للدولة عند ابن خلدون هو "طور الاستبداد على قومه (أي قوم صاحب الملك) والانفراد دونهم بالملك وكبحهم على التطاول للمساهمة والمشاركة .ويكون صاحب الدولة في هذا الطور، معتنيا باصطناع الرجال

---

1) المقدمة ص330.

واتخاذ الموالي والصنائع والاستكثار من ذلك لجدع أنوف عصبية وعشيرية المتاسمين له نسبة الضار بينهم في الملك بمثل سنه".(1).

وابن خلدون يرى أن هذا الطور ضروري أيضا ، اذ أنه اذا كان الطور الأول كمرحلة سابقة لهذا الطور فان هذا الأخير، ربما كانت فيه الفوضى في التمسك بزمام الملك ، لذلك فان العمليتين تتمسان بشكل ضروري: الاولى أن يقضي على كل محاولة استكبار وتطاول تحاول أن تمسك بالملك ،أي يقهرها مباشرة ." ونجد هذه الأمثلة واردة في التاريخ الاسلامي على عهد زعيم القصر الأموي معاوية بن أبي سفيان قامع الثورات ومجدد الدولة "، وفي الآن نفسه لابد وأن تكون هناك عناية كبرى بالصنائع ، أي الاهتمام بتقوية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية كالاهتمام بعامل بناء الدولة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، ونجد أن هذه العملية تدعمت في التاريخ عند نابليون بونابارت (1769-1821) ، اذ أنه لم تكن لتشد الحروب في عملية تنوير باريس .

ويعقب هذا الطور طور ثالث ويسميه ابن خلدون بطور" الفراغ والدعة لتحصل ثمرات الملك بما تنتزع طباع البشر اليه من تحصيل المال،وتخليد الاثار ، فيستفرغ صاحب الدولة وسعه في الحياة ..... وتشييد المباني...... واعتراض جنوده ..... وأدرار أرزاقهم .... فيباهي بهم الدولة المساهمة وبرهب الدول المحاربة".(2).

يمكن حصر هذا الطور في كلمة واحدة هي " التباهي بالمظاهر المادية والروحية الثقافية للدولة أمام الدول ، أو الدويلات التي تكون في مرحلة أدنى منها في التطور، وهو مانسميه حاليا " بتصدير المعالم الحضارية حتى تأخذ نسيمتها العالمية " ، وهو أسلوب تنتهجه الحضارة الغربية

---

1) المصدر نفسه،ص330.

2) المصدر السابق نفسه ص330.

من أجل الهيمنة والسيطرة على الدول الضعيفة ، واذ كان تفسير ابن خلدون هذا لايساعد هذه الحضارة الغربية على هذه الروح العنصرية ! لاننا نلاحظ أن تعريف ابن خلدون لعالم الحضارة : ليس من أجل الفخر أو النرجسية ولكن حتى تكون الدولة بمثابة قدوة حسنة للدويلات الاخرى*، أما الدولة الحديثة "الغربية" فهي تحاول أن تفرض سيطرتها من أجل ترك العالم الثالث يتخبط في ظلمات الجهل والتخلف لاغير والا ماذا يعني تصدير ثقافة في أوج شهوتها أي "أزمتها" تنكر لها مفكر غربي كتشبينغلر" E .SPHINGER*) (1986م) . بكتابه " تدهور الحضارة الغربية".

وينتقل ابن خلدون في تفسيره لتعاقب الدول الى الطور الرابع من أطوار الدولة والذي يسميه " طور القنوع والمسالمة ، ويكون صاحب الدولة في هذا قانعا ومقلدا للماضين من سلفه "(1)

ففي هذا الطور يصبح صاحب الدولة ، أو صاحب الملك في استقرار دائم ، بسبب تكيفه النفسي الذي حصل له مع عامة الناس، لكن هذا لايمنعه من الاستفادة من عبر التاريخ ، وبالخصوص من تلك الدولة الاسلامية التي أنتجت حضارة من أخصب الحضارات في التاريخ**

اذا كان الملك في هذه الحال يكون بمثابة قوة وراحة للضمير الانساني وتبصر له بسوالف الامور.

ويعقب هذا الطور طور خامس، وهو الذي يسميه ابن خلدون بطور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمعه أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على أبطاله ،ففي مجاله

---

*) نقصد بالدويلات تلك التي أنتشرت في عهد ابن خلدون في بلاد المغرب.

*) تشبينغلر أسوالد مفكر ألماني 1936م وجه فلسفته لنقد الحضارة الغربية المعاصرة

1) المصدر السابق نفسه ص331.

**) زيغريدهونكة شمس الله تسطع على الغرب جماعة اسلامية ، دار الفكر،دمشق1978

كان سلفه يوعسسون وهو كان يهدم لما كانوا يبنون وفي هذا الطور تحصل الدولة طبيعة الهرم ، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لاتكاد تخلص منه ولايكون لها منه براء الا أن تنقرض"(1)

ان هذا الطور لهو الطور الاخير من أطوار الدولة ، ونلاحظ أنه يتميز بعدة ميزات هي:

أولا: أن صاحب الملك لايصبح جادا في عملية تأسيس أمور عدالته بحيث يتسرب اليه شيء من الملل ، وكل أنواع الراحة ، حتى اتباع الشهوات ، كالاعتناء بمظاهر اللهو ، والترف ، انه يصبح في حالة " مرضية " شبيهة بهرم الشيخ الذي لايصبح قادرا على شيء الا أن يأتي توافه الأمور ، وهكذا تكون رعيته لانه حسب ماورد في الاثر" كما تكونوا يول عليكم(2)

والنتيجة التي نتوصل اليها من تحليلنا لفكرة العصبية وعلاقتها بفكرة تطور الدولة أن الملك غاية طبيعية للعصبية بل هو غاية لكل " مجد ونهاية لكل حسب"(3) . ولكن تفسخ العصبية ينجم عنه فساد الحسب ، حسب قانون : الموروث من الناس لاينتهي الا فاسدا : وهذا ما ينتهي أخيرا الى التفسخ والاضمحلال وغالبا ما تحدد مدته في العقب الواحد بأربعة آباء"(4)

واذا تفحصنا جيدا نظرة ابن خلدون لتطور الدول مراعين في ذلك جميع الجوانب فاننا نعثر على أنه يرى أن تطور الدولة انما هو " تطور علاقات الملك مع أهل عصبيته"(5) .

---

1) المصدر السابق نفسه ، ص332.

2) حديث شريف ، رواه مسلم في صحيحه .

3) المقدمة ص 638.

4) المقدمة ص6565.

5) المصدر نفسه ص6565.

واذا كانت الدولة هي دولة العصبية الغالبة ، فان الملك انما يستمد سلطته منها فان انحراف عن المؤهلات التي بوأته الرئاسة داخل العصبية نفسها ، تقلصت العصبية.ومن مدى تدرج العصبية في أهل الدولة من القوة الى الضعف من الالتئام والتعاضد الى الانحلال والتخاذل ، فان التطور يتم في ثلاثة أجيال هي:

أولا: الجيل الذي حملته البداوة على أمن من العصبية فهو في أفراده "على خُلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة ، والافتراس والاشتراك بالمجد ، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب ، والناس لهم مغلوبين"[1] (أي مطيعين).

٤٢٠٣٦٧

ان هذا الجيل الأول يصور، لنا ابن خلدون بأنه جيل البداوة ويتميز بعدة ميزات منها ميزات روحية اخلاقية ، وأخري مادية بيولوجية ،فأما الأولى ، كأن تكون أخلاقه حميدة ، وأن يمتاز بالبسالة والبطولة، وأن يكون محافظا على كرامته وكرمه ، وأن يكون بذلك جيلا شجاعا ، لايخاف أية قوة غالبة ، ثم أنه أيضا ذو بنية بيولوجية قوية ، تمتاز بالخشونة وقوة المزاج .وهذه الميزات ينجم عنها أن هذا الجيل يكون ذا جانب مرهوب ، وحد مرهف ، وكل هذا ناتج عما يملك هذا الجيل من سورة في العصبية ومتانة في التلاحم والتعاون ، وقوة الرباط الذي يؤلف بين أفراده ، اذا فهو جيل يمكن الاعتماد عليه في بناء حضارة

ثانيا: الجيل الذي تحولت حاله " بالملك والترف من البداوة الى الحضارة ، من الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك بالمجد ، الى أنفراد الواحد به ، وكسل الباقين عن السعي فيه ، وعن عز الاستطالة ، الى ذل الاستكانة ، فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء ، وتدنس منهم المهانة والخضوع.

---

1) المصدر نفسه، 6565.

2) المقدمة ص، 445.

تلك هي الصفات التي جاءت في مقدمة ابن خلدون للجيل الثاني ونرى أنها تميز هذا الجيل - يعني الجيل الثاني- بأنه ليس بالجيل الذي ينعم بنعيم الحضارة ، مع أنه لاينسى خلق البداوة بالمرة ، اذا فهو جيل استطاع أن يحقق أهم فترة في التاريخ ، من حيث السلطان وقوة البطش ، ثم انه الجيل الذي أصبحت فيه الدولة قوية بما تملك من قوة التصرف في المال والمعاش ، وقوة التصرف في العمران البشري وقوة التصرف في الحياة الاخلاقية ، وهو أيضا ليس بالجيل الذي رحل عن موطن الانطلاقة الأولى ، وتغني بها الصفات الاخلاقية ولم ينقطع عنها اطلاقا ، بل رشحها وثبتها وعمل بها عملا سديدا ، اذ أصبح يوظف كل الصفات الاخلاقية في جميع ميادين الحياة سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية ، وحتى السياسية ، وليس عيبا بعد هذا أن يعيش متنعما برغد العيش في الحضارة ، وليس غريبا أن يكون أيضا هو الجيل الذي تبلغ رسالته الحضارية الى دويلات أخرى أقل تحضراً منه ، اذا فهذا الجيل له مكانته الدولية والعالمية .

ثالثا : الجيل الثالث ، وهو الجيل الذي يغرق في نعيم الشهوات ، فهو اذا جيل تنسخ الحضارة ، والملاحظ فيه ، مثلا أن النساء والولدان يصبحون عالة على المجتمع ، وهو اذاً سن الشيخوخة بحيث أن " سورة " العصبية تفتقد " عاملها " " Sa S o l ificie n t " أي عامل تخصيب العصبية وهو الذين تتفكك الدولة حينئذ ويترتب هذا الجيل انتسام أنملاكه ، فهو الجيل الذي رمت به رياح الشيخوخة الى الممات ، نحو التفكك والاضمحلال انه الجيل الهالك لحضارته " لدولته "،كيف لا وقد أصبح شيخا هرما غير قادر على فعل أو ترك أي نشاط مهما كان هذا النشاط ، فأوصاله بدأت تتلاشى ودب فيه الوهن والضعف وأشتعل الشيب في رأسه ، فأموره تسير في فوضى

سياسيـــة واقتصاديـــة واجتماعيـــة واخلاقيـــة وغيرهـــا .

ان ابن خلـــدون اذن قد جعـــل في تصـــوره للحركـــة التاريخيـــة ثلاث لبنـــات أساسيـــة هـــي:

دور العصبيـــة في تحقيـــر البنيـــان الاجتماعـــي التاريخـــي ، والتقسيـــم المنهجي لتطـــور الدولـــة ثـــم أخيـــرا دور الأجيـــال في تعاقـــب الدول.

ومع كل هـذا فلـم تسلـم نظريـة ابن خلـدون من الانتقادات اذ أخذ عليـه بعض النقـــاد ونذكـر على سبيـل المثـال منهـم الدكتـور عماد الديـن خليـــل في كتـــابـــه : " ابـــن خلـــدون اسلاميـا ". الملاحظ أن ابـن خلـدون ، عمم مقـولاتـه ذلـك:" أننـــا بالرجـوع الى معطيـــات مقدمتـــه (أي مقدمـــة ابن خلدون) جميعـا نضع أيدينـــا على عشـرين التعميمـات لمقولات قد تنطبـق على عصـر ما أو مكان مـا ، لكنهـا لا تنطبـق على كـل مكان وزمـــان"(1) من مثـل تحديـد الزمن الصـارم لأعمار الدول.ومن مثـيلاته الدول لا تقـــوم الا بالعصبيـــة .... الخ ولنقـرأ مـا هذا الحكـم لعمـاد الديـن خليـــل الذي ورد في المقـــدمـــة الخامسـة من البـاب الأول".... وأعلم أن أثـر هذا الخصـــب في البـــدن وأحوالـه يظهـر حتى في حال الديـن والعبادة ، فنجد المتقشفيـن من أهـــل الباديـــة أو الحاضـــرة ممن يأخـــذ نفســـه بالجـــوع والتجافـــي عن المـــلاذ أحســـن دينـــا واقبـــالا علـــى على العبـــادة من أهـل الترف والخصبـة" تحليـل صائـــب لكنـــه ما يلبـــث أن يمارس التعميـــم الذي يبعـــد عن جادة الصـــواب بدرجـــة أو بأخـــرى فيقـــول:" بل نجـد أهـل الديـن قليليـن في المدن والأمصـار لما يعمهـــا من القســـاوة والغفلـــة المتصلـــة بالاكثـــار من اللحمـان والأدم ولبـاب البـر ، ويختـص وجـــود العبـــاد والزهـــاد لذلـــك بالمتقشفيـــن في غذائهـــم من أهـل البوادي ، وكذلك نجـــد حال أهـــل المدينـــة الواحـدة في ذلـــك مختلفـــا باختـلاف حالهـا فـــي التـــرف والخصـــب."(2)

---

1) عماد الديـن خليـل ، ابن خلدون اسلاميا ، المكتب الاسلامي ط1 دار الفكر بيروت 1983، ص 104، 105.

2) المصـــدر نفســـه ص 496.

ان هذا الحكم على مافيه من الأجتهاد ، لايحمي بمواقفنا الكاملة وذلك لكوننا نعرف أن الدعوة الاسلامية شقت طريقها في المدن والأمصار وقامت على أكتاف أناس أختلفت حظوظهم من الطعام والشراب ، ونعرف أيضا أن البادية كانت أقرب الى الأرتداء بعيد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانه لم يبق مخلصا للاسلام ودولته في تلك الفتنة الجامحة كما تذكر الروايات ، غير المدن الكبيرة الاصلية في تحضرها كالمدينة ومكة والطائف.(1)

ويمكن للقارىء أن يرجع الى فهارس مقدمته (ابن خلدون) لكي يرى بأن عينه مزيدا من الأمثلة على تعميماته ، ان ابن خلدون يسحب على مدى الزمان والمكان ، وقائع هي بمثابة امداد محدودة من حركة الزمان وأبعاد المكان، ومن ثمة لايجوز لنا أن نستنتج أن الذي دفع ابن خلدون الى اصدار تلك المقولات بحق العرب ، ليس مجرد رد فعل نفسي وفكري ازاء ما أحدثته هجمات بعض قبائلهم في الشمال الافريقي مع ترجيحنا النسبي لهذا العامل وانما رغبة منه في التعميم الذي مارسه في أكثر من مكان والذي يقود بالضرورات الى مد المقولات أو النظريات أو القوانين الى أكبر مدى زماني أو مكاني، لكي يعطيها صفة الشمولية ويجعلها أكثر ثقلا وأهمية في حركة التاريخ على حساب الوقائع التاريخية نفسها".(2)

ومن ثمة ، فانه اذا كانت بعض القبائل العربية في فترة ما من تاريخها لم تقدر على التغلب الا على البسائط ، عمم هذا الحكم في مقدمة ابن خلدون وأصبح " أن العرب لايتغلبون الا على البسائط ". ولكننا نعرف مالذي فعله العرب المسلمون خلال فتوحاتهم وكيف أنهم تحدوا جغرافية العالم فلم يقف شيء دونهم " !!

---

1) نفسه ص105.

2) المصدر السابق ص106.

ويضيف الدكتور عماد الدين خليل أننا نجد من التعميمات غير الموضوعية في بعض الأحكام الأخرى، كالحكم على الرأي القائل" اذا كانت بعض الجماعات العربية لدى تغلبها على أوطان أسرع اليها الخراب بالتعميم فيقول ابن خلدون " أن العرب ان تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب"، ومع ذلك فان الدكتور عماد الدين خليل يرى أننا نعرف ماتفجر على أيدي العرب المسلمين بعد الفتح من خير حضاري عميم نقل العالم الى الى الأمام تمدنا وتحضرا.

ويرى الدكتور خليل أنه اذا كانت بعض الجماعات بعيدة من سياسة الملك" والحقيقة أننا نعرف أن العرب المسلمين هم الذين ساسوا ثلاث دول كبرى على الأقل لعبت دورا فعالا في تاريخ البشرية ، وهي دولة الراشديين ، ودولة الأمويين في الشام والأندلس ودولة العباسيين.

ثم ان ابن خلدون لم يحدد لنا مصطلح " العرب" الوارد في مقدمته تحديدا صارما لايدع لنا مجال للشك ، هل المقصود " بالعرب" هم البدو أو العرب ، الذين يتكلمون العربية أم الاثنين معا ؟ ان تحديدا كهذا يبقى نقيضا لنزعة التعميم التي تعتبر أحد مناقض مقدمة ابن خلدون ، وضمن هذا المجال نشير الى ذلك الجدل الذي دار رحاه بين كل من الدكتور طه حسين وساطع الحصري حول لفظة (العرب) وما المقصود بها ، هل المقصود بها العرب بمعنى البدو أم بمعنى العرب كأمة اسلامية ؟.

ان التاريخ يسير في خط معين ، وان الحضارة غير أبدية في المجتمع بل هي مجرد مرحلة زمنية كبقية المراحل ، ان هذه النقطة لفتت أنتباه نقاد ، لأننا لو تمعنا في تعريف ابن خلدون لوجدناه لايركز على أن أي مجتمع ينتقل من البداوة الى طور الحضارة ثم الترف فالتدهور بقدر مايركز على

الاسباب التي تؤدي الى هذه المراحل ، وهذا ما غفل عنه جل من توجه بالنقد لنظرية ابن خلدون ، ثم اننا نفهم من هذه النظرية أننا لانستطيع تحديد الفترة الزمنية التي يمكن أن يظل فيها المجتمع في طور من أطوار تطوره، كما نفهم منها أيضا أنه من الممكن أن يرجع المجتمع من مرحلة الترف الى مرحلة التحضر، اذا ما استيقظ وأدرك نفسه قبل أن يهوي الى مرحلة التدهور ، وفي هذا المعنى يقول الدكتور عكاشة شايف" الصراع الحضاري في العالم الاسلامي" ينبغي أن لانحصر مدلول نظرية ابن خلدون في المجال الخاص بتكوين الدولة اذ أن تكوين الحضارة الانسانية يتعدى تكوين الدول وتكوين الدولة ماهو سوى جزء من تكوين الحضارة التي يساهم فيها أكثر من مجتمع فانحطاط أو تدهور بعض الدول الغربية بعد الحرب العالمية الثانية لم يؤد الى انحطاط القارة الأوربية ، لأن شمولية الحضارة هي التي ساعدت الدول المتدهورة على أن تعود من طور التدهور الى طور التحضر دون أن تعاني مرة أخرى من مرحلة البداوة"(1).

ماهي وجهة نظر مالك بن نبي في فكرة التاريخ هذه التي قدمها ابن خلدون أنه يرى أن تفسير ابن خلدون للحضارة على أساس أنه محصور في مايسميه ابن خلدون بالدولة هو تفسير ضيق لكنا يقدم تفسيره الذي ينطبق على الرقعة الجغرافية التي عاشها .

ويضيف مالك بن نبي أن ابن خلدون حينما يصور لنا تطور الدول من جيل الى جيل ،وكأنه يشبهها بالكائن الحي في تطوره من الطفولة الى الشباب فالشيخوخة وهو حسب رأي مالك بن نبي تفسير ضيق لأنه بيولوجي

---

(1) عكاشة ، شايف، الصراع الحضاري في العالم الاسلامي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ص57.

والحقيقة أن الهوة عميقة بين ما يصدق من مفهوم التطور في عالم البيولوجيا وبين الشيء الذي لا يصدق على عالم السياسة والمجتمع.

وللانصاف نقول أنه مهما قيل عن نظرية ابن خلدون في فكرة التاريخ عنده ، فان التاريخ يبقى هو العلة الأولى في تدهور دول وتحضر دول ، ثم . ان ابن خلدون اذا كان قد تفطن الى شيء مما نسميه نحن بفلسفة التاريخ فان تفسيره يبقى مهما جدا خصوصا وأن الحال يقتضي من حين لآخر أن نعود اليه وأن نستفيد من هذا التصور ، ويبقى اذا هو المرجع وهو المصدر لكل فلسفة تاريخ بالمفهوم الاسلامي.

الفصل الثاني

فكرة التاريخ عند هيجل

فكرة التاريخ عند هيجل

أول ما يخطر بالبال . . . يعتبر هيجل من الطبيعيين التابعين للمثالية الكانتية[1] لأنه حلقة متصلة من كانط لفيختيه لشلنج فهيجل ولكن هذا التصور لمكانة هيجل بين هؤلاء يبدوا تصورا زائفا اذ الواقع ان هيجل ليس الحلقة الاخيرة في السلسلة ، بل يقوم مذهبه مستقلا عن المذاهب الاخرى ولايشترك معها الا في قليل من الصفات ، وفيما عدا هذا فمذهبه أصيل ، ثم انه تأثر خصوصا بالنزعة الطبيعية اليونانية بمدرسة التنوير التي سادت في القرن الثامن عشر واتصل بكلتا الحركتين عبر كانط والمثالية الالمانية عموما .[2]

ويمكن تلخيص مميزات الفلسفة الهيجلية في النقاط التالية :

1ـ **العقل أو الروح** هو الحقيقة النهائية وأساس الحقائق جميعا ، ولايبلغ مرتبة ادراك نفسه ادراكا كاملا الا اذا أجتاز عدة مراحل سابقة وأستوعبها في نفسه . والحقيقة والفكر لفظان لهما مدلول واحد وبذلك تصبح الفكرة والشيء الواقعي حقيقة واحدة وتصبح الحقائق الواقعة تعبيرا عن الفكرة وهي التي تكشف عنها .

2ـ **الفكر عند هيجل:** وحدة عضوية ذات أجزاء منفصلة ولكنها في الوقت نفسه متصلة فالكل ممثل في كل جزء ، كما أن كل جزء موجود في الكل ومراتب الفكر اذن أجزاء متفاوتة من مجموع الحقيقة ولا يعرف منطق الوجود تعاقبا في الافكار بين السابق واللاحق بل ان كل فكرة تتضمن

---

1) الكانتية نسبة الى الفيلسوف الالماني كانط (م1804م)

2) فيختيه فيلسوف ألماني ويعتبر مع شلينج ممن ساهموا في وضع القواعد الأولى لفكرة الأمة الألمانية .

الآخرى، وتلازمهما . ومن ثم يصبح التاريخ هو تجلي الحقيقة المطلقة التي لاينقطع وجودها .

3- ان وحدة الفكر انما هي وحدة بين أنواع في الحياة العادية وبالنسبة للعقل العادي ويعني هيجل بذلك أن العقل العادي يتوهم أن أجزاء الكل متناقضة متعارضة لا أنساق بينها ولا انسجام ، وهو يقع في هذا الخطأ لأنه يرى الجزء فيحسبه كلا في حد ذاته ..

وعلى ذلك يصبح المطلق هو وحدة الأطراف المتناقضة في وحدة شاملة كما يصبح الأساس الأول الذي يوصلنا الى الحقيقة هو الاعتراف باتحاد الأضداد وانسجامها فكل اثبات يتضمن نفيا وكل نفي يتضمن اثباتا .

الديالكتيك عند هيجل:

ان الديالكتيك عند هيجل يرتبط ارتباطا وثيقا بفكرة العقل فهو تبين من طبيعة العقل وماهيته أو هو حوار العقل نفسه ، وهو يحدد في مواضع عديدة مايقصد، بالمنهج الديالكتيكي، وخلاصته أنه نمو أو تطور الفكر يجري من الوضع الى السلب الى التأليف بينهما ، أي على أساس هذه النقاط الثلاث من الموضوع الى نقيضه ثم الى المؤلف من كليهما أي مركب الموضوع وفي هذا يقول: "إن الفكر الديالكتيكي كما نفهمه هو ادراك التعارض في الوحدة ، أو ادراك الموجب في السالب ، وهذا السلوك هو سلوك الفكر النظري " ويقول في موضع آخر: " - أطلق كلمة ديالكتيك على المبدأ المحرك للتصورات حيث أنه ليس فقط يحل بجزئيات الكل بل وأيضا هو الذي يحدثها " . واللفظ ديالكتيك لايعني أن موضوعا أوقضية أوشيئا معطى للشعور أو العاطفة أو الوعي المباشر ينحل ويختلط من أجل أن نشتق منه متناقضاته ، فهذا هو الديالكتيك السلبي كما نجده عند أفلاطون

لأنّ النتيجة الاخيرة لهذا الديلكتيك السلبي هي أن نقدم الشك في أمثال ما.وهو أمر يمكن أن يدرك على نحو ما أدركه الشكاك القدماء على أنه تناقض أو يدرك على النحو الفاسد الذي أدركه عليه المحدثون أي على أنه اقتراب من الحقيقة ، بينما الديالكتيك العالي للتصور فحواه ادراك التحديدين لا فقط على أنه حدود متضاد ، بل أيضا على أنه يخرج من ذاته محتوى ونتيجة أيجابيين ، وعلى هذا فالديالكتيك يمكن أن يكون تقدما باطنيا محايثا وعلى هذا فالديالكتيك ليس نشاطا ذاتيا لفكرة خارجية ، بل هو عينة روح المحتوى الذي ينتج عضويا فروعه وثماره ، انه الفكرة التي تنمو بفضل نشاط عقليتها العالي وهذه الحركة الثلاثية ليست قاصرة على الفكر بل انها تتناول العالم بأسره وكل ما هو موجود في العالم من تاريخ وطبيعة وفلسفة ودين وسياسة.

المسفة المطلق عند هيجل:

يقول هيجل في تعريفه المطلق بأنه الروح ، واستكشاف تلك الروح وفهمها هو الغرض من كل فلسفة وكل ثقافة ، وهي النقطة التي تتلاشى عندها فروع المعرفة جميعها من علم ودين ، ويرى هيجل ان ادراك الانسان للكون يحتم عليه أن يبحث عن تحليل للكون ، وهو يرفض ادراكنا للعالم عن طريق التصوف والهام البصيرة ، ويرى أن الوسيلة الوحيدة لادراك الكون هي أنتقالنا من مراتب العقل الدنيا الى مراتبه العليا ، ولاتستطيع الفلسفة أن تنتقل من النهائي الى اللانهائي دون أن تعترف بنقطة البداية ، يقول هيجل في كتابه "فلسفة الحق" : "ان ما هو عقلي حقيقي وما هو حقيقي عقلي" . وهذه العبارة هي مفتاح فلسفته ، فالحقيقة كلها تعبر عن العقل والكون كله يحقق وجود الفكر.

لقد كان المطلق في أول أمره فكرة خالصة أزلية ثم عبد الى الطبيعة حيث تحول الى لاشعور، ثم عاد فاستيقظ في الانسان ثم ؟ أخذ يحقق نفسه فيما ينشأ في العالم من نظم هو هدف مازال في خصومها، ويجب أن تتحرر بهذا العلوم لكي تكتسب واقعا مستقلا .

المجتمع :

ان اتساع الاسرة ، بوصفه أنتقالا من الاسرة ذاتها الى مبدأ آخر هو في الوجود تارة مجرد نمو هذا الوجود في شعب أو أمة ، لها بالتالي أصل طبيعي مشترك ، وهو تارة أخرى تجمع جماعات ، أسرية مشتتة اما بقدرة سيد أو بالقبول الحر ، وتدخل تحت هذا الاتحاد الحاجات التي تربط كل جماعة بالجماعة الاخرى والعمل المتبادل الذي ترضى به كل واحدة أخرى.

والناس يدخلون في علاقات اجتماعية متنوعة ، ويشكلون جماعات ومنظمات ويقيمون موءسسات سياسية مختلفة من الاسرة الى المجتمع الى الدولة قبل أن تظهر الفلسفة ،وهم لاينتظرون ظهور الفلسفة لتعلمهم كيف يقيمون النظم السياسية أو كيف تبني الدول، ان الفلسفة تأتي لتجد أن الواقع الاجتماعي قد أكتمل بناوءه ، وهي عندما تعبر عن هذا الواقع في صورة مذهب فلسفي فهي انما تعبر عن الافكار السائدة التي تعتبر محاور سياسية يرتكز عليها بناء المجتمع. فمهمة الفلسفة اذا هي الكشف عن الافكار الاساسية أو الركائز العقلية التي يقوم عليها هذا البناء.

الدولة :

الدولة هي الجوهر الاجتماعي الذي وصل الى الشعور بذاته ، وهي تجمع في ذاتها بين مبدأ الاسرة ومبدأ المجتمع المدني ، والوحدة التي

توجد في الأسرة على أنها شعور بالمحبة هي جوهرها ، لكن الجوهر ماهنا أرتفع من خلال المبدأ الثاني ، أي من خلال الارادة الحرة العاقلة الى ماهو كلي:

ويقول في موضع آخر:" الدولة هي تحقيق الفكرة الاخلاقية ، والروح الاخلاقية هي الارادة الظاهرة المتميزة الجوهرية التي تعقل ذاتها ، والدولة هي تحقق الحرية العينية ، وبما أن الحرية هي جوهر العقل ، والدولة الجانب الموضوعي للعقل ، فان الحرية هي جوهر الدولة ويضيف هيجل: " ان الدولة هي واقعية الحرية في هذه الحالة فان الحرية تقوم على الفردية " يتعلق بها من مصالح تتلقى نموها وحقوقها بذاتها وهذا في اطار الاسرة والتنظيمات الاجتماعية المدنية وانها أي الفردية من تلقاء ذاتها وبدون توجيه تندمج في المصلحة العامة وتعيها وتريدها لأن هذه المصلحة العامة هي روح الدولة وغايتها النهائية وكنتيجة لهذا فانه لامعنى للكلي الذي هو مجموع الأفراد ولاقيمة من دون وعي وارادة هؤلاء الأفراد له ، ففالية الأفراد وارادتهم الواعية له هي مصدر قيمته ومعناه ، يقول هيجل: بما أن أفراد الجماعة اجتماعية وفن ودين وعلم ، فازداد بذلك ثروة وكمالا ثم عاد الى نفسه آخر الأمر مرة ثانية .

فكرة الحرية عند هيجل:

لايمكن بحال من الأحوال أن نبحث في فلسفة هيجل السياسية دون أن نتعرض بالتحليل لنظريته في الحرية ، ان الحرية عنده جوهر الروح ، فكما أن جوهر المادة هو الثقل فكذلك الحرية هي جوهر الروح بل ماهيتها اننا نشعر شعورا مباشرا بأن الحرية هي في مقدمة السمات التي تتميز بها الروح ان لم نقل بأنها الصفة الأولى التي تتمتع بها الذات،

ولكن الفلسفة تعلمنا أن كل الصفات الاخرى التي نتملكها الذات انما تقوم أولا وقبل كل شيء على صفة الحرية ، مادامت كل هذه الصفات ، انما هي بمثابة وسائل أو أدوات مجعولة من أجل تحقيق الحرية ، وليس في الروح مبدأ يمكن أن نحدده بمثابة الحق الأوحد اللوم الا الحرية ، وتبعا لذلك فان محور الارتكاز في الفلسفة النظرية أو التأملية كلها انما هو مفهوم الالحرية .

الدولة غاية التاريخ الهيجلي:

تمثل الدولة غاية التاريخ عندهيجل " وذلك بتجلي فكرة المطلق فيها ومع ذلك فهي نتاج تطور من الاسرة فالمجتمع المدني فالدولة ، هذا الطريق الطويل في التطور يشكل برمته وقائع التاريخ وعلينا أن نتفحص الآن بقدر الامكان كلا من الاسرة والمجتمع المدني لنصل الى الدولة فما هي الاسرة عند هيجل؟

الاسرة عند هيجل:

تتحدد الاسرة من حيث هي جوهرية مباشرة للروح ، بوحدتها الشعورية بالحب ، بحيث ان استعداد الروح الخاص يكون هو وعي امتلاك المرء لفرديته في هذه الوحدة ، التي هي الماهية في ذاتها ولذاتها ، ووعيه بأنه لايكون موجودا فيها ، الا بوصفه عضوا وليس بوصفه شخصا لذاته .

ان الحق الذي يخص الفرد بموجب وحدة الاسرة والذي يكون حياته في هذه الوحدة لايتخذ صورة الحق بوصفه لحظة مجردة للفردية المحددة الا حينما تبدأ الاسرة بالتفكك ، أي أن وجودهم الشخصي والواقعي في الأول كان يدخل في لحظات تكوين الكل .

وتنقسم الاسرة بصورة طبيعية وجوهرية ، وفقا لمبدأ الشخصية الى عدد من

الأسـر التي تتصـرف عضويـا كما يتصـرف الأشخاص الشخصيين المستقليـن وتكـون نتيجـة ذلـك في علاقـة خارجيـة فيما بينهـا ، وبتعبيرآخرفان مايربـط الأسرة بوصفها معنى اخـلاقي هم كائنـات روحيـة هم ذواتهـم ، ويحملـون بالتالي عنصـري الفرديـة القصـوى الواعيـة الارادية والكليـة القصـوى التي تعرف الواقعية الجوهرية وتريدهـا .

والدولـة بوصفها روحا لايمكـن أن تكـون الامثابـة كل يتفاضـل الى ألوان من النشـاط الخاصـة تصـدر عن نفـس الفكـرة الخاصة بالحقـوق ، والتشريع هـو التوزيـع العضـوي للقـوة الدولـة وهو الذي يتضمـن التعيينات التي وفقا لارادة العقـل لاتـوجد في الأفـراد الا على سبيـل الامكـان والقـوة لكنها عن طريـق التشريـع تصـل الى الشعـور والوعـي بذاتهـا .

وتشكـل الموءسسـات أو الدسـتور القاعـدة الثابتـة للدولـة كما تشكـل في الوقـت نفسـه ثقـة الافـراد ومشاعرهـم المدنيـة أيضـا ، وهذا يدل على توفـردعائـم الحريـة العامـة لأن الحريـة الخاصـة تكـون بها متحققـة فـي الواقـع وعقلية في الوقـت نفسه وتشكـل القوانيـن في الدولة الأساس الدال علـى مفهـوم الحريـة الموضـوعيـة ، وهي تبـدوللذات الفرديـة وارادتها الأعتباطيـة ومصالحها الجزئيـة تبدوا وكأنهـا حواجز وحـدود لكنها في المقـام الثاني غايات مطلقـة ، وفي المقـام الثالـث تؤلـف جـوهـر الارادة الفرديـة التي نجـد في هـذه القوانيـن حريتها بحيث تصبح هـذه القوانيـن بمثابـة عادات أخلاقيـة اجتماعيـة لها قيمتها في حقيقـة هـذه الشخصيـة .

وهيجـل يوجـد الدولـة يـرى فيها الكائـن الاجتماعـي الأكبـر ، ويرى أن الانسان لايصـل الى الحريـة الحقيقيـة الا عن طريـق الدولـة وذلك حينما يعيـش الانسـان القانـون بدلا من أن يخضـع لـه خضـوعا سلبيا ، فانه بهـذا لايصبـح قهـرا بلشكـل من أشكـال التحريـر ، بأن يجعـل الانسـان يضبط نفسـه وفرديتـه

العينية ووجداناتـه الحية ومنفعته الانانية وهيجل ينسب معيارا لهذه المشاركة في الروح الجماعية أي روح المجتمع ممثلة في الدولة ، لكن مثل هذا الوضع لايتحقق الااذا كانت الدولة جيدة واخلاق الناس متينة ويرى هيجل أن تقدما من هذا النوع يمكن عن طريق فصل الصفوة المختارة من أبناء هذه الدولة غيرأن عمل هؤلاء الصفوة لن ينجح الا اذا كانت أفكارهم ومشاعرهم ومصالحهم مطابقة للعقل خيرا من الانظمة الموجودة ،وبالتالي يكون أصدق من هذه المؤسسات الموجودة وأقرب الى الكلي:

التاريخ الكلي حسب هيجل:

كنا عرفنا " التاريخ" بأنه تصاعد الفكرة الأولى الاساسية نحو الفكر الكلي ،فما هو جوهر التاريخ حسب هيجل ؟

كل ماكتبه هيجل عن التاريخ الكوني يقوم على ابراز العقل عاملا بصورة متصاعدة في الاحداث التي ليس فيها أي حدث عارض بل كل شيء مدموج في" حياة الفكر" ومن هنا كان " تاريخ" هيجل هو" تاريخ" العقل فهو " المحكمة العليا" ودور الفيلسوف هو البحث عن "سبب"الاحداث ذلك أن كل الواقع هو " تموضع" العقل، لكن السؤال المطروح ماهو هدف "التاريخ" حسب هيجل؟ يرى هيجل أن العقل العامل في التاريخ يصل الى غايته بواسطة " حيلة" فهو يستخدم" أهواء"الناس هؤلاء الذين يتبعون مصلحتهم ويحققونها " ولكنهم بذات الوقت يحققون غاية أبعد ، متأصلة ، وان كانوا لايعونها ،ولا هي في قصدهم " وهذه الغاية هي الحرية التي ماهية الروح ومعدن التاريخ ولهذا نرى أن هيجل نحى بالحضارات الشرقية القديمة والقبائل الامريكية والافريقية في ترتيبه العام للتاريخ الكوني ذلك أن الحرية لم تتحقق الاعند الاغريقيين الاحرار، ولكن بالرغم من احتلال الفكر الاغريقي والعالم

الاغريقـي ، لمركـز النقبـل من تاريـخ هيجـل عن الحريـة الا أنه لم يبلـغ الا سـن سبـق.
المراهقـة في تصـور هيجـل لحريـة "الفكـر" ويعـود الفضـل الى المسيحيـة
التي حطمـت " الشمولية الجماليـة " للحضارة القديمـة ، ووحـدت مقولتـا " الخاص
والعـام" في وعـي المواطـن وبذلك دفعـت تقدما كبيـرا في مجال الحريـة
فهـل "الفكـر" العامـل في " التاريـخ" هو ذو صبغـة فرديـة أو شعبيـة ؟

" الفكـر في التاريـخ الكوني عنـد هيجـل هو "الفكـر القومي" " أي نمو مبـدأ
يرتـدي أولا شكـل " رغبـة" غامضـة تبرز الى الخـارج ، وتنـزع لكـي تصبـح
موضوعيـة وتنتشـر هذه " الرغبـة" في الديـن في العلـم ، في الفـن ، في المصائـر
وفي الاحـداث"، ويقـول هيجـل " يمثـل الفكـر القومـي - تماما المفهـوم
الأعلى الذي كـونـه هـذا الفكـر عن ذاتـه". لكـن هـذه المرحلـة معرفـة للتجاوز
عند خمـود الفكـر الناشـط. فتحـل لحظـة العـدم السياسي والملـل. فينـدثـر
"الفكـر القـومـي" دون أن يمـوت وينتقـل من القـوة الى الفعـل " يتفعـل ، دون
أن يفنـى غيـر أنـه يتـرك المجـال الى شعـب آخـر وكل شعـب لاتحيـن فرصتـه الا
مـرة واحـدة .... وبهـذا يبـرر هيجـل الحـروب بيـن الشعـوب وفتـح المجـال
الى التاريـخ الكونـي أي" المحكمـة العليـا".

رأينـا كيـف أن فكـرة هيجـل عن التاريـخ مبنيـة أساسـا على ما يسميـه
بالمنطـق الجدلـي وهو ما أجمـع النقـاد على تسميتـه بالمثاليـة الديالكتيكيـة
ورأينـا كيـف أن العقـل يتجلـى ويتوقمـن في أسمـى مظاهـره في التاريـخ
أي حينمـا يتحقـق من تطـور الاسـرة الى المجتمـع المدنـي فالدولـة التي ترمـز
في نظـر هيجـل الى العلاقـة الموجـودة بين عالـم السياسـة والمجتمـع . مجهـة
والتاريـخ من جهـة أخـرى حيـن تتجلـى بالطبـع فكـرة المطلـق ، ورأينـا كيـف
أن المطلـق في نظـر هيجـل لايمـثل سـوى سريـان فكـرة الروح عبر مراحـل تاريخيـة ما
ومع كـل هـذا فلقـد أجمـع النقـاد على تقديـم بعـض الانتقادات المتمثلـة في التالي

1= بالنسبة للمنطق الجدلي الذي بسنى عليه هيجل فكرته عن التاريخ ، صحيح أن كل شيء مدين بوجوده الى نقيضه ، وأن هناك صراعا أبديا بين الميول والاتجاهات المتضاربة ، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ماكل فيه من امكانيات يبدأ بالانحلال ، وتتولد من باطنة نفسه قوى تحطمه تماما وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه ولكن هيجل يتوسع فيما يدعيه أكثر مما يجب ، انه يعتقد أن هناك صراعا دائما وتوفيقا بين النقائض وأن الموحد يحتوي على العناصر التي لاتزال فعالة من كل الفرضية ونقيضها ويقرر بنا خطوة واحدة من الحقيقة .(1)

2= ثم ان هيجل لايفرق بين ماهو نقيض ، وما هو واضح متميز يقول كروجة بهذا الشأن " من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو عدم وجود الفن وأن الدين والفن ما هما الا تجريديان ليست لهما حقيقة الا في الفلسفة ، موحد الاثنين أو أن الروح العملية هي نفي الروح النظرية ، وأن المحسوس نفي للحدس ، وأن المجتمع المدني نفي لنظام .... وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق وأن كل هذه التصورات لايمكن التفكير فيها خارج نطاق موحدها الذي هو الروح الحرة ، والفكرة والنزعة الاخلاقية للدولة بنفس الطريقة كالوجود وعدمه التي لاتصدق الا بالصيرورة فقط ".(2)

3= وأما قول هيجل بأن النقيض لاينفي الا النواحي الناقصة من الفرضية فانه يوءدي الى سوء فهم آخر ، ان هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تماما وتقوا على انجازه الحكمة الواعية التي يتمتع

---

1) عبد الحميد صديقي: ، تفسير التاريخ ت ، كاظم الجوادي، الدار الكويتية للطباعة والنشر بون تاريخ ص68.

2) المصدر نفسه ص68-69.

بهما الأفراد ، الا أن هيجل ، على العكس من ذلك يقول ان الافراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي الا معلومات بسيطة جدا عما يقولون به فعلا، اذ أنهم كلهم مجرد أدوات ، وليسوا سادة هذه الصيرورة التاريخية فهذه الصيرورة صيرورة لاشعورية بالنسبة للأفراد.

4= ان الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها " هيجل" قد علمت الناس عبادة القوة وقد ساند هو نفسه كل رجل أرتقى عرش السلطان أ حين حاول نابليون بخراب جيشه أن يدخل العلاقات البرجوازية الى ألمانيا كان " هيجل" الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ورحب بدخول جيش نابليون الى (ينا) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة ثم سمي نابليون (الروح المطلقة على جواد أشهب ، ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الاقطاعي في ألمانيا والذي كان على رأسه فريدريك وليم الثالث ، كان هيجل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا".

ونريد أن ننظر آخر الامر في نظرية هيجل عن الدولة فيقول" أنه كما نعلم يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة ، فالعالم كما يتصور، ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواح كل منها قائمة بذاتها تماما.(1) وعنده أن ما يظهر من استقلال بين كل من المجتمع المدني والأسرة والدولة ما هو الا خداع " بصري " للذي ينظر في المجتمع التاريخي دون أن يستعين " بتلسكوب" التاريخ .

---

1) المصدر نفسه ص٧٨.79.

الفصل الثالث

فكرة التاريخ عند كارل ماركس

فكـــــرة التاريـــخ عنــدكارل ماركـــــس (١٨٧٥م)

يقول كارل ماركس في كتابه نقدالاقتصـــاد السياسـي :"يجب علينا أن نعمل علـى تغييـير التاريخ بدلا من أن نركن الى تفسيـره" . وهو يعني من كلامـه هـذا أن تاريـخ البشريـة لازال قائما على نظـريات تفسـره وتشكل الافلاطونـية حجر الاسـاس هذا التفسيـر تلك الافلاطونية التي زعم هيجل أنه وبانكاره للمنهج الجدلـي قد نفض عليها الغبـار ، ولكن في الحقيقـة مافعله هيجل رغم ابتكاره هذا أنـه قطـف ثمـرة الافلاطـونيـة حسب تعبيـر كارل ماركس وكان على هيجـل أن يعيـد النظـر في الفكـرة من أساسها أي بمعنـى أن لايتمسك بقانون التصاعـد الذي كشـف عنـه أفلاطـون والذي أحسـن تباتـه الفكـر البشـري ، بل عليـه أن يقـول بأن فكـرة التصاعـد لم تعـد صالحـة خصوصا وأن الفكرة تناولت من وجهة نظـر فردانيـة وكان عليـها أن تتناول من وجهة نظـراجتماعية ، ومن هنا بقـي في نظـر كارل ماركس أن كل ماقدمته النظـريات السابقة وهيجل على رأسهم هـو أن أصحابها يفسـرون الفكـرة الافلاطونية بمناهج جديـدة ، وهم بهذا كما يقـول كارل ماركس شأنهم شأن يـوم " سينارغا" لايأتـي الابعـد الغسـق. والفكرة كمانراها هـي لهيجـل في الاسـاس الاأن كارل ماركس يستغلها ليرد بها عن فكـرة التفسيـر الذي يتهـم بــه هيجل ويقـول فيه عنـه بأنـه روتينـي .

هذا الكـلام أو ماشابهـه نجده في الكتاب الذي مهد به كارل ماركس لاهـم أفكـاره وهـو كتـاب" نقدالدولة الهيجيليـة ".

وعندمايفرغ كارل ماركس من نقده لفكرة التاريخ عند هيجـل يحاول أن يقـدم لنا الفكـرة في قالبها الجديـدوهـي التـي تتمثـل في التالـي:

تقـوم فكـرة التاريـخ على تصـور عام لتاريخ البشريـة نفترض فيـه أن هذا التاريـخ قام على أساس مراحـل " وهـذه المراحـل هي نفسها التي أسسها أوجست كونت" والاختـلاف في نقطـة الانطـــلاق كان أولاها المرحلـة المشاعية وهي تلـك التـي

ساد فيها " الانتخاب الطبيعي" أي هي المرحلة التي أعلت الانسان لأن يعيش مع الطبيعة ويتوافق معها ، لاشيء غير الانسان الاول وأدواته والطبيعة وكل ماحصل من تكاثر لهذا الانسان الاول كان الملك مشاعا بين أفراد، ، لأنه لم يكن هناك أختلاف في أن كل ماهو على الطبيعة غير مباح أو هو ليس في متناول الجميع وكان هذا المجتمع الاول يعيش على الصيد وعلى الثمار التي يجدها في الطبيعة : ان الطبيعة وفرت هذا الحق الطبيعي : ان الانسان يعيش والحق الطبيعي ثم أنتقل المجتمع فيما بعد الى مجتمع زراعي "رغم صيحة روسو. أن أول من حدد أول تقلعة في التاريخ هو المجرم" الا أن كارل ماركس رأى أن هذا التطور انما حصل في أساسه عندما تطورت وسائل الانتاج وقوى الانتاج، أي عندما أستطاع الانسان أن يجد أدواته الزراعية من الخشب أو من الحجر، بمعنى على أيام العصر الذي وصفوه بالعصر الحجري الذي ظهر نتيجة لتطور كما قلنا في وسائل الانتاج أي الأداة وقوى الانتاج أي الانسان في ذاك الوقت .ونتيجة للصراع الذي كان بين المالك وبين المملوك كان هناك عصر آخر عرف بعصر الرق حتى كان السيد يملك والعبد لايملك من قوة الانتاج سوى عرقه، وهكذا توسعت رقعت طبقة الرقيق حتى أنها أخذت بزمام الأراضي الكبرى الصالحة للزراعة من يد ذاك السيد لتتحول بها الى الملكية الجماعية ودائما نتيجة لتطور وسائل الانتاج من جهة وقوى الانتاج ، حصل وأن الملاكين الصغار، أصبحوا ملاكين كبارا فعملوا في عهد الثورة الصناعية على ايجاد أسواق لهم داخل وخارج أوربا ، وفعلا هنا تحول المجتمع من مجتمع المزارعين الى الحرفيين أو أصحاب الصنائع ، ولنفس السبب .

ويعمل عامل تراكم رؤوس الأموال من جهة وعامل التنافس ، وعامل الاحتكار من جهة أخرى على توفير قاعدة جديدة ظهرت نتيجة تقلص الحرفيين وأصحاب الصنائع بسبب العوامل السالفة الذكر، فحصل وأن وجدت

ويعمل عامل تراكم رؤوس الأموال من جهة وعامل التنافس وعامل الاحتكار من جهة أخرى على توفير قاعدة جديدة ظهرت نتيجة تقلص الحرفيين وأصحاب الصنائع بسبب العوامل السالفة الذكر ، فحصل وأن وجدت "نخبة" من هذه الطبقة والتي هي نخبة البورجوازيين.

فالبورجوازية أيضا ساعدتها على الظهور عاماجملة عوامل أهمها : التطور الذي حصل في وسائل الانتاج وفي قوى الانتاج ، وأيضا عاملا" الاحتكار" " والتنافس" ، و لكن هذه البورجوازية على حد قول كارل ماركس نفسه "تحمل بذور فنائها بيدها"[1] وعندئذ حسب ماركس فان المجتمع يتحول من البورجوازية الى الاشتراكية ، بتعبير آخر لما تتسع الطبقة الشغيلة أو البروليتاريا فانها تمتص البورجوازيين ، وتستولي على زمام الامور في الحكم أي لما تتسلط البروليتاريا تمنع جميع الحقوق التي تنازل عليها البورجوازيون قسرا وعن طريق القوة بسبب حكم البروليتاريا.

فالاشتراكية تتحقق فيها جملة مبادىء منها " لكل حسب عمله ولكل حسب حاجته ."[2]، ويصبح اذا المجتمع الاشتراكي تسوده المساواة والعدالة الاجتماعية بحيث يزول استغلال الانسان للانسان الذي كان في الرأسمالية وفي الاشتراكية ، تزول كل العقبات التي عملت عبر القرون على تخلف الانسان ومنها عقبة الاحتكار وعقبة التنافس، لانه في ظل الاشتراكية تتحقق العدالة الاجتماعية بفضل التوزيع العادل والحكم التي نقطت اليه ديكتاتورية البروليتاريا.

---

1) أنظر كارل ماركس، فريديرك أنجلز، البيان الشيوعي ، دارالطليعة ، بيروت، لبنان بدون تاريخ ص15.

2) نقدالاقتصادالسياسي، دارالطليعة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ ص206.

ومع أن الاشتراكية هي مرحلة تكون فيها وسائل الانتاج ملكية جماعية وحتى قوى الانتاج تتحول الى ملكية جماعية ، ورغم ذوبان كل فردانية الأن المجتمع الاشتراكي يهدف الى تحقيق والى العودة الى المشاعية فعندئذ تأتي المرحلة الشيوعية وهي آخر مرحلة يتحقق فيها الفردوس الأرضي ، وتصبح القاعدة المعمول بها " لكل حسب حاجته ولكل حسب طاقته "، ومن هنا تصبح وسائل الانتاج ملكية جماعية وتصبح الفوارق الاجتماعية غير معترف بها في هذا النموذج الاجتماعيات فعلا نموذج المجتمع الذي تحلم به الاشتراكية حاليا .

من غير الممكن أن نتعرف على النظرة الماركسية في التاريخ ، اذا لم نتفحص مفهوم المادية الديالكتيكية فحسب رأي مجموعة من الأساتذة السوفيات أنه لابد من معرفة الأسباب والقوانين التي تسير التاريخ فيقولون:" فان عرفنا الأسباب وعثرنا عليها امكننا خلق الظواهر التي يريدها المجتمع أو عرقلت نشوء الظواهر الضارة به ، أو غير المرغوب فيها ، والنضال ضدها ".[1]

اذا واضح جدا أن المفهوم الماركسي للتاريخ ، هو قبل كل شيء العلية الواقع وبتعبير آخر هو ادراك لانعكاس" الموضوع"، والذي هو الواقع الاجتماعي بوقائعه الاقتصادية خاصة ـ ومدى تأثيراتها ." لكن فعالية التاريخ منطق باطني أمام العلوم الطبيعية فلا باطن لظواهرها ، ومن ثم كانت العلة ترتبط بالمعلول فيها ، علاقة ظاهرية فضلا عن افادتها الحتمية ، ان واقع التاريخ تتصل بالانسان الذي ينعم بالحرية ولايخضع لمنطق الحتمية .[2]

---

1) جماعة من الأساتذة السوفيات، المادية الديالكتيكية ، فؤاد مرعي وآخرين، دمشق دار الجماهير ص193.

2) محمود صبحي أحمد في فلسفة التاريخ ، مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية 1975 ص42.

ولايهمنا كل هذا بقدر ما نفهم التصور الماركسي للتاريخ في بحثنا هذا ، ففي رأي أنجلز في كتابه الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية " ان الانتاج والعلاقات وكل العلاقات الاقتصادية لايمثلون سوى عناوين لتاريخ الحضارة "(1) ومن هذا المنطلق فان التاريخ في رأي أنجلز لايمثل سوى " صراع الطبقات الاجتماعية فيما بينها "(2).

وهكذا حسب التفسير الماركسي في البنيان الفوقي " أي تلك المجموعة من القوانين السياسية والايديولوجية والدين وحتى الفن هي المفسرة من طرف القاعدة الاقتصادية

يقول ماركس" في هذه الظروف علينا أن نعمل على تغيير التاريخ بدلا من الركون الى تفسيره "(3).

ويكون بذلك التفسير الماركسي للتاريخ كما لاحظنا هو التغيير الجذري للحياة الاجتماعية - خاصة حينما نرى الماركسية متأثرة في ذلك بفلسفة " كونت " عند تقسيمها للتاريخ البشري الى مراحل مراعية في كل تلك المراحل العامل الاقتصادي ومدى تأثيره عليها) ، فالتاريخ بدأ في نظر الماركسية من المرحلة المشاعية التي كان الملك فيها بين الناس مشاعا ، وعند بروز فكرة التقسيم للملكية بتأثير من " الفردانية " ظهرت مرحلة الاقطاع ، وبتوسيع نفوذ هذه الأخيرة تحت جاذبية ، أن كل ملكية كبرى تذيب الملكية الصغرى في فلكها ، حسب القاعدة البيولوجية التي سطرها داروين " البقاء للأقوى " ظهرت المرحلة البورجوازية وهي نتيجة حتمية لتطور الصراع الطبقي بين الفئات والطبقات الاجتماعية من جهة ، ومن جهة أخرى نتيجة للتطور الدياليكتيكي ، لكل من الطبقتين الخاضعة لعبء الاحتكار والاستغلال والمنافسة لأنه وحسب التنبوءات الماركسية لابد أن تحمل البورجوازية بذور فنائها بيدها .

---

1) أنظر :
1)MALEK BEN NEBI:L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE MOCQUE DES ETIDIANT ALGER P 47.

2) المصدر نفسه ص 85 .

3) فريدريك أنجلز ، التفسير الاشتراكي للتاريخ ت راشد البراوي ط2 دار النهضة

لانّ التطور التطوّر والنضال الاجتماعي لطبقة كبرى أجتماعية (البروليتاريا) يوءهلها لانّ تأخذ بمقاليد السلطة أي الطبقة الكادحة ، وبذلك تتحقق الدولة الاشتراكية وتسود المساوات والاخوة . ويتحقق كما أسلفنا بذلك أهم مبد أ في الماركسية " من كل حسب عمله ولكل حسب حاجته " . هذا المبدأ الذي قال عنه الدكتور محمد البهي" وعندما اتضح خداع هذا الشعار الماركسي واستحال تحقيقه في تجربة الماركسية في روسيا وشرق أوروبا .... استحدث مايسمى بالحافز الفردي في الانتاج."(1)

وهكذا وبحكم قوانين الحتمية الاجتماعية التي تسيرها العوامل الاقتصادية فان الديالكتيك يستمد والصراع سيبقى الى أن تتحقق المرحلة الشيوعية ، اذ تستولي الطبقة الكادحة على الحكم ؤ ويصبح الناس ينتجون بحكم منطق حد من كل حسب حاجته ولكل حسب طاقته" وعندئذ يتحقق المجتمع المشاعي ويتحقق الفردوس الارضي ، كما تضن النظرة الماركسية .

اذا فماركس ينظر للتاريخ على أنه تغيير للبنيات الاجتماعية ، لكن اذا وضعنا هذه النظرة تحت مجهر البحث فسنرى.

أولا: ان الانطلاق من المادة كتفسير للتاريخ ، فيه ضرب من المجازفة لانّ المادة اصطلاح يعتمد ادراك طبيعة على التقدم العلمي الانساني وتحليل المادة علميا في الوقت الحاضر انتهى الى كونها ذرات، تتكون من شحنات كهربائية يطلق تفجيرها قوى عظيمة ."(2)

" وكما ان علم الفلك حاليا يفند قول ماركس بأزلية المادة"(3)

ثانيا : ان افتراض ارادة الانسان خاضعة لحتمية المادية التاريخية باطل،

---

1) مجلة الايكونوميست البريطانية في عددها الصادر في 1967/01/21 ص221 تحت عنوان التفوق في الاقتصاد الاشتراكي.

2) جعفر حسين حصباك، في تفسير التاريخ، فصل التفسير الماركسي للتاريخ، منشورات مكتبة النهضة ، بغداد (بدون تاريخ)ص38.

والاكيف نفسر ظهور الأبطال والقديسين ، والأنبياء المغيرين للتاريخ.

ثالثا : " ان الديالكتيك منهج علمي غير محدود، فهو في سيرورة لغوية أبدية فلماذا يتوقف في المرحلة الشيوعية"(1)

رابعا : ان التفسير الماركسي للتاريخ حقيقة ربما كانت صحيحة في رقعة جغرافية معينة ، فأنى لها أن تكون عالمية !

هذه جملة أنقشادات وجهة لفكرة التاريخ حسب ماجاء بها كارماركس وهي تركز كما نرى على أهم لبنة في التفسير الماركسي للتاريخ ، الا وهي المادية التاريخية .

والحقيقة أن تقسيم الماركسية للتاريخ البشري الى مراحل، يفترض أن المرحلة الأولى كانت مشاعية أي أن الملكية أنذاك كانت مشاعة بين الافراد . فهو مجرد أفتراض يبقى مدى صحته أو كذبه معلق من القرون التي تلي الفكرة الماركسية ، ونحن اذ نناقش فنقول أنه منذ كارل ماركس الى أيامنا هذه يوجد حوالي قرنين من الزمن والحقيقة المؤكدة علميا أن المرحلة الأخيرة ما الماركسية . لم تثمر أيضا هي الأخرى بعد، ما يؤكد أن قضية التنبؤ بالمرحلة الاخيرة من الماركسية وهي الشيوعية ذهبت ادراج الرياح ، واذا كانت المرحلة الأخيرة والمرحلة الأولى من تقسيم الماركسية للتاريخ البشري، مشتبهان من حيث أن الاخيرة هي عودة الى الأولى بطريقة أخرى فانه منطقيا يمكننا أن نستنتج أنه اذا كذبت الاخيرة فان الاخيرة ستكذب ، آخذين بعين الاعتبار الفرض الاخيرة دليل على الفرض الأول.

---

1) باقر الصدر، اقتصادنا دار الكتاب اللبناني ، بيروت (بدون تاريخ)ص46.

ثم لوعدنا معها الى الغرض الأول فنجد أنه يبقى صحيحا في فكر القرن 19 . أما مع عصر " الكومبيوتر " أي القرن العشرين ، فانه يصبح باطلا بدليل : أن الكومبيوتر يؤكد اليوم أن المرحلة الأولى سادتها المؤاخاة أكثر مما سادتها العداوة كما صورتها لنا الماركسية " مجتمع الغاب ".

اننا واذ نتناول بالبحث هذه النقاط في الماركسية فلأنها لاتصدق الاعلى مجتمع معين هو المجتمع الأوروبي آثاره التاريخية ، أما المجتمع الاسلامي فان آثاره التاريخية تؤكد أن آدم عليه السلام أب البشرية كان نبيا .

الفصل الرابع

فكرة التاريخ عند توينبي

فكـرة التاريـخ عنـدتوينبـي

لاحظنـا أن العوامـل الاقتصاديـة لاتستطيـع أن تسيـر الحركـة التاريخيـة وحدهـا لأنهـا حصرتهـا في اطـار جغـرافي خاص !

هـذه التفسيـرات الطبيعيـة لم تعدكافيـة في نظـر فيلسـوف التاريـخ الانجليـزي أرنولـدتوينبـي (1975م) الذي يـرى أن عوائـق الطبيعـية الحيويـة تلـك التـي تفـرضمايسميـه بالتحـدي " LE DEFIT " هي التي تمكـن التاريـخ من أن يمنـع المستقبـلويحلل. لنـا توينبـي عالمـي التحـدي (المشـروط الاستجـابة كمـا يلـي:

يـرى هـذا المؤرخ أن تحـدي البيـئة وحوافز مختلفـة ،منهـا حافـز البـلاد الشاقـة وحافز الأرض الجـدبة ، وحافـز الضـربـات (الحروب)وحافـز الضغـوط .... الخ،وكلهـا تفـرض استجـابـة (1).

ويردف قائـلا: هل ثمة تحدأشـد من أن يسـير استجابـة (2)، وهـو يعنـي بذلـك أن البنـاء التاريخـي أنما هوليـدحالـة نفسيـة ، هذه الحالـة النفسيـة التي بدورهـا تتوتـرالدرجـة أنهـا تتحـدى جميـع العوائـق وعلى الخصوص منهـا التحـدي الطبيعـي، اذ أن أي تحـدللطبيعـة في نظـر توينبـي انما يبرهـن على أن هـذا الشعـب أوذاك قادر على صنـع تاريخـه وهو المثـال الذي وجدنـاه واضحـا في جملـة الحضـارات التي قامـت في الصحـاري ، فرغم قساوة الطبيعـة فأن تلـك الشعـوب استطـاعت أن يتجـدى هـذه القسـاوة ، وذلك لما تملـك من قـوة في النفـس ، مكنتهـا من ذلـك اذا كل تحـد له استجـابـة و سواء بالايجـاب وهو ماقصدنـا اليـه من انشـاء حضـارات أو بالسلـب وهو مارمينـا اليـه من يخلـف الشعـوب .

---

1) يرجع توينبي الاستجابة الى أنها فردية ،مما جعل اصحاب المذهب الجماعي يشنون عليه حملات انتقاديـة .

2) أرنولدتوينبي ، دراسة التاريخ ،فؤادمحمدشبل ،الادارة الثقافية ،جامعة الدول العربية 1960.

وتوينبي باقترانه لعامل الاستجابة من الطبيعة الحيوية ، فانه يلاحظ أيضا أن الجنس ليس هو أساس الحضارة (وهو هنا يعود الى تلك النظريات التي سادت بداية هذا القرن والتي ترى أن الجنس الآري مثلا هو أرقى الشعوب وهو الذي بامكانه أن يبني حضارة لاتزول أو تلك النظرية التي رأت منذ زمن سالف أن اليهود باعتبارهم شعب الله المختار هم وحدهم الذين فضلهم الله على باقي الشعوب بامكانهم بناء حضارة لاتزول أيضا. هما نظريتا الجنس هاتان النظريتان العرقيتان مبنيتان على أساس الروح العنصرية التي نقلها اوعها من اليهود الى النازيين بطريقة خالف تعرف). اذا فتوينبي لايعطي أهمية لعامل الجنس في كونه يبني حضارة أو في كونه يساهم في السيرورة التاريخية وهو يقول في هذا المعنى" بيد أنه قيل ما فيه الكفاية لتسويغ رفضنا للنظرية القائلة أن جنسا أعلى هو الذي كان سبب الانتقال الحضاري وصانعه من حالة الييين* " Yang " الى حالة اليانغ" yang "* من الكون الساكن الى الحركة الدائمة في جزء بعد الآخر من أجزاء العالم ، منذ زمن يرجع الى ألف سنة مضت "(1) .

ثم يقرر بعد كل هذا أن نظريتا " الجنس" و"البيئة" : كلتاهما تحليل للتباين الملحوظ في التصرف والسلوك النفسي" الفكري والروحي"لاقسام مختلفة من البشر، وذلك باقتراض علاقة نسبية ثابتة ودائمة كالعلاقة بين العلة والمعلول، بين هذا التباين النفسي، وطائفة من عناصر التباين الذي لوحظ في محيطه الطبيعي غير الروحي، وتجد نظرية الجنس علة التنوع ، في اختلاف الصفات البدائية البشرية ، ونجد نظرية البيئة في اختلاف الأحوال المناخية والجغرافية ، التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة ، هذا مايشير

---

* ... الييين رمز الذكورة عند الصينيين القدماء واليانغ ... رمز الانوثة ... فلسفة تقوم على أن الكوني أو العالم تتشكل بناء على التوافق الذي يحصل بين عنصر الذكورة وعنصر الانوثة ،وتوينبي هنا يقتبس هذان المصطلحان الصينيان ويوظفها في فكرة الجنس وكيف يساهم أو لايساهم في التصدي الطبيعي.

1) المصدر السابق نفسه ص93.

اليه توينبي، حين يدلي بالحقيقة نفسها " وعلى أيه حال فانه لا الجنس ولا البيئة كما تصورناهما حتى الآن، قد قدما ، أو يمكن - كما هو ظاهر - أن يقدما أي دليل على سبب حدوث هذا التحول العظيم في تلك الحضارات الغابرة منذ ألف سنة مضت"(1).

ان توينبي لا يعطي أي مدلول لنظريتا الجنس أو البيئة باعتبارهما أساسا أساس البناء التاريخي لأنهما كما قلنا عاجزان عن تقديم أي دليل يثبت ذاك التحدي الحضاري الذي حصل منذ أزمنة غابرة في شعوب لم يك ليتوفر فيهما هذان العاملان في شيء.

بعد أن أستعرضنا نظرية التحدي والاستجابة ، نلاحظ أن توينبي يعيد فكرة "الارتقاء" L'EVOLUtion "الا أن هذا الأخير يعتبر شيء طبيعي، فيقول "يحدث الارتقاء ، وقتما تصبح الاستجابة لتحد معين لا ناجحة في نفسها فحسب ولكنها تستثير تحديا يقابل باستجابة ناجحة"(2).

وهو يعني من كلامه، هذا أن القانون الفيزيائي يمكن تطبيقه أيضا في نظرية التحدي، ذاك القانون الذي يقول : لكل فعل رد فعل ولكنه يصوغه بحيث يصبح لكل تحد استجابة ، أي أن التحدي اذا كان ناجحا تكون الاستجابة هي ناجحة واذا كان فاشلا تكون الاستجابة فيه فاشلة ، وهو يدعم كلامه هذا بجملة من الأمثلة (يصوغها لنا في الحضارات الغابرة ، فمثلا يرى أن شعبا كالشعب العربي المسلم أستطاع أن يقوم بتحد يعتبر تحديا ناجحا على أيام الرسول الأعظم محمد (ص) وعندئذ كانت له استجابة ، لمسناها في حضارة كل من بغداد ودمشق والقيروان وتيهيرت وفاس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى

---

1) المصدر نفسه ص93.

2) المصدر نفسه الجزء الرابع ص267.

يعطينا توينبي النموذج الذي تشلت محاولاته في التحدي الطبيعي فكانت استجابته أيضا فاشلة ، وهذا النموذج هو الشعب الذي يسمى اليوم بالشعب البدائي" PREMITIF " انه لازال لم يحقق تحديه الناجح، وعندئذ لازال لم يحقق الاستجابة المرجوة منه ، فلذلك وجدناه متحجرا ومتعلقا لايعرف ولايسمع للحضارة صيتا .

وتوينبي يرى أن الارتقاء " EVOLUTION " يكون جماعيا لكن "المجتمع ميدانيا يعمل للعدد من الكائنات البشرية"[1] اذا فالافراد هم مصدر الفعل ومن هنا فان الأحوال الصعبة أكثر من السهلة هي التي تولد هذه الأعمال المجيدة أعني تفسير بداية الحضارات.

والمقياس الحقيقي للنمو الحضاري أو التقدم في محل التقدم الذاتي حسب توينبي هو عندما تصبح الحضارة -"الشخصية النامية"- هي نفسها بيئة لنفسها ، وتحديا لنفسها ، ومجال عمل لنفسها"[2]

واذا كان النمو الحضاري ضرورة فرضت بفعل التحدي والاستجابة ، هذا الذي يتم على مستوى الأفراد ككائنات بشرية كما أسلفنا ، فانه حسب توينبي"... لاعلاقة للتقدم التقني بالتقدم الحضاري، غير أننا نستهدي هذا التقدم التقني... للعثور على غرضنا من البحث"[3]

والنمو الحضاري حسب هذا الموءرخ يتكامل من تحقيق غاية الى صراع جديد ، ومن حل مشكلة الى مجابهة أخرى ، ومن هدأة موقتة الى حركة ناجحة ، وفي كل هذا أي حتى تتتابع الحركة ، وتطرد يجب أن يكون هناك دافعا حيويا" VI TALE " يدفع الفئة المتحداه من التوازن الى التضعضع ومن التضعضع الى التوازن وهكذا الى مالانهاية له في المجال الممكن[4]

1) المصدر السابق نفسه ،ص 269.
2) منح خوري، التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين بيروت ص174.
3) المصدر نفسه ص174.
4) أرنولد توينبي ، دراسة في التاريخ ، الجزء الثالث ص119.

اذا فالدافع الحيوي له دور كبير في عمليات النشوء الحضاري، لأنه هو الذي يخلقها ما يسمى الاستجابة الظافرة لتحدي البيئة المناسبة"(1)

وعلى هذا الاساس، فان كان الدافع الحيوي ، لا" المجال الحيوي" كما تقول بذلك النظرية النازية ممثلة بشخصها " هتلر" أو فيلسوفها فيتشه الألماني الذي عرض المشروع " أي مشروع النازية " في نظرية على هتلر الذي عمل على تطبيقه عسكريا خصوصا بأن الحرب العالمية الثانية - هو الذي فرض عاملا مهما في الحركة)التاريخية التي كانت حسب هذا التفسير الطبيعي " تفسير توينبي للتاريخ". فانه اذا افترضنا أن الدافع قد ضعف لأسباب ما قد تكون فراغة "اللكف"* حسب تعبير بافلوف"PAVLOVE" "فان النشاط المشترك للتاريخ سيضعف (ذلك ما يسميه البعض بأفول الحضارة") فهل نعتبر دائما هذا العامل المحرك للتاريخ؟ أي عامل الدافع الحيوي ، فاذا كانت الاجابة بلا فان هذا التفسير يكون ضربا من المجازفة . ثم ليس هذا وحسب ، بل ان العلاقات الاجتماعية لا تكون بينها الصلات وطيدة لدرجة أن أمور- ربما تكون ميتافيزيقية - عالقة بما يسمى بالتاريخي التكويني "THEEPOIRE,BIO, PHERE" تلك هي النقطة التي أستغلها منتقدوا توينبي حينما لاحظوا عليه أنه من جهة يركن الى الدين في تفسيره للحضارات ، ومن جهة أخرى فانه يضفي على تفسيره هذا شيء من الذاتية " الطبيعية" متجاهلا من كل هذا المجتمع كحتمية تفترضها الحركة التاريخية .

فتفسير توينبي لا يعدو أن يكون كشفا عن مكانة علم النفس في التاريخ، وليس علم الاجتماع ، ونقطة عدم تلاقينا معه هي: أنه كان بامكانه أن يجعل عامل الدافع الحيوي عالقا بأسباب "ربما تكون ميتافيزيقية

---

1) منخوري، التاريخ الحضاري، عند توينبي، ص 30.

*لاحظ أن توينبي متأثر [illegible] الدارية لدرجة أن [illegible] في تفسيره للتاريخ وليس هنا مجال انتقاد هذه النظرية ، والكف حسب بافلوف هو الحالة النفسية التي تتوقف فيها الدفقات أو السيالات العصبية لأن المواصلات تعرقل طريق مرورها .

وذلك من أجل تمتين الصلات بين الذات كاستجابة حيوية، والمجتمع كصلات تتجاوب مع هذه الاستجابة من أجل القيام بالعمل المشترك في التاريخ..

اذا لاحظنا أنه لايكفي عامل الدافع الحيوي، الضاري للتحدي والاستجابة، من أجل القيام بالعمل المشترك، ناظرين من جهة الى أهمية هذا التفسير، على أنه محدد لمبادىء أساسية، ومن جهة أخرى على أنه ليس مشكل الانطلاق - ربما يكون من المفيد أن يطرقه رجل كمالك بن نبي:

ان توينبي يعيد الحركة التاريخية الى عامل ربما كان أساسيا ألا وهو "الدافع الحيوي" غير أنه من خلال الانتقادات التي أتينا بها، لاحظنا مدى عدم جدوى "اللافعالية" في هذه الحركة خاصة عندما آل بنا هذا التفسير الى جعل الدافع الحيوي والاستجابة للتحدي الطبيعي، سببا في نشوء الحركة فهو بهذا المعنى لايكاد يخرج من كونه تفسيرا طبيعيا ميكانيكيا.

ولقد كان مهما أن نرى في عامل الدافع الحيوي نظرة من نظرات ابن خلدون حين كان يعيد عامل الدافع الحيوي الى عامل "العصبية" أعني أن كلاهما انطلق **من عصبية** بيولوجية" وليس من عامل فكرة "الحاجة" التي أتى بها كارل ماركس، لما أرجع حركة التاريخ الى عامل وحيد هو العامل الاقتصادي.

والجدير بالملاحظة هو أنه مهما قلنا عن تفسير توينبي للتاريخ الا أننا لايمكننا أن ننكر أن العامل الحيوي يدخل في بناء أصل التاريخ وهو بهذا المعنى يعطي فرصة لمالك بن نبي الذي يقول" ونحن يمكننا الى حد ما أن نسوغ هذا الرأي الذي ذهب اليه المؤرخ "وهو يعني توينبي" صياغة جديدة في

ضوء القرآن الكريم ، فقد تستطيع حيث لم نصل بهذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي وغاياته التاريخية ، - ان تفسير هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حققت هذه القوة الروحية في المجتمع أعني شروط هذه الحركة عبر القرون". (1)

وهذا ما نقوم بتحليله في الفصول القادمة مع المفكر مالك بن نبي.

---

(1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ت: عبدالصبور شاهين، دار الفكر ،دمشق 1974 ص21.

الباب الثاني

الفصل الأول : التصور المادي والتصور الغيبي

الفصل الثاني : معامل الفعالية

الفصل الثالث : مقولة الوعد والوعيد

الفصل الأول

التصور المادي والتصور الغيبي

التصـــــــور المادي والتصور الغيبـــي

قبل الشروع في تقديـــم هــذا التصـــور علينا أن نذلل ، ما المقصـــود بالتصـــور المادي ،وما المقصـــود بالتصور الغيبـــي؟

ان معنى التصـور المادي واضـح ، فالمقصود بـه مجموع النســـق الفكريـــة التي بنـت المفاهيـم أي مفاهيمهـا على أساس مادي، حسي طبيعـي ......" ولعل أهم أمثلـــة على ذلـك التصـــور الماركسي الذي نقول عنه أنــــه تصـــور مادي

أما بالنسبـــة لمصطلـح التصـور الغيبـــي ، فهـذا هو الذي قصدنـا بــــه التذليل ، لأن المفهوم قد يفهـم فهـمـا بالمعنـى السلبـي على ضـوء ما طفـى علينـا من خلفيـات التصـــور المادي أننا نقصد بـه مجموع النسق الفكريـــة التي فســـرت الاشيــــاء انطـلاقا من أرضيـــة دينيـة" اذا فحتـى يكـون المصطلح واضحـا علينـا أن نقدمـه بهـذا الشكـل.

وبعد تذليلنا للمصطلحين فما هـي نقـاط التلاقي، وما هي نقاط الاختلاف ، وما العـــلاقـة التي تربـط بينهما ، وما المقصـود من طرحهما كعلاقـــة في فصل يحمل عنـوان تصـور التاريـخ في فكـر مالك بن نبـــي.

الواقع أن مالك بن نبـي يقيم دراســة تحليليـة نقديـة للتصـور المادي ليستنتـج بعض النتائـج . ويدرس التصـور الغيبـي ويقيمه ليستنتـــج أيضا بعـض النتائـج الاخـرى ، هـذا في كتابـه الظاهـرة القرآنيـــة ، وحسب تصـورنا لفكـرة التاريـخ عنـده رأينـا أن نأتي بهذه المقارنـــة للتصـوراين معـا ، لأن "الفكـرة" أي"الظاهرة القرآنيـة":أو أية فكـرة أخـرى تتماشـــى والمنظـور التاريخـي الذي يسمـى بأسس نقطـة انطـلاقة التصـور التاريخـــي في فكـر مالـك بـن نبـي.

وقد يكون ذلك صحيحا أو غير صحيح والمهم أننا رأينا، كما أسلفنا والمهم من كل هذا ، أن مالك بن نبي في مدخله لتحليل هذين التصورين يوقع السؤال التالي أرضا ، هل أن المادة أسبق أم الفكرة ، يعني هل أن الاولى أوجدت الثانية أم العكس. غير أن هذا نوع من الهدر للوقت ولافائدة من الجواب على سؤال كهذا، وإلا تمثل لنا هذا السؤال، بالسؤال، هل أن الدجاجة أسبق أم البيضة أسبق؟ وهي كما نلاحظ حلقة مفرغة ، مهما أجهدنا فيها عقولنا لانستطيع أن نعطي جوابا يقينيا ، لأن القضية لايحددها لنا علم البيولوجيا ، وعلم الانطولوجيا أو أي علم آخر ، ولأن القضية شبيهة أيضا بين يناقش ، أفي جنس الملائكة أهم ذكور أم هم اناث ـ" أأشهدوا خلقهم "ـ !

ثم ينتقل بنا مالك بن نبي الى الافتراض الذي يصوغه لنا وهو التالي:

ولو افترضنا جدلا أن المادة هي الصيغة النهائية أو الاخيرة للحياة والكائنات الحية ، فكيف ينتظر من ميت أن يتحول الى حي، وهو لايملك قدرة التحول؟ ولو قلنا أنه يملك قدرة التحول لوقعنا في تناقض يكشف عنه في التالي:

1ـ ان التحوّل " أي فعل التحويل" هو المقام عليه عمل التحويل حتى يصبح هو الآخر محوَّلاً وهو الذي لايتحول، وهذا مستحيل.

2ـ ان الذي لايتحول لايستطيع أن يحول، كما أن فاقد الشيء لايعطيه .

وبعد أن يقضي مالك بن نبي في هذه المذهبية ، يضرب لنا عدة أمثلة عن أصحاب التصور المادي وهي أمثلة هزلية هادفة، وأولاها هي تلك التي يقيم على أثرها مقارنة بين عابد التمساح على ضفاف نهر النيجر وذلك الذي أدعى أن جده " القرد" ، فلاحظ أن الصورتين ليستا مختلفتين الا في مستوى ما من التطور. فالاول لم "يتطور" لانه عبَدَ حيواناً زاحفاً " دون بذل جهد عقلي" ، والثاني عبد حيوانا "متطورا " لانه بذل في ذلك

جهـــدا كبيـــراأهـم جهـد فيــه هو:" أصـل الأنــواع " The origine of Speic es *(1)

ويحـدد مالـك بن نبـي - بعدأن بيــن مـدى تهـاوي اللبنـة الأولـــى لانطـلاقـة المذهـب المادي**(2).

انه مادامـت هـذه اللبنــة التي هـي أساسيـة في هـذا التصــور المادي قدتهـاوت فكيـف لايتهاوي من ورائهـاتفكيـر دعم أسسـا وبنى قواعـدأخـرى للفكـر البشـري؟.

وأهـم هـذاالفكـرفـي رأيـه هـو الفكـرة الماركسيـة ، المنطلقــة أساسـافي الجـدليـة الهيجليـة "التـي قلبهـا على رأسهــا بمنطــق "دياليكتيكي" أوجــدلي مختلــف أعــاده كارل ماركــس الى منطـق جـــدلي مادي، وليــس مثــالـي . ومن هنـا يلاحــظ مالك بن نبــي على فلسفة التاريـخ عند ماركـــس وكيــف يسرلهـا أن تتهاوى؟ لأن بنـــاء اتها غيرقويمـــة ، ولأنه أيضـا "كل تفكيـر في مشكلـة الانســان هو بالدرجـة الأولـى تفكيـر في مشكلـة الحضارة"(3).

ويعـودبنـاقلـيلا الى المذهـب الغيبـي ، فيرى أنــه اذ تتبعنا الأمــور من زاويــة المحـلل الخبيـردون أن تأخذنـا الأهــواء ، فانه ، حتـى " قوانيـــن الأمـــم المتحـــدة لاموتيــة فيأساسهـا ، أمامايطلقـــون عليـه قانونهـــم المدنـــي ، فانــه دينـــي في جوهــره ، ولاسيمــا في فرنســا* ، حيــث اشتقـــ من الشريعة الاســلاميـة(4)! اذا فان مالـك يعتـــرفـ بدايـــة أن كل مانسميــــه قانونـا ســواء القانـــون اللائيكــي أو القانـــون الذي تعاهــدت عليـــه الأمم المتحـــدة فانهمـا فيأساسهمـا ، من أصـل دينـــي لكـن ذهـب بهمـا الانحـراف الـــى التخريف!

1(1)*) عنوان كتاب للمرحالـة البيولوجي تشارلز "دارويـن" توفي سنة 1882 صاحب نظريـة الانتخــاب الطبيعـي في علم البيولوجيــا ونظريتـه فـي التطــور".

2**) منطقيا اذا تهاوى الأساس تهاوى الكل.

3) مالك بن نبي، الظاهرة ، القرآنية ،ت، عبد الصبور شاهين دار الفكر دمشق 1982 ص 37.

4) المصدر نفسه ص 68. *يرى مالك بن نبي أن نابليون بونابارت عندما قام بحملته على مصر استفاد من الشريعة الاسلامية لما وجد فيها من شرائع تخدم مصلحته ونقلها أي نابليون الى فرنسا الى دول أوروبـــا .

انهما لاهوتيان .

أولا: لأن الحملة التي قام بها نابليون بونابارت على مصر لم تكن في شيء لتخلو من اقتباس لبعض قوانين الشريعة الاسلامية ، هذا حسب شهادة المؤرخين والفرنسيين منهم على الخصوص .

ثانيا: حتى الانسان حينما يضع قانونا من دون شك فانه يعيده الى أحكام ترسبت في ذهنه سواء شعر بها أم لم يشعر . دينية في أصلها - الأن الانسان تغميه حالة " التجبر" أو" الاستكبار" في الأرض، عوض أن يعترف وأن يستجيب لأصلها فانه يجحدها .

والحقيقة أن قضية قوانين الأمم المتحدة لاهوتية في أصلها وأن أي قانون لاهوتي في أصله . - حسب تفسير مالك بن نبي ، فيه نوع من الغموض لأنه لو تقبلنا فكرة أقتباس نابليون لقوانين الشريعة من حملته على مصر بشهادة المؤرخين ، فان قضية تعميم هذا على كل شيء سمي قانونا أنه لاهوتي في الأصل فيه شيء من المخاطرة ، لأننا نعلم أنه صحيح أن كل ماهو قانوني هو الصادر عن العقل وعن العرق والتقاليد وو . . . . . " ولكن السؤال المطروح من أدرانا أن الأمم لاتجتمع عن ظلالة ، ثم من أدرانا أن عقلها " المفكر في القانون لايعتمد على النص".

ويقدم مالك بن نبي جملة دلائل وبراهين يعتقد أنها مبنية وقائمة على التسلسل ، حيث أن ماخلفت يد العمران البشري والحضاري هو من أصل ديني فيقول" كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للانسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته ، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي فانه يجد سطورا من الفكرة الدينية"(1).

---

1) المصدر السابق نفسه ص68.

ونفهم من كلامه السالف أنه اذا كان الانسان قد تفطن، واستطاع أن يتعرف على أصالته عبر الأحقاب الزمنية ، سواء رجع في ذلك الى العصور الاولى لميلاده أو الى العصور البدائية أو حتى الى العصور المزدهرة من حضارته فانه يلاحظ أن الدين متجسد دائما بين سطور حضارته ، مالك بن نبي يوافق الانثروبولوجيين المعاصرين في تعريفهم للانسان " انه حيوان ديني، ولكنه مساوية لمعنى " التوحش" ويقول هو بأن "بدائي" بدائي يعني متحضر وتخلف عن الركب الحضاري المعاصر والأحسن عنده أن نسميه " متخلف أو" متحجر" أو"راكد" .) فالدين يكون كما قلنا متجسد دائما بين سطور حضارة الانسان في أي زمن كان ، فالدين يكون متجسدا في الاثار المادية أو الروحية والدين يكون متجسدا في الآفاق المستقبلية ، والدين يكون متجسدا في سلوك الانسان اجتماعيا .

فبالنسبة لتجسد الدين في الاثار ، فلا يمكننا أن ننكر وجود جسر كبير من " المتاحف" لازالت آثار الدين مرسومة عليها .

ثم يرسم لنا مالك بن نبي رسماً حقيقياً عن أكذوبة العصر والتي مفادها أن العلم والدين شيئا لا يلتقيان فيبدي فيها رأيه قائلا " ان عصور الانضطرابات الاجتماعية والاختلال الروحي هي وحدها تخلق الصراع بين العلم والدين"[1] ومفاد كلامه هذا أنه لم يكن بالحسبان أن نقول أن الصراع الذي نشأ بين العلم والدين هو في أساسه صراع تاريخي ولكن كان من الحسبان القول أن الذي ولّد هذا الصراع هو تلك العصور التي امتازت بالاضطراب السياسي والعقائدي والروحي وهي التي وحدها ولّدت هذا العصر .

---

1) المصدر السابق نفسه ص69.

وللكلام هذا صحيح خصوصا اذا تصفحنا التاريخ فسنجد العصر الذي ولد هذا الصراع سياسية واجتماعية وثقافية هو الذي تسبب في الوضع الذي آلت اليه الحضارة الغربية اليوم (راجع تدهور الحضارة الغربية (لاسوالد شبينغلر) والحقيقة أن هذه الاضطرابات تخص المبررات الثقافية للديانة المسيحية ، اذ أننا لاحظنا ذاك الصراع الذي نشأ بين " غاليلي" العالم والرياضي الفلكي ورجال الدين المسيحيين الذي ساقوا هذا الأول الى السجون بقولته، " وبالرغم من ذلك فهي تدور- يعني الأرض- " حدث هذا كله عندما أدعت الكنيسة أن " العلم" تحتكره هي وحدها وعندما أدعت أيضا أن زمام الأمور كلها بيدها (مالها وهي لاتملك الاقهر رجل" كغاليلي" الذي أبتغى وابتغاء العلم ،وبالجملة فان العصر - : أي عصر النهضة الأوربي كان عصر اضطرابات- عصر خصومة بين العلم والدين، وهلم جرفي التاريخ الغابر.

ويستند ابن نبي الى دليل آخر يثبت به فكرته عن أن كل شيء يعود في أساسه الى أصل ديني، يعني كل شيء من تفسير ون قانون ومن أثار مادية أوعلمية ...." اذ يرى أن الجهود التي بذلها علماء "الانثروبولوجيا" حول دراسة تخص نسل الانسان بالتظافر وبالتعاون مع علم "الاثنوغرافيا" " Etnographie " أنتهت بهم الى تعريف الانسان "أنه حيوان ديني

والواقع أن الدراسة التي أقامتها فرقة علماء "الانثروبولوجيا" حول الانسان في المجتمعات البيدائية" وهي في الحقيقة كما يقول بن نبي - لايمكن القول بأنها (بيدائية) بل هي مجتمعات فطرية (أي لازالت لم تدنسها الحضارة -هي دراسة لازالت تشوبها شائبة من الظنون ، خصوصا اذا تفهمنا جيدا" أن القس- الاجتماعي هو الدين في نظر زعيم مدرسة علم الاجتماع" دوركايم".

وعليـــه فان فكــرة أن الانســان البدائـي دينـي والمتحضر لاديـنـــي هـــي فكـــرة تحتـــاج الى النظـــر من عـــدة زوايـــا : من الزاويـــة البيولوجيـــة والفنيـــة والاجتماعيـــة والنفسيـــة ...."ولهـذا أن الفصـل القاطـع فيهـــا سيبقـــى فيــه نـــوع من " اللاعلميـــــة".

وكخـلاصـة لهـذا الفصـل نقـول:

- أن المذهـــب المادي لايعطينـــا تفسيـــرا لظـاهـــرة التـوالد الحيوانـي مثـلا، وأن قضيـــة المذهـــب المادي" الجـدلي" يقـع في تناقـض لاحل مـــن ورائـــه ســـوى رفـض هـذا المبـدأ و...."(1)

ولمزيـد من التحليـل لازال علمـــاء البيولوجيـــا يعانـــون من مشكـــلات ظـــاهـــرة التوالـــد الحيـــوانـــي، وعلى الخصـــوص منهـم علمـــاء الأجنـــــة " Embriologie s ": اذلاحـــظهـــو ءلاء كيـــف أن نفـس العدد وكيـــف أن في نفـس النـــوع في الكروموزوســـات ينتقـــل من جيـل الى جيـل بواسطـــة عمليـــة الالقـــاح الحيانـــي، الا أنه مثلا لدى عائلـــة الحصـــان" 'Famille Du CHevale لايتـم الالقـاح فيهـا بهـذه الصيغـة ، وفسر علمـاء البيولوجيـا هـذه الظاهرة بحالة استثنائية تحـدث فيهـــا مايسمى اصطلاحـا عنـدهم" بالطفـرة"" هذا المصطلح من ابــــداع الداروينية والداروينيـة الحديثـة جـرت مجـراه، وان كل من مصطلحـي " الطفـــــرة" أوالانتقال العفـوي"لايقـدمان تفسيرا كافيا يقنع مثلا الطبيب والجراح الأمريكي اليكسيـــس كاريل صاحب كتاب"الانســـان ذلك المجهـول" " L'HommE Cet Inconnu".

وهنـاك أدلـــة وشـــواهد أخرى تفيد في النهاية الظـاهـــرة أي ظاهرة التوالـــد الحيـــوانـــي الى الخـــالـــق.

---

1) المصدر السابـق نفســه ،ص69.

2) راجع هذه الأدلة والشواهد التي يقدمها صاحب كتاب" man Stand alown " والذي هورد على كتاب" man Stand alown " الأول لصاحبه عنتري موريسون والثاني لصاحبه جوليان هوكسلي ترجم الكتاب تحت عنوان"العلم يدعو الى الايمان".

الفصل الثاني

معالم الفعالية

معامل الفعالية

بعد أن ينتهي مالك بن نبي من تحليله لتلك المقارنة التي يقيمها بين المذهبين: المذهب المادي والمذهب الغيبي، ويخلص منها الى نتيجة تكمن في أنه مهما قلنا أنه توجد علاقة ما بين المذهبين الا أنهما يختلفان أختلافا كبيرا، هذا الاختلاف يؤهل المذهب الغيبي أن يتفوق ويأخذ بتقارير مالك بن نبي.

ان مالك بن نبي يجعل لهذا المذهب العنصر الاساسي في تحريكه ألا وهو ما يسميه " بمعامل "الفعالية معامل Coeficient De L'èfficacitèe " فماذا يعني بن نبي لمعامل الفعالية هذا وكيف يراه ضروريا في تحريك لـ ويبسير المذهب الغيبي كي يقسم جملة أفكار على أثره منها فكرة التاريخ التي سنتناولها في الفصل القادم.

ان معامل الفعالية يعني بكل بساطة عند مالك بن نبي العنصر المشترك بين مجموع العوامل (الطبيعية والميتافيزيقية) أي أنه العنصر الذي يساهم الى حد ما في بعث الحياة النفسية في الحركة ، مهما كان تشكل هذه الحركة.

والحقيقة أنه يرى أي بن نبي أن تاريخ مجتمع من المجتمعات مهما كان في بدائيته " : هو تجاوب هذا المجتمع " الظرف استثنائي، أوذاك: وبالتمام أن الظرف الاستثنائي هذا يأتي نتيجة تلقائية لعمل جماعة ما في التاريخ وهو نفسه ما حصل للمجتمع القبلي الجاهلي وقت أن كان محمد (ص) يتعبد في غار حراء ، فهذا العمل من جانب محمد (ص) في غار حراء ومن ذاك المجتمع الذي كان يضم عناصر جاهلية لخصه لنا جواب الصحابة ، بعد نزول آيات تحريم الخمر حين قالوا "أنتهينا أنتهينا يارسول الله" ـ نتصد طبعا بعد أن نزلت آية :" يا أيها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون"..(1) اذاً ان المصير المشترك

---

(1) المائدة آية ٩٠

بين محمد (ص) وقومه ، ما كان ليكون تاريخا حافلا بالذكريات وحافلا بحضارة " تمت بين طياتها العلم والدين معا " طوال قرون عدة ، لولا مسير مصير واحد هو " الرفا استثنائي " مثل كلام الله عز وجل " اقرأ باسم ربك الذي خلق.... "[1] اذا أن أي عمل في التاريخ لا يأخذ حقيقته الا اذا كان مستمدا من روح أصيلة عرفت لأول مرة نتيجة مشاعر شتى تحكمت فيها .

ونتيجة للهو ما يسميه مالك بن نبي " بالبذرة الدينية " أي معامل القدرة على العمل ، ومعامل القدرة على القيام ببناء ، مهما كان هذا البناء ، ومهما كان تشكله .

" والبذرة الدينية " عملها هو نفسه عمل النطفة في عالم البيولوجيا ، فهي أساس الكائن الحي في عالم الحيوان ، والأولى أساسها بناء الذات الفردية والذات الاجتماعية معا في آن واحد .

ويزيد ابن نبي في تحليله لهذا المعامل الإلهي " هو البذرة الدينية " وهو معامل الفعالية :- أنه أيضا مقتبس من فكرة " توينبي " : التي يرى فيها عمل يخضع لحدين : حد سلبي وحد ايجابي ويراعي بذلك الحد السلبي وهو تلك الحالة التي تكون عليها النفس " الضمير " حالة الضعف بعبارة أخرى كيف يكون عليه الضمير ، عندما يضعف - أمام التحدي والاستجابة ؟ والجواب هو أنه في هذه الحالة فان الاستجابة هي الأخرى تضعف ، واذا ضعفت الاستجابة ضعف التحدي ، " كل تحد قوي له استجابة أقوى " والعكس صحيح ، وعندما ضعف الضمير فان التحدي يضعف ، وبالتالي الاستجابة أيضا تضعف . و مالك بن نبي يضفي على هذا التفسير الذي هو تفسير توينبي طابعا غير الطابع الذي صاغه منه " توينبي " ، وهو تلك الهداية " التي عثر عليها في القرآن الكريم

---

1) سورة الـ[illegible]ـق آية 1.

أي أن ضعف وقوة الدوافع الحيوية طبيعية ، غير أن الشيء الذي يبقيها غافلة سواء في الحالة الأولى أو في الحالة الثانية هو" حالة" تجاوب الشروط النفسية للقوة الروحية .

من خلال هذا الكلام يتضح أن الانسان بصفته أضعف كائنات خلق الله فإنه تارة عرضة للقوة والتطور (قوة لنفس على الخصوص) وتارة أخرى فإنه يعاني ضعفا كبيرا في قواه النفسية وأحسن واحد عبر عن هذا الجانب هو الفيلسوف الوجودي كولد ين ولدن في كتابه الانسان وقواه الخفية اذ بين كيف أن الحياة النفسية الداخلية للانسان ان لم يكن مملوءة القلق والعبث فان بهذا المعنى تكون نفسا ضعيفة : هذا حسب التصور الوجودي لهذا الفيلسوف غير أننا نبين حالة الضعف هذه طبيعة في النفس الانسانية وكل تحايل عليها يسبب حالة القوة اذ كل من الضعف والقوة حالتان طبيعيتان . وتفسير هذه الحالة التي هي حالة الضعف والقوة في الضمير وبالتالي في التحدي كالتالي يرى مبالك بن نبي أن حالة القوة تطرأ على النفس عندما يكون الضمير الانساني قد استطاع أن يتحدى في المجال الاخلاقي كل قوة موازنة له ، وان تحدي أي عارض وأي حالة طبيعية (تتماشى معها استجابة نفسية) عن الدوافع التي تميز النفس الانسانية ، وهي بالتالي استجابة رضي عن الضمير من النفس فتشتد عند الانسان ، وتزداد نفسه قوة ونشاطا ، أما في الحالة الثانية أي الحالة التي يضعف فيها الضمير فنلاحظ أنه يضعف نتيجة لضعف يصيب القوى النفسية : بمعنى أن الدوافع النفسية تصبح مشلولة مما ينجم عنه ضعف في كل شيء حتى اخلاقيا فان الضمير يكون أيضا ضعيفا ، وهكذا يكون التحدي بمقدار ضعف هذه الاستجابة وبعبارة أخرى لا تكون هناك استجابة بل مجرد فعل آلي لا ينجم أولا يتولد عنه شيء .

ويضرب لنا مالك بن نبي مثالين عن هذه "الحالة" أي حالة قوة التحدي، وقوة الاستجابة المثال الأول الذي يسوغه لنا هو:

ان رجلا كالشيخ الامام ابن باديس لم تكن لتنجيه يده الضعيفة أمام محاولة الاغتيال التي قام بها الفرنسيون ضده، لولا اشتداد قوة الروح أو ما يمكن أن نسميه بقوة "الفعالية": حيث لوحظ أن الزعيم الروحي للثورة الجزائرية آنذاك، ولحركة الاصلاح، تدتعرض لهذه المحاولة - أي محاولة الاغتيال التي كان من ورائها الاستعمار الفرنسي، لكنه نجى بأعجوبة منها - أي من المحاولة - فلنتساءل كيف كان لتلك اليد الضعيفة للرجل أي لابن باديس أن تردسكينه في مستوى القوى التي كانت أكبر منها، يدكيد العلامة البرائد ابن باديس.

طبعا ان القصة الى أوردناها فيها شيء من الخيال والطوباوية، حتى أنها قد تتهم لأنها أسطورة، والحقيقة أنها لو كانت بدغير يد ابن باديس في تلك اللحظة ماكانت لترديد الغدر الفرنسي، والامثلة على ذلك كثيرة ومشهورة، فكم من يد جزائرية غدرت بها يد "الاستعمار الفرنسي منذ 1830 الى 1962!!.

نفس القصص الطريقة نجدها تتكرر لامثال ابن باديس، وخذ على سبيل المثال كتاب "أيام من حياتي" لصاحبته، زينب الغزالي، فستجد فعلا تحدي الروح وحدها للقوى المادية بمعنى آخر ستجد تحديا في مستوى فعالية امرأة مسلمة أمام جبروت الطغاة ليس هذا وحسب بل انك تجد أنها أي السيدة زينب تقاوم أو تسكن زنزانتها في الستينات مع "كلاب" الطواغيت..(1)

---

1) راجع زينب الغزالي أيام من حياتي، دار الشروق، ط الثالثة 1979.

والمثل الثاني الذي أخذته هنا هو مثال ذلك الأمر الرباني "ليحيى عليه السلام في القرآن الكريم" والمتمثل في أمر الله تعالى ليحيى عليه السلام بأن يأخذ الكتاب بقوة فقال له: "يا يحيى خذ الكتاب بقوة"[1] اذ أن كلمة "خذ الكتاب بقوة" كانت دليلا على أن يحيى - عليه السلام - عليه أن يأخذ الكتاب لكن مع شيء من الفعالية النفسية "الروحية" وبعبارة أخرى على يحيى أن يكون كفئا للاخذ بالكتاب على المستوى النفسي، لأنه وحسب ما هو معروف ان قوة الانسان تكمن بداخله وليس من خارجه.

ويمكننا أن نأتي بأمثلة أخرى تدعم هذه الفكرة من واقعنا التاريخي المعاصر، فهناك أمثلة كثيرة وردت في هذا التاريخ وخصوصا التاريخ القريب الذي عايشناه والذي عايشه آباؤنا وأجدادنا، ان مدى صبر المجاهدون الجزائريون، في تصديهم لعدوان الاستعمار الفرنسي أيام الثورة الجزائرية لعظيم جدا، خصوصا اذا علمنا أن ميزان القوة المادية كان لصالح كفة الاستعمار الفرنسي - قوات الحلف الاطلسي والفرنسي وما أدراك !...*

وبالرغم من كل ذلك فانه عملية الاستقلال توجت بالنصر المبين رغم أنف الأعداء وعلى رأسهم الجنيرال "ديغول".

وعندئذ دقت ساعة ميلاد مجتمع هو المجتمع الجزائري الذي طال ما غاب عن الساحة السياسية والدولية والتاريخية، وان ساعة الميلاد هذه تدق لما تكون لجماعة " فعالية" وقوة نفسية في الدفاع عن الانسان وكرامته وشرفه من جهة، ومن جهة أخرى عندما يراد لمجتمع أن يعيد بناء تاريخه وحضارته، ان الفعالية من لحظات الميلاد، ولكن اذا كنا تكلمنا على هذه الفعالية في مثالين - أو أكثر، فانما أردنا تثبيت فكرة هي فكرة "الفاعلية"،

---

1) مريم آية 11.

والسؤال الذي من الممكن أن يطرح علينا هو كيف تتجلى هذه الفاعلية؟ وما هي شروطها ؟.

للاجابة على ذلك نقول: ان "الفاعلية" " L'eẽecacitè " تشترط ثلاث عوامل حسب مالك بن نبي : انها تشترط الطاقة " Ener gie " وهي "البذرة الدينية" ثم تشترط الوسط الذي يعتبر أهم عامل يساعدها على النمو" " La Germination " ثم تشترط الفطرة".

وسأتي الان على تفصيل هذه الاشياء التي يشترطها بن نبي لعامل الفعالية ولنبدأ بالعنصر الأول:

ان العنصر الأول الذي هو البذرة الدينية لايمكنه أن يقوم وحده انه يتطلب الشروط الأولى ، بعبارة أخرى انه يتطلب شرط الوسط، وشرط الفطرة ،وكلهم يتماشون معا ولايمكن فصل واحدهم الاخر اذا أقتضى ذلك المنهج.

ان عامل الفعالية يقوم على أساس البذرة الدينية لان هذه الاخيرة تحمل عمل الطاقة للمحرك انها هي التي تزود هذا المحرك " المجتمع التاريخي" لان يسير برتب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية أي أنها تعلمه كيف يتحضر.

وكلعدولبها نحو شكل من أشكال "الرهبنة" أو "الجمود" انما يجعل هذا المحرك الذي أشرنا اليه سابقا يتوقف من السير، عندما أيضا تنتهي منه آخر قطرة من "البنزين" . وهي الحالة الثانية ، أوعندما توضع طاقة أخرى غير البنزين في المحرك الذي لم نتحرك في هذه الحالة . لانه محرك "بنزين" وليس محرك طاقة شمسية أوكهربائية أو......".

وأما العنصر الثاني أو الشرط الثاني لقيام الفعالية فهو عامل الوسط ان مجتمعا كالمجتمع الذي قام بعد عصر الانحطاط ما كان عليه ليقوم من نومه ولو أتيناله بحالة كمالة "غار حراء".

وأما الشرط الثالث ، فهو الفكرة ، ونقصد بها أن مجتمع الفكرة يكون أكثر تجاوبا مع الفاعلية من المجتمع "السياسي" لأن كل شيء يسمى "سياسة" آنذاك يصبح فلسفة ، أو مجموع الأفكار المزاحمة للفكرة "الفطرة" فتقلل من فاعليتها .

يقول المفكر مالك بن نبي مشيرا الى ما أسلفناه في تحليلنا هذا :"والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأنشط الحركات، وأقوم التوجيهات"(1).

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر ، دمشق، ص32 1981.

الفصل الثالث

الوعد والوعيد

الوعـــــد والوعيـــــد

يعرّف مالك الوعيد بأنه "هو الحد الأدنى الذي لا يوجد دونه جهدا مؤثرا، والوعد هو الحد الأعلى الذي يصبح الجهد من ورائه مستحيلا، وذلك حين تطغى قساوة التحدي على القوة الروحية التي منحها الانسان"(1).

ان تعريف مالك هذا يبدو للقارئ على أنه غامض نوعا ما، لكن تقصي حقيقته سيزيل عنا هذا الغموض.

أولا: ان الوعيد هو أية محاولة تكون موجهة لرد الانسان الى غايته ومثله في هذا الكون، تكون ناجحة، في حالة ما اذا كان الجهد المبذول من طرف القوة الروحية قويا، وأعني بالقوة الروحية الدوافع النفسية في حالتها الفطرية، وفي هذه الحال فان كل جهد كما قلنا يكون مبذولا، يستطيع أن يؤثر في حياة الانسان الداخلية. وبالتالي فان هذا الاخير يتمكن من أن يقوم بعمله مهما كان هذا العمل.

وأما الوعد فانه على العكس من كل هذا تماما، اي أن الجهد المبذول من طرف الانسان تجاه أي عمل، يكون نسبيا من المستحيل، لانه لا يمكننا أن ننتظر منه نتيجة سواء كانت هذه النتيجة ايجابية أو سلبية - ففي كلتا الحالتين يكون الجهد المبذول غير مثمر، ولانه أيضا لا يتمكن من أن يحفز الدوافع النفسية في الذات الانسانية وعلى هذا النحو يصبح الجهد المبذول لا تأثير له.

من خلال فهمنا لهذه الفكرة أي فكرة الوعد والوعيد نرى أن هذين المفهومين مرتبطان ضروريا لكي تقوم النفس الانسانية بوظيفتها في الجد والنشاط.

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص69.

والانانـه أستحال عليها أي عمل يمكن أن تقوم به ، لأنه في الحالة هذه تصبح النفس الانسانية تتخبط اما في اليأس أو في القنوط هذا هو الذي يسمى لوما مايسميه الوجوديون بالتيه والحيرة والقلق والكآبة : لأن الحياة لاغاية ولاقصد من ورائها الا السقوط في أحضان العمل اللاقصدي أو مايسميه الوجوديون أيضا بالعبث . فالحياة حسب رأيهم عبث.

وهكذا يصبح أي عمل ـ حسب قاعدة الوعيد أيضا ـ خارجا عن نطاقه القصدي ـ حسب تصور المتصوفة فان الحال هذه يكون كل تصورفيها لاقصد من ورائه سوى الخوف والهلع من اليوم الآخر ... مما يجعل النشاط الدنيوي مستحيلا ، وحتى الخوف والهلع حسب المتصوفة لايخدم أية غاية سوى الرهبنة وابتداع الحضرات".[1] وفي هذه المرة فان كل نشاط دنيوي كما قلنا لايحقق العلاقة الاجتماعية ناهيك عن تحقيق العلاقة بين العبد بين المعبود . وغالبية الظن أن تكون العلاقة متكاملة بين السماء والأرض والأرض ومافيها من مجتمعات تهدف الى التحضر وحده .

الا ان الخطوة التي يهدف اليها رجال الصوفية هي خطوة طريقها غير واضح : انهم يسيئون سلبا الى تحرك المجتمع ، والوجوديون يكمنون حق المجتمع ايجابا ، وبتعبير أدق فان رجال الصوفية عملهم سلبي تجاه أنفسهم ، واتجاه الآخرين ، وأما الوجوديون فعملهم سلبي أو يتناقف اليه ضربا من تهميش الحركة التاريخية .

ومن الناحية الفلسفية فان الوعد والوعيد يخضعان للشروط النفسية للفرد وبالتالي للمجتمع ، وعندما تتأهب هذه الشروط للحركة عندئذ يكون قد تم تجاوب بينهما وبين الحياة الروحية . وبتعبير آخر عندما توضع الحياة النفسية بين حدين نفهمهما من الآيتين الكريمتين: "... فلايأمن مكر الله الا القوم الخاسرون"[2] وآية "... انه لاييأس من روح الله الا القوم الكافرون"[3].

---

1) [illegible] الى [illegible]

2) سورة الأعراف آية 99.

3) سورة يوسف آية 87.

ويضرب لنا مالك بن نبي أمثلة عن حالة الوعد والوعيد من التاريخ فيسوق الحالة التي كانت تشد بلال - رضي الله عنه الى الصمود أمام أية قوة كانت بسبابته وبقوله: " أحد... أحد..." في أحلك محنة وهي نفس التأثيرات التي كانت تشد تلك المرأة الزانية* حين ألحت على الرسول (ص) حتى يقيم الحد عليها ، وهي أيضا الحالة التي كان عليها ابن باديس رائد الاصلاح في الجزائر عندما تعرض لحادثة أغتيال دبرها له الاستعمار الفرنساوي: " ان كنا كيف نتصور تلك اليد الضعيفة ترديد المعتدي عليا بالخنجر فلم تكن دوافع البقاء هي تحكمت في هذه الحالة فحسب بل كان ذلك المؤثر الروحي الذي يجري في حياته النفسية هو الذي مكن هذا الرجل من دفع يد البلاء عنه "(1).

لانه حسب مايشير اليه مالك بن نبي في كتابه تأملات: " فاليد تأخذ ببطش في حالة التوتر وهي حالة نفهمها في آية: " يايحيى خذ الكتاب بقوة "(2) وهي ليست سوى حالة محققة للنداء أعني النداء الذي يضع الشروط النفسية بين الوعد والوعيد القرآني . وليس ذاك الذي يتكلم عنه صاحب كتاب حوار الحضارات(3) الذي يرى: "أن الوعد موقف على مدى التأمل في الضعف خوفا من القوة التي هي قوة الحضارة الغربية."(4)

---

* مسلم.

1) مالك بن نبي ، تأملات ، ت عمر كامل مسقاوي، ط4، دار الفكر، دمشق 1979 ص35.

2) المصدر السابق نفسه ، مريم آية 11.

3) روجيه غارودي: رجاا غارودي ،ت محمد مزالي، منشورات، عويدات 1979.

4) هذا التباين الثقافي منشأه عقائدي لأن الانغلاق كعنصر ثقافي أصلها العقيدة مهما كانت هذه العقيدة حسب ماعلمنا مالك بن نبي.

واذا كان حداّ الوعد والوعيد، طرفين ناهيين كأنما يحققان اللاافراط واللاتفريط، في الأعمال والواجبات فهو ما يكن ـ حسب مالك بن نبي ـ فالنتيجة المثمرة عمليا يلاحظها في آية :" ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه انه ليئوس كفور ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني انه لفرح فخور"(1).

كأنما القصة هنا تربوية بالدرجة الأولى اذ تهدف الى ترقية النفوس نحو غاية مثلى ، والبلوغ الى هذه الغاية المثلى تتطلب أن تبقى موزونة بميزان تتساوى فيه الكفتان، وكل ترجيح لكفة يعني اما يأس وكفر أوفرح وفخر وكل من اليأس والكفر والفرح والفخر يأخذان بناصية الانسان الى الهلاك والهلاك وحده حيث لاتتحقق الشروط المطلوبة من الانسان في هذه الدار.

وخلاصة القول أن الحركة التاريخية موقوفة على شروط اقلاعها الأولى ومن ضمن هذه الشروط شرط واحد هو هذا الذي نتبعه ندراسته ، في هذا الفصل ، وهو بكلمة وضع نفسية الانسان في الشرط الوحيد الذي يخول لها الاقلاع أي وضعها بين وعد ووعيد.

ونعقب في الأخير على هذا الفصل فنقول أن فكرة الوعد والوعيد التي يقدمها مالك بن نبي كشرط أساسي للاقلاع في الحركة التاريخية ، ان هذه الفكرة ليست بجديدة ، اذ نادى الفكر الاسلامي بها على أيام المعتزلة حين جعلوها من أفكارهم الخمس. ونود هنا أن نبين الفرق بين الفكرتين هنا يعني عند مالك بن نبي ، وعند المعتزلة ، فنرى أن المعتزلة " أتفقوا على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، والتفضل

---

1) سورة يونس آية 69.

معنى آخر وراء الثواب، واذا خرج من غير توبة لكبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار، وسموا هذا النمط "وعدا ووعيدا"[1].

ثما أن فكرة الوعد والوعيد في فكر مالك بن نبي فلاتبقى تأويلا عقليا للتصور الاسلامي كما شاهدناها عندالمعتزلة، بل هي نظرة مقتبسة من ناحية علم النفس وعلم الاجتماع، ومدى تجاوب التصور الاسلامي مع هذين العلميين في الفكرة، لان كل علم هو كشف عن الحقيقة بطرق مختلفة.

---

1) عبدالكريم أحمد الشهرستاني، الملل والنحل ورد هذا للدكتور محمودقاسم نصوص مختارة من الفلسفة الاسلامية مكتبة الانجلو المصرية، بدون تاريخ ص46.

الباب الثالث

أسس فكرة التاريخ عند مالك بن نبي

الفصل الأول : عالم الأشخاص .
الفصل الثاني : عالم الأفكار .
الفصل الثالث : عالم الأشياء .
الفصل الرابع : الإيديولوجيا .

فكرة التاريخ عند مالك بن نبي

تبين لنا من الباب الثاني أن من أسس التاريخ ، التصور الحقيقي للفكرة والفاعلية القوية لها ، ومكانة النفس الانسانية في درجة التفاعل معها ، أو وضعها بين حدي الوعد والوعيد ، يبين هذا مالك بن نبي في كتابه "ميلاد مجتمع " حينما يشير الى أن العلاقة الروحية في الواقع هي أصل العلاقة الاجتماعية في المجال الزماني".(1) ومن هنا فالعلاقة الروحية هي علاقة بين وعد الله ووعيد للانسان بالمفهوم الاجتماعي بعد هضم هذه العلاقة في مجال الفرد ، ويردف مالك بن نبي أن الفرد مشروط بالجماعة بمعنى أنه لايمكن روية هذه العلاقة الروحية المتجسدة اجتماعيا الا اذا قامت اللبنة الأولى " الفرد" بتبليغها ، واذا لم يبلغها المجتمع فهو آثم ، ذلك مايشير اليه القرآن مثلا في قوله :" كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..."(2).

واذا كنا قد تعرفنا في الفصل السابق على أسس الحركة التاريخية فنود الآن أن نتعرف على شروط الحركة التاريخية ، فما هي؟ وبعبارة أخرى ما هي الشروط التي تسير الحركة التاريخية عبر " معالم في الطريق"*؟ من أجل صناعة التاريخ لأن صناعته ليست بالأمر الهين اذ أنه بمجرد أن يحقق الانسان وعد ووعيد الله " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم".(3)

فبدأ لوازم أخرى تعمل عملها من خلال الفرد في الطريق الاجتماعي ومن خلال المجتمع في الطريق العالمي الفائي.

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ، ت : عبد الصبور شاهين، دار الفكر ، دمشق الجزء الأول 1979 ص 92.
2) آل عمران ، آية 110
*) كتاب المفكر المسلم . سيد قطب .
3) الأنفال آية 24.

يحلل مالك بن نبي الآراء المختلفة في تفسير الحركة التاريخية . أعتبارا من أن فكرة " المجتمع " ترتبط بنوسيج المتحرك بعناصر ثلاثة :

(أ) حركة مستمرة .

(ب) انتاج دائم لأسبابها .

(جـ) غايتها أو هدفها

ويري مالك بن نبي أن مخططا كهذا يبتينا في الحلقة المفرغة ، اذا ما حاولنا تحديدا أي من هذه العناصر الأسبق : لأنه اذا حاولنا أن نقول أن الحركة هي التي تؤدي الى أسبابها فاننا نقع في تناقض . اذ أننا نبين المجتمع في حركية مستمرة دون أن نحدد الأسباب الأولى لهذه الحركة . يقول مالك بن نبي في هذا المضمار : " أن كل وسط انساني يندمج في حركاته منتج لأسباب هذه الحركة ينطوي على عامل أساسي يقهر الخمود الفطري طبقا المبدأ الميكانيكا الكلاسيكي ، حين يحيل عناصر الخمود في وسط معين الى قيم حركية "[(1)] وهو يعني من كلامه هذا أن الحركة التاريخية لمجتمع ، عليها أن لاتنكفيء الى هوة الجمود من جهة ، ومن جهة أخرى عليها أن تغذي نفسها بنفسها عندما تقهر الخمود الفطري وتنتج لنفسها قيما تساهم في تحريكها . بمعنى آخر فان الحركة ، وان كانت لاتخلو من الجانب الميكانيكي فيها هذا الذي ينبيء السؤال الذي طرحنا سابقا ، فان الجانب النفسي وهو المنتج للقيم التي تساهم في سير حركته بالتمام : فكما أنه في علم الكهرباء الميكانيكية أن المولد الكهربائي ينتج شحنات كهربائية في الوقت الذي يزوده بها العمل الميكانيكي للمحرك ، كأن نقول أن المحرك هو المنتج للشحنات الكهربائية في حين أنه يقيم عمل ميكانيكي يصرف فيه كهرباء تستهلك من طرف المولد الذي بدوره ينتج شروط بناء الدورة الكهربائية .

---

1) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ص 17.

وينقلنا مالك الى مفسري الحركة التاريخية من أعلام الفكر العالمي فيلاحظ أن هيجل يرجع الأسباب التي تحكم كل حركة تاريخية ، أي كل تغير اجتماعي الى مبدأ التعارض: " الذي يتكون من قضية ونقيضها والتركيب بينهما والحركة التاريخية تنشأ طبقا لهذه الأسباب المتعارضة ، وبالتالي فان غايته تتمثل أمامه في صورة اندماج وتركيب محتوم ، وبتعبير آخر، فان وضعا ما و حالة ما لجماعة من الجماعات الإنسانية يشكل قضية ، ثم ان كل تغيير سواء كان هذا التغيير اقتصاديا أو أخلاقيا أو .. فانه يشكل بالتالي العنصر المضاد تماما للوضع الأول وهو ما يسميه هيجل بنقيض القضية ، وان حركة التاريخ لا تظهر في جماعة من الجماعات الانسانية عندما تتم على صورة قضية ونقيضها لأن هذا " الجدل" هو الهدف الأول الذي تسعى اليه هذه الجماعة الانسانية .

ويبدي مالك بن نبي رأيه أيضا في المذاهب الحديثة - نقصد المذاهب التاريخية - فيؤكد أنها انطلقت في تفسيراتها من هذه الجدلية الهيجلية ولو أن بعض المفكرين أضفوا على عامل الأسباب المتعارضة طابعا اقتصاديا . وعليه فان المجتمع الذي يوجد بهذه الصفة ويشكل حضارته يكون ناشئا من فكرة " التعارض الاقتصادي " هذه، التي هي الفكرة الماركسية .

يقدم لنا مالك بن نبي دليلا حول هذه الفكرة ومدى صحتها وصلاحيتها في واقع ما ، فيرى أن الفكرة الماركسية في رقعتها الجغرافية أستطاعت أن تحقق نجاحا في ميدان الدخل الفردي ، ومع الأسف فان هذا الدخل نفسه توصلت اليه كل من اليابان وأنجلترا بالرغم من أن الدولتين لا تنتميان الى فكرة ماركس الاقتصادية . يقول في هذا المعنى: " ... وبذلك نستطيع أن نتدرج الى أن نثبت العكس أن انتشار الفكرة الشيوعية محدود داخل هذه الحدود الاقتصادية المطابقة لحدود جغرافية معينة ، وان التفكير الماركسي لم يجد وراء هذه الحدود

المزدوجة لحروف تواقلمه ، فهي بهذه الصورة لايستطيع أن يقدم لنا تفسيرا معقولا للمجالات التي لم ينتشر فيها على الخريطة ".(1).

ثم ينتقل الى فكرة "توينبي " حول تفسير الحركة التاريخية فيرى أنها هي نفسها مأخوذة عن فكرة التعارض التي أتى بها هيجل ، ولقد كان كارل ماركس قد أعطى فكرة التعارض: "مفهوم الصراع الطبقي" أعطاه صبغة مادية أقتصادية . في حين أن توينبي جعل ماسماه هيجل الحالة الراهنة بمجتمع ما شيئا طبيعيا غالبا مايكون موازيا في مدى قوته للطبيعة الانسانية مما يجعل " التحدي ممكنا " فنقيض القضية هنا هو مايسميه "بالتحدي" وما ينجم عن التحدي نسميه بالاستجابة وحسب تعبير هيجل بين القضية ونقيضها .

ومالك يرى أن توينبي قدم تفسيرا غير تفسير ماركس أو هيجل للحركة التاريخية لما يجعل النشاط موجها بين طرفي نقيض : الحد الأول يمثل الطبيعة عنده والحد الثاني يمثل الجانب النفسي للانسان. وفي رأيه أنه كلما كان تحديا كلما كانت استجابة ، وكلما حدث العكس . كلما كان هناك اخفاقا . أن الحركة مشروطة بجملة عوامل تبدوا كأنها حتمية بين الطبيعة التي تشكل المجال الحيوي والانسان الذي يشكل عنصر التجاوب ، وبتعبير مالك بن نبي فان الحركة التاريخية حسب توينبي مرهونة بشرطيها حين يتحقق اللاافراط واللاتفريط، وشرحا لفكرته يقول: أنه كلما كانت الطبيعة قاسية كلما استطاع الانسان أن يتغلب عليها ويسخرها لنفسه ، شرط أن يملك ضميرا قويا أو شعورا قويا تجاه عملية التسخير هذه ، وهذه الحال أو هذا الوضع هو وحده الذي يمكن الحركة التاريخية من السير. أما اذا حدث العكس من هذا ، أي في حالة ما اذا كانت قوة التحدي " الطبيعة " أصلب وأمتن من قوة الاستجابة " الانسان " أو كان العكس بمعنى : أن قوة الاستجابة كانت أمتن عودا عند الانسان منها في الطبيعة : ويستند مالك بن نبي في هذا الى

1) المصدر السابق نفسه ص 19 .

مثاليين يستدل بهما توينبي من التاريخ ، اذ يلاحظ على أن :- الكلام لمالك بن نبي - الشعوب التي هاجرت الى أعالي النيل، ابان العصر الحجري الجديد تستطيع أن تحدث تغييرا ذا بال في شرائط حياتها منذ ذلك الحين لأنها قد عمدت الى الفرار من قسوة التحدي ، أما أخوانهم الذين كانوا يعيشون في الوادي المنخفض فقد آثروا مواجهة التحدي الذي واجههم به الطبيعة المناخ ، فغيروا شرائط حياتهم تغييرا تاما ونجحوا في اقامة أول مجتمع متحضر شهده التاريخ "(1).

ويستطرد مالك بن نبي قائلا : " أن الاسكيمو الذين يعدون نموذجا للجماعة الانسانية التي لا تغير شرائط وجودها ، لأن تحدي الطبيعة لها قد أربى على امكانياتها وقواها جمدها في شكل من أشكال الحياة الساكنة "(2) ان القضية هي قضية وجود أو لا وجود يعني في رأي العلامة تويمي ، اما أن يتحدى الانسان الطبيعة ، وتتحداه هي ، فهي الحالة الاولى يبني ويقيم حضارته ، وفي الحالة الثانية فان الجمود يصيب حيث نه حتى كان حياته تصبح شكلا من الاشكال التي ترضي الطبيعة حسب ، بمعنى أنها ترضي الواقع التي تعيشه الشعوب ، ومنها شعوب الايسكيمو مثلا .

ان هذا حسب ما يشير اليه مالك بن نبي هو التفسير الذي قدمه توينمي للحركة التاريخية ، وهو تفسير يصح كثيرا، كما نرى في المجال الطبيعي ، ولهذا فتبه مالك بن نبي اليه وحاول أن يصوغه صياغة أخرى في نهج آخر" ونحن يمكننا الى حد ما أن نصوغ هذا الرأي الذي ذهب اليه المؤرخ "توينبي" صياغة جديدة في ضوء القرآن الكريم .فقد نستطيع - حيث لم نصل بهذه الطريقة الى تفسير واضح لمنشأ الحركة التي ولدت المجتمع الاسلامي وغايته التاريخية أن نفسر هذه الحركة بالعوامل النفسية التي حفزت القوة الروحية لهذا

---

1) المصدر السابق نفسه ص20 .
2) المصدر نفسه ص20 .

المجتمع ، أعني شروط حركته عبر القرون (1)

ان مالك بن نبي كما أسلفنا في هذا القول يريد أن يدحض فكرة كون المجتمع عندما يريد أن يقيم حركته التاريخية ،يكفيه أن نحفز فيه الدوافع الطبيعية النفسية ، فنرى أنه لا يمكننا أن نقول بذلك تحفي هذه الدوافع في رأيه هو الآخر بحاجة الى عامل يحفزه ، ولذلك " فالحالة النفسية " الطبيعية غير كافية وحدها لتمرير وتسيير الحركة التاريخية وبعبارة أوضح ، فانها لو كانت كذلك كان عليها أن تحفز شعوبا كثيرة اذ لا فرق بين المجتمع الاسلامي والمجتمع البذوي ابان تشكلهما ، ولكن تبقى المسافة بعيدة بينهما حينما نرى أن المجتمع الأول يتشكل بأفراده " كأنهم بنيان مرصوص" الشيء الذي يمكنه من أن يبقى سائرا بين القرون في حين أن الثاني فانه يتشكل حسب اباضة البوغا "هذا الذي لم يسمح له بأن يمارس سيره عبر القرون.

ومالك بن نبي عندما يقدم هذا النقد "التوينبي" فانما يريد أن يحقق فكرته لكن هذه المرة في قالب آخر هو قالب " الوعد" والوعيد" الذي عثر عليه في القرآن الكريم فهو يقدم تعريفه "للوعد والوعيد" كما أشر الى ذلك في الفصل الماضي ، ويخلص الى ضرب مثالين عليهما كحالتين نفسيتين:
المثال الأول طبعا يأخذه من التاريخ الاسلامي في أيامه الأولى وهو حالة صبر بلال الصحابي الجليل رضي الله عنه - على ما كان يلقاه من عذاب وبلاء ، وكيف أستطاع أن يتعدى قوة قريش بقولته أحد، أحد... " يقول مالك بن نبي عنه :" ولم تستطع قوة في الأرض، وما كان لها أن تستطيع أن تخفض أصبعه اذ أن روحه في اللحظة التي كانوا يصبون فيها العذاب على بدنه كانت منغمرة في فيض نوراني لا يوصف هو" وعد الحق" (2).

---

1) المصدر السابق نفسه ص21.

2) المصدر نفسه ص21.

والمثال الثاني هو مثال المرأة الزانية* التي طلبت من الرسول (ص) اقامة حد الزنا عليها ، يبرز لنا قيمة " الوعيد" في توجيه الطاقات النفسية في حالة معينة". (1).

ان هذا الفهم لأسس الحركة التاريخية ولعوامل أنطلاقها أولشروطها هو الذي يمكننا من أن نستنتج أن النفس الانسانية تقع في حالتها الطبيعية بين حدى : وعد، ووعيد ، وكل مجال لها خارج هذين الحدين هو مجال اما " اليأس" ،أو القنوط، وعندئذ يمكن القول أن الحركة التاريخية لايمكنها أن تتم في هاتين الحالتين،لأنهما حالتان تنعدم فيهما الحركة التاريخية فحسب ،بل وحتى الحركة الطبيعية .

وحسب أننا قد وضعنا ، قد المستطاع جملة الآراء التي خاضت في سير الحركة التاريخية ، ابتداءا من فكرة هيجل:" الجدلية التاريخية" ومرورا بالجدلية المادية لماركس، ووقفنا مع توينبي" في تعويضه لفكرة التعارض بفكرة التحدي الاستجابة ، ووقوفا أيضا عند العامل الذي يجعله محفزا للحركة التاريخية وهو محف، طبيعي ، لنتعرف الآن على صياغة هذا الرأي الأخير صياغة أخرى كما فعل مالك بن نبي الذي يشير الى أن" آلية الحركة التاريخية انما ترجع في حقيقتها الى مجموعة العوامل النفسية التي تعتبر ناجما عن بعض القوى ، الروحية ، وهذه القوى الروحية التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ الانساني". (2).

ومالك بن نبي بعد هذا كله يعود الى المورخ الفرنسي" جيزو" (3) محلل الحركة التاريخية في أوروبا الذي يرى أن التاريخ من حيث كونه علم ماوقع

*) سيرة ابن هشام حديث المرأة الزانية واقامة الحد.

1) المصدر السابق نفسه ص21.

2) المصدرنفسه ص 23.

3) جيزو" Guizot " فيلسوف ومؤرخ فرنسي معاصر من أهم مؤلفاته ، معرفة التاريخ.

فلايمكن أن يتناول موضوعه بطريقتين " فأما أن يجد مجال دراسته في الفرد نفسه في كل مايؤثر في حياته ، ويغير من صفاته الانسانية ، واما نجده في الوسط الذي يحيط بهذا الفرد ، أعني فكل مايؤثر في حياة المجتمع ويغير من صفاته ، والتاريخ على أي حال ليس سوى هذا التغيير الذي تتعرض له الذات والمجال الذي يحوطها على السواء" (1).

وتفسير ذلك أن التاريخ في حركته حسب مايشير "جيزو" "Guizot" (*) هو تغير نفسي يقع للذات أولا وقبل كل شيء ، بمعنى أن ذات الانسان عند ما تحفزها جملة عوامل كان تكون عوامل ميتافيزيقية أوروحية ، فانها تفعل فعلها في المجتمع الذي بدورها يصنع تاريخه ، ويبقى المشكل المطروح هو هل أن هذه " الذات" هي التي تشكل الافراد أم أن الافراد هم الذين يشكلون هذه الذات ففي نظر " جيزو" ان المشكل سواء طرحناه بالطريقة الاولى أو الطريقة الثانية فان "الحدث" الذي نتوخاه من كل ذلك هو تحول " الذات" من "ذات" كفرد الى "ذات" كشخص ، وهذا هو المهم .

ان التحول من الحالة الاولى الى الحالة الثانية وبفعل العوامل الذي أشرنا اليها سابقا هو الذي ترك مالك بن نبي يفكر في أن التاريخ : هو ضرب من النشاط المشترك "للاشخاص" "والافكار" "والاشياء" . وبتعبير أدق فان صناعة التاريخ تتم تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث :

أ - تأثير عالم "الاشخاص
ب- تأثير عالم الافكار .
جـ- تأثير عالم الاشياء .

ان تأثير هذه العوالم مجتمعة هو الذي يمكن الحركة التاريخية من السير ، فحسب مالك بن نبي أن أسس الحركة التاريخية هي العوالم الثلاث هذه التي سنحللها قدر المستطاع في الفصول الموالية .

---

1) المصدر السابق نفسه . ص 23 .

(*) جيزو" Guizot "فيلسوف ومؤرخ فرنسي معاصر من أهم مؤلفاته معرفة التاريخ .

الفصل الأول

عالم الأشخاص

عالـــــم الاشخـــاص

انه لتذليـــل مصطلـح" علم الاشخـــاص" والذيفي الحقيقـــةلانجـد لـــه تحديــــدا كلفـــظ قاموســـي عنـــد مالـــك بن نبي ـ علينا أن نعـــود الى مانستطيـــــع جمعـــه من قـــراءات تخص اللفظـــة فيجميـــع كتابـــاتـــه . ولكـــن مع ذلـــك يمكننــا أن نستـبيـن ببعض التعريفـــات التيبقدمهـا والتي في رأينـــا تحـدد مصطلـــح "لـــم الاشخــــــاص.

ان لكلمـــة شخـــص معـــنى خاصـــا ومضبـــوطـــا في فكـــر مالك بن نبي ، فهـــي تعنـــي: " الكائن المعقـــد الذي ينتـــج الحضـــارة وهذا الكائـــن هو في ذاتـــه نتـــاج حضـــارة ، اذ هو يديـــن لهـــا بكـــل مايملـــك من أفكـــار وأشيـــاء[1]". وهـــو بهـــذا المعنـــى يبـــدي فرقـــا هائـــلا بيـــن كلمـــة " فرد" وكلمـــة "شخص" اذ أن الكلمـــة الأولـــى لاتـــدل سوى على النـــوع كما عرفتـــه الحيـــاة البيولوجيـــة ونعنـــي بهـــذا أن الفـــرد هو مجمـــوع الصفـــات الجسمانيـــة التي تميـــز النوع عن غيـــره من الانواع ، فيحيـــن أن كلمـــة شخـــص كما مـــرت بمعناهـــي أولا وقبل كل شـــيء تغييـــر في المجـــال الثقافـــي ذاك المجـــال الذي يديـــن له الفـــرد حتى يصبـــح شخصـــا : بمعنى أن الفـــرد متـــى أصبحـــت لـــه شبكـــة علاقـــات اجتماعيـــة تغيـــر وأصبـــح شخصـــــا .

من هـــذا التوضيـــح كلمـــة شخـــص نستطيـــع الآن أن نذلل المصطلـح السابـــق ونعنـــي : مجمـــوع الكائنـــات المعقـــدة التي تنتـــج حضـــارة ، وهي الكائنـــات التي تمثـــل في ذاتهـــا نتـــاج حضـــارة ... الخ، وبعبارة أخـــرى فمالك بن نبـــي يعنـــي بعالـــم الاشخـــاص العالم الذي تغيـــرت فيـــه الافـــراد بسبب شـــروط ثقافيـــة الى أن كونـــت عالما خاصـــا بهـــا ـ والذي هـــو في حقيقتـــه ايجاد مناخ ثقافـــي خاص للعلاقـــات الاجتماعيـــة سمينـــاه عالـــم الاشخـــاص.

---

1) مالـــك بن نبـــي، ميـــلاد مجتمـــع ص26.

والآن وبعد أن قربنا المفهوم من الأذهان يبقى علينا أن نبين كيف يكون لعالم الأشخاص تأثير - طبعا مع بقية العوالم - في سير التاريخ وبالتالي مشاركته في صنعه ؟ ومع ذلك يستعصي علينا الأمر اذا أنجرينا مباشرة الى تبيين هذا التأثير دون أخذ العموميات التي ينطلق منها عالم الأشخاص في تأثيره، لهذا علينا أن نتقيد في كثير من الحالات بالنص الذي يهم موضوعنا هذا.

يقول مالك بن نبي: "ان الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع وهدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل الحياة الراقية هو ما نطلق عليه اسم الحضارة"[1].

وهو يعني من كلامه هذا.

أولا: يحدد لنا مفهوم الانسان، فهو في نشأته يوجد على شكله الطبيعي أي تكون مجموع الصفات البيولوجية هي التي تصنع سمات شخصيته سواء أكانت هذه الصفات صفات جسمانية، كالطول أو القصر، والسمنة، والنحافة، وضخامة البنية الجسدية ... الخ." أو كانت هذه الصفات صفات وراثية، كوراثة الصفات السائدة من الآباء والأجداد والصفات الخاصة بالجانب الطبيعي في الانسان.

والانسان بهذه الحالة شبيه بعالم الحيوان من حيث الخاصة البيولوجية لكنه يختلف عن هذا العالم الحيواني كليا، اذ أكد اليوم علماء البيولوجيا على أن الانسان اليوم بيولوجيا غير عالم الحيوان والمهم هو أن الخاصية الطبيعية في الانسان لا توجد سوى في نوع الانسان والخاصية الطبيعية في نوع الحيوان لا توجد سوى في الحيوان. وهكذا فان الحياة الطبيعية في عالم الانسان لا تؤهله سوى أن يلبي حاجياته

---

1) المصدر السابق نفسه، ص16.

البيولوجية الى جانب ذلك يوجد فيه أيضا مجموع الاستعدادات الفطرية التي يمكن الفرد من عمل التغيير . فالطبيعة عندما تأتي بالنوع الانساني تأتي به كما هو بيولوجيا فقط - بينما - حتى يكتمل دور الانسان وحتى لا يبقى الانسان مجرد فرد بل يتحول الى شخص هناك عمل آخر ينتظر هذا الانسان ، هذا العمل هو القيام بعملية تغيير وشحذ للملكات الفطرية فيه كي يوجهها نحو أهداف نبيلة ونحو غايات ترضي الانسان في جانبه القيمي ، الاخلاقي خاصة. ان هذا العمل هو ما يقوم به الفرد من عملية تغيير نفسي تتماشى والوجهة التي تحددها له الشرائع والايديولوجية الخاصة به. والانسان بهذا الحال يمكن له أن يتغير من فرد الى شخص عندما يغير أولا : الجانب الذاتي فيه من حالة "الطين" الى حالة " العقل" حين اذ يمكنه أن يغير الواقع المحيط به. ثم ان عملية التغيير هذه، تكون وفق شروط هي:

أولا: أن يقتنع الانسان بالفكرة الموجهة لمناهجه في الحياة .

ثانيا : أن يقنع الاخرين بهذه الفكرة .

واذا قام الانسان بهذا العمل الثنائي فقط فانه يستطيع أن يكون مساهما الى حد ما الى صنع التاريخ ، وبالتالي نستطيع أن نقول عنه أنه شخص مساهم في صنع الحضارة .

ان عمل التغيير الذي يحول الانسان من كونه فردا" INDIVUIDU "الى كونه شخصا " PERSONNE "يقتضي أيضا عدة شروط :

أولا: على الانسان أن يتمكن من فهم نفسه ، ومن فهم الواقع المحيط به .

ثانيا : أن يكون متفهما للفكرة التي توجهه في فهم ذاته وفي فهم ذلك الواقع الذي يحيط به .

وبتعبير أدق فان على .... الانسان أن يقوم على هذه البسيطة ، خاصة محور طانجة ـ جاكرطة أ بالارتفاع الى مستوى الحضارة*، وعلى الانسان هناك في محور واشنطن ـ موسكو أن يعلن الاشادة ... الحضارة الاشم والاعلى: "... وأنتم الاعلون ان كنتم مومنين"(1). ثم ان عمل التغيير سواء هنا أو هناك لايمكنه أن يقوم أو أن يتم الااذا استجابا القوم لآية: "لو أنفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم انه عزيز حكيم"(2).

بمعنى أن عمل التغيير من الناحية الاجتماعية شروط:

أولا: بالتغيير من الناحية الفردية في هذه الحال على الانسان اذا كانت لاتوجهه مبادئ أفكار مادية صرفة أن يستجيب لدعاء الله له ، وعندئذ فان عمل التغيير الاجتماعي لايتواثق الا وما يمليه الله للقوم . لان وبتلك الكلمة التي ألقاها الى هؤلاء القوم لا فقط" يستطعون أن يتمالغيروا بتعليمير آخر فان التآلف والمحبة بين القوم لاتتم أولا تقوم الا اذا أستجابوا لها" أي للفكرة الموجهة "عندئذ" فقط" اذا استجابا القوم توحدوا واذا توحدوا أصبحوا قوة :كيف يتوحدون؟ اذا أصبحت أفكارهم ذات منطلق عقائدي واحد وترتب عنها سلوكاتهم الاجتماعية " الاخلاقية وأصبح ذوقهم للحياة وللكون واحد" جماليا" فأصبحوا اخوة متحابين ، ونعتقد أن هذا هو ما كان يشير اليه الحديث الشريف:" المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه البعض"(3) ومالك بن نبي انه يرى أن انتقال الانسان من مجرد فرد الى كونه شخص هو أولا وقبل كل شيء تغيير في المجال الثقافي كما

---

* يرى مالك بن نبي أن المجتمع الخاص بنا لم يصل بعد الى مستوى الحضارة ، وانما هو في مرحلة بادرة حضارة

1) آل عمران آية 139.

2) التوبة آية 10.

3) حديث ... رواه مسلم في صحيحه .

أسلفنا سابقا ، ومن هنا في رأيه فانه، لايوجد شيء ذا أهمية كبرى من العمل الذي يتسنى الانسان أن يقوم به من تمتين الأواصر والروابط مع غيره من الأفراد، وهو يقول في هذا المعنى: "ان العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده، هو اقامة شبكة العلاقات الاجتماعية"[1] طبعا حتى يتمكن الأفراد من ربط بعضهم البعض، وحتى تكون بينهم صلات وروابط أخلاقية موحدة ، والا فاذا يعني تجمع أفراد بعضهم البعض طبعا ليس له أي معنى ، اذ لم تحدد هذه الروابط شروط أخلاقية تجمع بين الأفراد ثم ان الجموع الغفيرة التي نراها تتجمع من أجل هدف ما لايكون لها أي اتصال في مجال العلاقات الاجتماعية أي لايرتبط بعضها برابطة أخلاقية تبقى مجرد جماع ، فهي اضافة فرد الى فرد "1+1+1...؟"، بمعنى أن تجمع على أي كان لايؤهل العلاقات الاجتماعية للارتباط فهو فاقد. وهكذا لاحظنا التعبير القرآني لما وصف أولائك الضالين عن الطريق المستقيم فأخرجهم لنا في معركة مع الايمان فقال: "سيهزم الجمع ويولون الدبر .."[2] فكلمة الجمع هنا تعبير صادق على أن مجرد اضافات فردية لبعضها البعض، لاتجدي ولاتنفع، اذ لم تكن البناءات اللازمة في المجال الثقافي هي الرابطة لهذه الجماعة كي تتحول الى جماعة " جمعة "(*).

ثم ان الاجتماع الانساني على ضوء هذه العلاقات ذات الأطر الثقافية الخاصة ، هي بالتالي التي تؤهل هذا المجتمع، أن ينتج فقط أفكار، وأشياء ، والملاحظ أن العمل الأول الذي قام به الرسول (ص) - حين هاجر من مكة الى المدينة - هو بناء مسجد وأخاه آخى بين المهاجرين والأنصار، والحقيقة أن هذا العمل الأول دليل قاطع على

---

1) المصدر السابق نفسه، ص26.
2) القمر ، آية 45.
*) يرى مالك بن نبي أن كلمة "جمعة" رمز وتعبير صادق لتذكير المجتمع الاسلامي بساعة ميلاده.

أنه، في المسجد يستطيع الفرد المسلم أن يتذكر ساعة ميلاده، حتى يحافظ على استمرارية النوعية من ناحية الكم والكيف، بمعنى أن الانسان في هذا الحال يمكن الى حد ما أن يضمن شروط بقائه، " كشخص مسلم ". وان العمل الثاني الذي هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لم يكن ممكنا دونه، القيوم بأي تجاوب بين الفكرة القرآنية وعالم الانسان ما لم يكن في امكان كل أنصاري أن يتقاسم شروط الحياة مع أخيه المهاجر. هذا العمل الذي للأسف لازالت الأمة تفتقر اليه اليوم.

فعمل كهذا اذا حللناه من الناحية النفسية لاحظنا أنه أعطى الدفعة الحيوية للرجل المسلم فانطلق مع التاريخ في شخص" عقبة بن نافع" الذي يقف عند حدود المحيط الاطلسي، ويقول داعيا مولاه فيما معناه: "يارب لو علمت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتها".

ولاحظنا على أنه هو الذي مكن تجاوب شهداء بدر يوم الوقيعة مع آية " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين" (1)

وهذا العمل هو الذي مكن عدو الاسلام قديما وحديثا* من أن يشهد له لاعليه، في مجال التحرك السريع الذي أمتاز به عالم الاسلام خاصة أيام بزوغ حضارته الأولى.

ويزيد مالك بن نبي هذه الفكرة وضوحا - أي فكرة عالم الاشخاص حينما يضفي عليها معنى الثقافة في التاريخ اذ يقول: " لايمكن لنا أن نتصور تاريخا بلا ثقافة، فالشعب الذي فقد ثقافته، فقد فقد تاريخه (2).

---

1) البقرة آية 247.

*) يشهد على هذا منصفي الحضارة الاسلامية اليوم من الغرب" كغوستاف لوجون الفرنسي" وزيغريد هونكة الالمانية" وويل ديوارنت الألماني.." وغيرهم

2) مالك بن نبي شروط النهضة ت عبدالصابور شاهين، دار الفكر، دمشق ط:4(1979ص129.

وهذا الكلام نجده من الناحية الفلسفية سارياً في مشكلتين عويصتين هما مشكلة الثقافة ومشكلة التاريخ، وبالتالي العلاقة بين الثقافة كمشكلة والتاريخ كمشكلة ، فنجد حدود العلاقة هذه كالتالي:

أولاً: من الناحية المنطقية فان الثقافة تصنع التاريخ والعكس صحيح: لكن اذا قلنا " لاثقافة " فهذا يستلزم أيضاً " لاتاريخ " ، واذا قلنا أيضاً لاتاريخ فهذا يعطي أيضاً لاثقافة وهذا معناه منطقياً أن أحد طرفي المعادلة مرهون بالطرف الثاني.

ثانيا : ومن الناحية الواقعية نلاحظ هذا في عدة مجتمعات ،كتلك التي تسمى اليوم بالمجتمعات " البدائية " : فنلاحظ على أنها تعيش " اللاثقافة " ، فكانت أيضاً بالتالي على هامش التاريخ فهي أيضاً في حالة " اللاتاريخ ". وكذلك أمر مجتمع الاسكيمو ذاك المجتمع الذي تحجر نتيجة أنه لم يكن في امكانه أن يرهن شروط ثقافية معينة ، وعليه فانه يمكن القول لاتاريخ لمجتمع الايسكيمو.

وهناك القصة قريبة من التاريخ الحديث، ان الغزوات التي قام بها الغرب الأوروبي لابادت الملايين من الهنود الحمر، ومن أجل بترها من ثقافتها . نلاحظ على أن سكان القارة الأمريكية والذين أبيدوا بطريقة اصطناعية من طرف الغرب أيضاً يمكن القول لاثقافة اليوم لهم أمام ثقافة "الديموقراطية" وثقافة " الاشتراكية " ، وثقافة " اللاثقافة الاسلامية "(يرى مالك بن نبي أن المجتمع الاسلامي اليوم يعيش "اللاثقافة ").

اذن من خلال هذا التحليل - الذي أردنا من الناحية المنطقية والناحية الواقعية - فان معنى الثقافة في التاريخ على علاقة متينة بتوفير ما يسميه مالك بن نبي " بعالم الاشخاص". لأن المجتمعات سواء منها تلك المتحجرة كشعوب الايسكيمو أو الشعوب " البيدائية " أو تلك المنقرضة كشعب الهنود الحمر

يمكن القول عنها أنها فقدت شروط بقائها ، عندما لم تتفق المؤهلات الثقافية على صعيد الفرد ؛ حتى يتسنى له أن ينتقل الى شخص صانع للتاريخ ، ونفس الشيء يقال عن المجتمع . وهكذا وجدنا حسب تحليلات علماء الاثنوغرافيا أن الشعوب " البدائية " تعيش على شكل قبائل وكأن مر علينا اليوم منها أكثر من ألف سنة في عاداتها وتقاليدها و... في ثقافتها .

وكذا يلاحظ مالك بن نبي أن المجتمع الاسلامي منذ سقوط غرناطة الى القرن التاسع عشر لم يخط ولا خطوة في تاريخه ، فلم تكن نجد موعثرين في التاريخ أمثال الفارابي والرازي والخوارزمي و... حتى وكأن تلك الفترة من التاريخ تعتبر فترة " لاوجود " لها في تاريخ المجتمع الاسلامي من الناحية الحضارية . والسبب يعود الى كون الحضارة الاسلامية توقفت عند آخر شمعة وقدت في عصر مابعد الموحدين والمتمثلة بشخص ابن خلدون، فلم تعد المبررات الثقافية ممكنة لذات المجتمع من أن يكمل مسيرته عبر التاريخ . لانه فقد أكبر خاصية لافراده والتي هي بناء العلاقات الاجتماعية وبالتالي يمكن القول بأنه بتر عالم أشخاصه .

وحسب مايلاحظ مالك بن نبي فان الغرب المعبر عنه اليوم " بأفول الغرب" أيضا هو الاخر سائر الى مصير اللاثقافة". اذ أن الوجودية في فلسفتها رمت الى محاولة ملأ فراغ يعيشه الغرب من الناحية الثقافية وهكذا نجد أن أشخاص حركة " الهيبيجر" " ... " أحسن معبرين من ذاك الفراغ وأشخاص " جون ترافولتا "و...".

لكن يرشدنا مالك بن نبي الى أن الثقافة بما تتضمنه من فكرة دينية .. هذا هو معنى الثقافة في التاريخ.(1).

---

1) المصدر السابق نفسه .ص129.

هذا هو مفهوم " عالم الاشخاص" حسب التعبير الفلسفي والديني. أما من وجهة نظر علم النفس وكما أقررنا سابقا فان" الطبيعة تأتي بالفرد في حالة "بيداغوجية" ان ثم يتولى المجتمع تشكيله ليكفه لاهدافه الخاصة وهو المعنى الذي يقصد اليه رسول الله (ص) في قوله :" كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "(1) وليس هذا وحسب. بل اذا أردنا أكثر من الجانب السيكولوجي الاجتماعي ، نستطيع أن نقول مع مالك بن نبي "أن الفرد والمجتمع - في الطريق العادية يعملان في نفس الاتجاه ، فان هناك تبادلا بين الانعكاس الفردي والعلاقة الاجتماعية .وبفضل هذا التبادل ينبغي أن نتوقع تدخل الواقع الديني في هذا الجانب الجديد من المسألة"(2).

ومن خلال هاتين الفكرتين يتضح لنا :

أولا: أن الانسان مع ولادته (الطبيعية) فانه لا يؤهله عامل الولادة الطبيعية، حتى لمجرد أن يسلك أي سلوك اجتماعي ، ولا حتى لأن يسلك سلوكا فرديا ، بل يمكنه أن يبكي عندما يجوع أو يعطش ، كما يمكنه أن يبكي أيضا عندما يصيبه أذى سواء كان هذا الأذى ألم داخلي بيولوجي في ذاته أو كان هذا الأذي من المجتمع المحيط به ، غير أنه هو في كل الظروف خاضع في صيحاته لدفعات بيولوجية بحتة .

ثانيا : والمجتمع الذي يتولى تشكيله يراعي فيه الجانب الذاتي - سواء شعر هذا الفرد بهذه المراعاة أم لم يشعر - بمعنى أنه ليس" القصر الاجتماعي" وحده هو الذي يفعل فعله في حياة الفرد لماذا؟ لأنه كما جاء في الحديث يولد على الفطرة" والفطرة هنا :أي الغرائز الخيرية في الذات الانسانية ، ويبقى الشيء الوحيد الذي يقوم به المجتمع هو أنه يكفل نمو هذه الغرائز وفق المحيط"الجو" الثقافي الاجتماعي الذي"يتنفس" فيه

---

1) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع ص60 ، نقل الحديث من نفس الصفحة .

2) المصدر نفسه ص61.

هذا الفرد. وبتعبير آخر نلاحظ في هذه الحالة فيه "موقف" عدة "أشخاص" هذا الفرد.

ويزيدنا مالك بن نبي توضيحا لهذه الفكرة الأولى عندما يتكلم في الفكرة الثانية على أن: الفرد والمجتمع يعملان في نفس الاتجاه: بمعنى أن الفرد يخضع تارة "للآلة" الاجتماعية - مع أنه، لاننسى أن المجتمع يخضع أيضا للفعل المؤثر للفرد، وكأنه بالتالي العلاقة بين الفرد والمجتمع علاقة تكاملية، المجتمع يتولى تشكيل الفرد، والفرد يساهم في خلق هذا التشكيل نفسه، فكما أنه في عالم البيولوجيا الخلية تساهم في نقل الطاقة المقوية للجسم منها الى خلايا أخرى جديدة تحيا من جديد، فان الجسم هو الذي يراعي هذا العمل التكاملي بين الخلايا، في حين فيه "المناعيات" التي تدافع عن الجسم وبالتالي عن الخلايا الجسمية من الميكروبات "القتالة"[1].

هذا المثال الذي أتينا به في عالم البيولوجيا يدعم فكرتنا عن عمل الفرد والمجتمع التكاملي، لكن مع ذلك لاتنسى أنه خلال التبادل بين العلاقة الفردية والاجتماعية فيه تدخل لقوى أخرى تساهم في تمتين العلاقات بين الفرد والمجتمع، هذه القوى هي تلك القوى الروحية "الدين" الذي يعمل بامداداته الاخلاقية على توثيق تلك الصلات بين الفرد والمجتمع والعكس صحيح: أي أنه في الحالة التي يخرج فيها الفرد عن آلة المجتمع فانه يقابل بالاستهجان من طرف هذا المجتمع. وهاك المثال من الواقع: ان المجرم له الشرف في أن يفوز في اجرامه لكن لايحصل له هذا الشرف عندما يقابل بالعتاب أو العقاب من طرف القوانين التي يسير عليها المجتمع: كأن يكون هذا المثال قصة الطيار الأمريكي الذي قتل مدينتي هيروشيما ونقازاكي اليابانيتين بعد الحرب العالمية الثانية

لاحظنا من خلال تحليل لتلك القصة من طرف أخصائيين في علم النفس في مجال الصحافة كيف أن ذاك الطيار بصدفعلته الشنيعة لم يكن في امكانه، أن يتباهى بفصل البطولة الذي قام به بل ركن الى دير لعله " يسكت عليه" النمير من . الحض الذي مسه ، ولعله بالتالي تسكت عليه الدنيا لكن هيهات ! ....." (*)

لقد ساقنا تحليلنا لعالم الاشخاص في السابق الى تحليل العملية المتبادلة بين الفرد والمجتمع في اطار العلاقات الاجتماعية ، وتدخل العامل الديني " الاخلاقي" كما دعمنا ذلك بمثال لاحظنا فيه مدى استجابة " الذات" الفردية "للذات" الاجتماعية في عمل كعمل قصة الطيار الأمريكي ، ولكن لكي ندعم فكرتنا بأمثلة من التاريخ الاسلامي يورد مالك بن نبي المثالين التاليين ليرى فيهما التالي: ان قصة تناحر أبو ذر الغفاري مع بلال - رضي الله عنهما - لاعطتنا مثال: على أنه كيف ومتى يكون الفرد والمجتمع يعملان في نفس الاتجاه، مع ذاك التدخل للجانب الديني في نفسية الافراد . اذ أنه لاحظ أن العفو الذي صدر من الجانب الاول على الجانب الثاني ليس سوى اعتراف بالخطأ ، هذا الاعتراف الذي أقرته البذرة الدينية في نفسية رجل كبلال رضي الله عنه، دليل على أن العلاقة بين الطرفين هي علاقة : أولا وقبل كل شيء اعتراف بالخطأ هذا الذي لم نر مثله في التاريخ قاطبة .

والمثال الثاني هو ذاك المتمثل في عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه - لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - من قيادة الجيش الاسلامي وتعيين مكانه، عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - فلم تكن تلك الاشارة من عمر على خالد بن الوليد

(*) مالك بن نبي، أحاديث في البناء الجديد، ت، عمر كامل سقاوي ،ط3 دار مكتبة الحياة صيدا ، لبنان (بدون تاريخ).

الا لتزيد هذا الأخير ايمانا بأنه لم يك يدافع في سبيل عمر، بل هو جندي من جنود الله : الشيء الذي ترك (خالد) ينضم في صفوف الجيش الاسلامي ويزيد فعالية في الدفاع عن الأراضي الاسلامية ويحقق النصر تلو النصر في الفتوحات الاسلامية ، وهذا العمل الذي قام به خالد يلاحظ عليه مالك بن نبي التالي:

- أن خالدا لم يكن يعمل لذلك ، الا لأنه كان يرى شخصه متحققا في الجنة لأنها من باب الجهاد. فـ ولم تكن هذه الصورة سوى محققة لآية :" "ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص"(1).

ولو تصورنا هاتين الصورتين في التاريخ الحديث ، فلم تكن نعثر على أحدهما في أي كانت من الدول ، حتى تلك العظمى، فكثيرا ماسمعنا عن عزل قائد كبير لدولة من هذه الدول فيلاحظ على أنه يتمرد على وضع البلاد ويصبح لاجئا سياسيا مناهضا لدولته وقوانينها هذا ماحدث أخيرا في ايران "الاسلامية" مع قصة عزل الخميني للرئيس الأول السيد بني صدر، أو وزير خارجية ايران آنذاك اذ لاحظنا كيف أن كلا السيدين أصبحا من أكبر أعداء الجمهورية الايرانية الاسلامية .

وحسب مالك بن نبي فان التحول الذي يطرأ على مجموع العلاقات الاجتماعية لايتم سوى عن طريق التربية ويتم حسب ثقافة مجتمع . تلك الثقافة التي تراعي عناصرها أحسن رعاية في عملية التغيير : أعني حين يكون الأمر في صورة تحقق في نفسية الفرد للقانون الاخلاقي وتوجيهه . وحين يكون في صورة تبني للمنطق الجمالي، والمثابرة على المنطق العملي، أو "الصناعة" بتعبير ابن خلدون وايجاد " الذوق" المؤلف لكل هذه التوجيهات.

---

1) الصف آية 4.

ان هذا التحليل الذي يورده مالك بن نبي" لعالم الاشخاص" ، يقرر بأنه، لايمكن تصور عمل تاريخي ، وبالتالي صناعة التاريخ، إلا اذا كان هناك اشتراك " لعالم الأفكار "و"لعالم الاشياء" وسنتناول تحليلا مافيه تدرالكفاية لعالم الافكار بعدأن بينا عمل عالم الاشخاص" والاسس التي يقوم عليها هذا العالم .

الفصل الثاني

عالم الأفكار

عالـــــــم الأفكـــــار

يمكن اليوم للانسان أن يؤثر في المجتمع بثلاثة أشياء: يمكن له أن يؤثر فيه . بالعمل الدؤوب الذي يقوم به خلال نشاطه الاجتماعي في اليوم كما يمكن أن يؤثر في هذا المجتمع بما يملكه ويحوله من مجرد " ثروة " الى مال موظف " رأس مال " في الواقع الاقتصادي له وبالتالي للمجتمع وللدولة . ثم انه يمكن للانسان أن يؤثر في المجتمع ... بفكرة يملكها عن تصور للحياة وللمجتمع وللكون وهي التي تهمنا في بحثنا هذا . والملاحظة العابرة ترينا أن الأبطال والعلماء أثروا ولازالوا يؤثرون في التاريخ فيصدرون تارة بناء مجتمع وبالتالي يصوغون ويبنون تاريخا بغض وجهتهم اذ فبفضل الفكرة استطاع الانسان أن يمر في طريقه في التاريخ والفكرة معبر عنها تصبح " كلمة " والكلمة لمن روح القدس وكما جاء في الآية " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا "(1) .

بعد هذه المقدمة التي حتمها التحليل " لعالم الأفكار " ودوره في صناعة التاريخ نتطرق الآن الى تحليل هذا العالم كما تصوره مالك بن نبي .

يرى هذا الأخير أن علم الأجنة " E MBRIOLOGIE " يحدد المراحل الشكلية والتكوينية التي يمر بها الجنين بعد الشهر الرابع وهذه التسمية التي وقف منها الفكر القرآني موقفا مجازفا شأن كل فكرة دينية ـ ليس هناك أي سبب يدعوا الى انكارها أو تأييدها .

وفي هذه الحال وعلى " الصعيد التاريخي " فلا مانع من الاشارة الى أوجه التشابه بين بعض خصائص النمو العقلي عند الفرد وبين النمو النفسي الاجتماعي في المجتمع والذي يبدوا أنه يمر هو أيضا

---

1) الاســــراء آيــة 70.

بثلاث أعمار:

1- عمر الشيء:

2- عمر الشخص.

3- عمر الفكرة.(1)

هذه الخصائص الثلاث لا تتميز بعضها عن بعض بل يمكننا القول أنها تتسايرمعا. ان كلاً من الشيء والشخص والفكرة يتعاونان لصناعة تاريخ، وبالتالي صياغة مجتمع، كان هذا في كل تاريخ. اذ أنه لنشأة مجتمع لابد وأن نلاحظ مدى تدخل الاشياء والاشخاص والافكار لصناعة هذا المجتمع.

ولا يتميز المجتمع النامي بقلة الوسائل المادية "الأشياء" فحسب وانما يتميز بقصور في الأفكار يتجلى هذا القصور بصفة خاصة في طريقة استخدامه - بفعالية أو عدم فعالية - للوسائل المادية المتوفرة لديه مع عجزه عن ايجاد غيرها، كما يتميز بصفة خاصة في طريقة طرحه لمشاكله، أو عدم طرحها على الاطلاق عندما يتخلى عن أية رغبة عابرة تدعوه الى دراستها"(2)

نلاحظ الآن أن الوسيلة التي تُنقص من نشاط الافراد في صناعتهم للمجتمع وبالتالي لبنائهم التاريخ ليس بحسب عالم الاشياء لأن هذا يمكنه بكل سهولة أن يكون، واذا طبقنا هذه المقولة على التاريخ الحديث نجد مدى صحتها. فان اليابان بلد فقير من ناحية الثروات الطبيعية وهو البلد الذي يستورد النفط من الشرق الأوسط ومن بلدان غربية فهو لا يملك "الشيء" ولم يكن في امكانه أن يملكه لكن "التطور العقلي" المفرد الياباني

---

1) مالك بن نبي - مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، ت: محمد عبد العظيم علي، القاهرة 1970 ص39.

2) المصدر نفسه، ص40.

وبالتالي النمو الفكري عنده ، ساعده على أن يكون من أكبر البلدان تقدما اليوم في العالم ، ولنطرح هذه القضية على بلد آخر يملك كل الضرورات المادية كالبلدان العربية خاصة النفطية منها ، فاننا نجدها لم تستطع أن تواكب ركب التحضر ، لا لشيء سوى لأن الفكرة عندها غير نامية وبالأحرى فان هناك تعطيل فكري أمامها نتيجة لأسباب لا نأتي الى دراستها الآن. اذا فأهمية الفكرة ضرورية لبناء أي مجتمع ما . ويأتي لنا مالك بن نبي بدليل على أهمية الفكرة في النهوض الحضاري من الواقع الزراعي: فبلد كالعراق وأندونيسيا حباها الله أخصب الأراضي في العالم نجد أنهما في آخر سلم التطور" لأن قصورا حقيقيا في الأفكار يظهر أثره في المجال السياسي والاقتصادي على شكل خمول"(1).

ويذكر مالك بن نبي أن "كل مجتمع تاريخي - معاصر أو مندثر يحتل مركزا محددا على محور يمثل جميع مراحل التطور... ويقسم التاريخ الى ثلاثة مراحل:

1) مرحلة المجتمع قبل التحضر.
2) مرحلة المجتمع المتحضر.
3) مرحلة المجتمع بعد التحضر"(2)

هذه المراحل الثلاث - (التي يختلف عنها بعض المؤرخين حتى يتركوها عمدا مجالا للصراع الفكري-)، الا أنها على مرور الزمن يمكننا أن نضعها في تاريخ الحضارة الاسلامية . اذ يمكننا ملاحظة الأشياء التالية :

---

1) المصدر السابق بنفسه ص41.

2) المصدر نفسه ص 41.

أولا: مجتمع ماقبل التحضر وهو الممثل تيهابالمجتمع القبلي الجاهلي كان فيه عالم الاشخاص متكا . فالعلاقات الاجتماعية في توترها بين أفراد المجتمع لاتزيد الا دفاعا عن أفراد القبيلة . كما أمتازت في عالم أفكارها بتلك " النرجسية " وذاك التباهي بالأمجاد نلمس هذا في ماتركه العرب من معلقات شعرية . ولم تكن هناك فكرة يملكها الفرد الجاهلي، لأن المجتمع القبلي الذي كان يعايشه هذا الفرد لاتتحكم فيه عقيدة ، وكل مايمكن أن يقال ، أن ذاك المجتمع كان شبيها بذاك الطفل الذي يتغنى مبتهجا بضوء القمر ظانا أنه هو والقمر شيء واحد . أي أنه في مرحلة ماقبل " الاجتماعية " في عالم أفكاره ".

ولو تنزلنا قليلا أنى نعود الى تلك التشكيلة الاجتماعية التي تركها المجتمع الجاهلي (والتي كان الفضل لها كل الفضل في أن " أنارتها " الآية القرآنية التي صدرت عن غار حراء لوجدنا أن الدلفل أنتقل الى سن الحلم . اذ أصبح القمر يبدو له في هذه المرة أبعد من عينيه - مما كان يتصوره قبل المرحلة الاجتماعية . وبتعبير آخر كان عالم أفكار العالم الاسلامي ، بدأ في التكوين منذ تلك النفخة القرآنية التي مزقت العادات الفكرية للرجل الجاهلي ، كما شكلت ضمير الرجل كعمر رضي الله عنه الذي أمتنع عن السكر بعد أن كان سكيرا في الجاهلية . مما يعني أيضا أن الفكرة بدأت في ميلادها تحول الأشباح والأوثان لتتركها تتلاشى كي تحل محلها الفكرة : أي الحقيقة .

وهكذا ما أن حل العصر الذهبي للحضارة الاسلامية حتى غدا عالم أشياء العالم الاسلامي ناميا جدا في الوقت الذي كان المناخ الثقافي يتكون من رصيد من لا الأفكار " التي دفعت حضارة أوربا المسيحية الى الظهور (ونذكر أن حضارة أوربا المسيحية من ذاك العصر كانت تعيش جاهلية مافوقها جاهلية

يشهد على ذلك منكروها أنفسهم).

لكن أن يحل الصنم تختبيء الفكرة ، وهذه المرة غدا الصنم متمثلاً في " الصوفية "" والتدجيل " و " الاهتزاز بالذنب " مايمكننا تسمية " الصنم " الذي أصاب الحضارة الاسلامية في عالم أفكارها هو صنم " النرجسية " (وحتميا طبعا أن تكون هذه الحال قد أنتكس فيها العنصر الاخلاقي المؤلف " للاشخاص " و " الاشياء " و " الافكار ").

" ان التاريخ لاينسج بالاندفاع في دروب سبق السير فيها ، وانما يفتح دروبا جديدة . ولا يتحقق ذلك الا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الاخلاقي ، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات البناء في مجتمع يريد اعادة بناء نفسه "(1).

وفعلا كما يرى مالك بن نبي فان الافكار هي التي تساهم الى حد ما في صناعة التاريخ لكن الان يواجهنا سؤال هو أي الافكار التي تصنع التاريخ ؟ أهي كل " أرث فكري " أم هي كل " تقليد " أم هي كل " فكرة حية " ؟؟

الحقيقة كما يراها مالك بن نبي نوعان : من حيث القيمة فهي :

1) أفكار ميتة وأفكار قاتلة .

2) أفكار ذات فعالية صادقة .

ولنبدأ بتحليل للاول : لكي يوضح لنا مالك بن نبي الافكار الميتة من الافكار القاتلة وتأثيرها خاصة على العالم الاسلامي - يأتي بذلك الحوار الذي جرى بينه وبين الاستاذ الزيتوني التي تشدق في قضية مدح شوقي

---

1) المصدر السابق نفسه ص220 .

أمير الشعراء لباريس والذي رأى أن شوقي في تحيته التي " تتضمن هذا الأثر المخرب من الثقافة الغربية التي تسخر 90% من الصفوة المسلمة في خدمة الاستعمار وذلك بقليل أو كثير وعي منهم "(1). كان شوقي - في نظر هذا الزيتوني يمثل الصفوة المسلمة التي تخدم الاستعمار. ولهذا فان مالك بن نبي كان يرى في كلام الزيتوني هذا أنه حامل " الأفكار الميتة " التي نشأت عن وراثتنا الاجتماعية ومجاورة " لأفكار قاتلة " أستوردت من الغرب. وكلا من هذين المشهدين (أي رأي الزيتوني الممثل " بالأفكار الميتة " ومدح شوقي الممثل " بالأفكار القاتلة " -) كان يرى فيهما صورة حقيقية للمأساة الاستعمارية وهما :" القابلية للاستعمار " والاستعمار مترجمان على شكل ثقافة ، ويوضح مالك بن نبي رأيه في الفكرتين معا ، فيرى أن الأفكار الميتة التي ورثناها من عصر ما بعد التحضر هي أكثر قدرة على القتل من الأفكار الأخرى . وللاقتناع بذلك ما علينا الا أن نلقي نظرة على البيان التاريخي للأفكار التي قتلت مجتمع ما بعد التحضر والتي لا زالت تمثل ديون عصر نهضة المجتمع الاسلامي ، الذي يبدو أنه لم يتخلص منها بعد "(2).

ثم يضرب مالك مثالين:

الأول من التاريخ أي تاريخ ما بعد التحضر فيلاحظ أن في ما بعد التحضر أفكار ولدت تحت جوامع القيروان وبغداد والأزهر.... لكن مع الأسف فانها هي التي أوصلتنا الى هذا الوضع من التخلف لأنها طبعا حسب رأيه، لم تستعن بمناهج " باستور " " PASTEUR " الذي طبقها

---

1) المصدر السابق نفسه ص200.

2) المصدر نفسه ص202.

على "الفيروس" فلذلك فان " الفيروس" هذا سينسف العالم الاسلامي * .

والمثال الثاني هو المتجلي في الفكرة الميتة - المتجسدة في آية الله الكشاني ذاك الذي أطاع بحكومة " مصدق " - التي تمثل " فكرة قاتلة " في التاريخ الحديث . وللمزيد من التوضيح فان مالك يرى في هذه الظاهرة المركبة من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة - : " أن الفكرة الميتة التي تنادي وتجذب الفكرة القاتلة الى المجتمع "(1) . ثم يطرح الاستفسار التالي : " والواقع أنه لا يجوز أن نتساءل لماذا تنطوي الثقافة الغربية على عناصر قاتلة ، وانما يجب أن نسأل لماذا تقصد الصفوة المسلمة هذه العناصر بالذات وتأخذ منها ، وعلى هذا النحو تكون المشكلة مطروحة بطريقة سليمة ، فليس مضمون الثقافة الغربية هو الذي يحدد طريقة الاختيار " وانما ضمير عصرها بعد التحضر هو الذي يحدد طريقة الصفوة في الاختيار الارادي واللاارادي "(2)

والحقيقة أن رجل ما بعد التحضر هو الذي يعلي ... ـه الاختيار نتيجة لفساد الذوق الجمالي عنده ، ونتيجة " للتعفن " الذي مصاب به في نفسيته فانه يرى الاشياء والافكار في الحضارة الغربية : هي تلك الاشياء وتلك الافكار التي سادتها الحضارة وأصبحت أفكارا ميتة ولذلك فان الرجل من هذه البلاد لاحظنا ، أنه كلما خرج الى الحضارة الغربية فانه يعودها أنثى تموت وتتفسخ ، وليس العكس . طبعا كما قلنا أنه " المنظار " الذي يرى منه وجه الحقيقة .

كما أن الذي يرى أن كل شيء مستورد من الحضارة الغربية قاتل كذلك ... هذا لم تقتل الحضارة الغربية نفسها بل لازالت آلتها تمشي الى أجلها

---

* آية الله الكشاني ، رجل دين ايراني ، أطاح بحكومة " مصدق " في الخمسينات .

1) المصدر السابق نفسه ص 202 .

2) المصدر نفسه ، ص 202 .

المسمى. اذا فالحضارة الغربية لها أسس وقواعد متينة غير التي يراها رجل ما بعد التحضر عندنا فيها .

ولنا الأمثلة في أولئك الطلبة الذين يذهبون الى أين تتفسح الحضارة الغربية وتسوت كثيرة الأن رجلا " كمحمد اقبال" استطاع ومثلا وبفضل جهده المبذول أن يهضم عناصر الثقافة الغربية ثم يحولها الى عملية بناء جديدة في بيئته ، تجلى ذلك في محاولته " تجديد التفكير الديني في الاسلام" ولتأكيد الفكرة السالفة ، يقوم مالك بن نبي بمقارنة بين العالم الاسلامي في نهضة والنهضة التي أقامها اليابان. ، فيجد أنه بالرغم من أن الانطلاقة كانت تقريبا من نفس النقطة على محور الزمن ، الا أن اليابان قد تتلمذ" على الغرب مع أنه احتفظ بروح " الساموراية " التي لازالت باقية في أتعس وأمجد حادثة في تاريخ الحرب العالمية الثانية . أما بالنسبة لعالمنا الاسلامي فانه بالرغم من طول هذه المدة الا أننا لازلنا نرزح تحت وطأة التخلف لسبب بسيط هو أننا اطلعنا على الثقافة " الحضارة" الغربية في صورتين صورة الرجل " السائح" وصورة " الطالب الجاد" واذا كان الأول يهتم بقمم وأوساخ الحضارة الغربية نتيجة لما ليها من اشعاع جذاب نادح على النفس ، فان الثاني راح أيضا يأخذ ما يسمى بالأفكار القاتلة .

فالمشكلة اذا ليست في طاحونة الحضارة الغربية مرجهة ، وليست أيضا في ذهنيتنا بقدر ما تتعلق بعلاقاتنا مع هذه الحضارة الغربية : "أن المشكلة التي تثار لا تتعلق بطبيعة الثقافة الغربية ذاتها وانما بالطبيعة الشاذة لعلاقاتنا بها ."(1)

---

1) المصدر السابق نفسه ص205.

اذا فنحن لا زلنا نعيش " ارهاصات " نهضة وليست نهضة . خاصة في جانب عالم أفكارنا . لأنه وكما هو معروف فان الفرد لا يؤثر في مجتمع لكي يصنع تاريخه الا بتحويله الى " مال موظف " عوض أن كان " ثروة " ، أو أفكارا يثيرها على المجتمع الذي يعايشه و... ". اذا فان الأفكار في نهضتنا كان من الضروري أن تكون بناءة وليست أفكارا هدامة .

ويعود بنا مالك بن نبي قليلا الى الفصل في الفكرة بين من هو صائب في فكرته أهو شوقي أمير الشعراء . أم الأستاذ الزيتوني فيرى فيهما مالك أن الأول (أي شوقي) كان يحمل أفكارا قاتلة أما الثاني فكان يحمل أفكارا ميتة وكلاهما شر ، غير أن الفصل القاطع في هذا الشجار الذي دار بين مالك والأستاذ الزيتوني حول قصيدة شوقي فعلها عامل جزائري بسيط حين قال بعد استماعه للمناقشة " أعتقد أن هذا الموضوع يشبه عملية التطعيم الزراعي حيث نرى الفرع الذي يضاف الى الشجرة لا يأتي بثمار تشبه الشجرة التي ألحق بها ، وانما تأتي ثمار مثل ثمار الشجر الأم ".

وضمن هذا السياق يحدثنا مالك بن نبي عن نوعين من الأفكار والتي نسميها هنا : " الأفكار المخذولة " (كل من الأفكار الميتة والأفكار القاتلة : " أي الأفكار المخذولة ") يرى مالك بن نبي أنها تنتقم ، وحسب رأيه فان الأفكار الميتة تنتقم بتجميد التقدم ، وأما الأفكار القاتلة فانها تنتقم بتدمير التقدم .

ولنفصل هاتين النقطتين حتى نوضح أيضا أنها تؤثر في التاريخ لذا فالشعب يكون على هامش هذا التاريخ .

ويعرف مالك بن نبي الفكرة " الميتة " فيقول بأنها " فكرة خذلت أصولها وانحرفت عن نموذجها المثالي ولم يعد لها جذور في محيط ثقافتها الأصلي " (1).

ويعرف الفكرة " القاتلة " بأنها " فكرة فقدت شخصيتها وقيمتها الثقافية بعد أن فقدت جذورها التي ظلت في مكانها في عالمنا الثقافي الأصلي " (2)

وان في كل من الفكرة " الميتة " والفكرة " القاتلة " خيانة مما يجعل لمشكلتها جانبان اما أنها خسارة واما أنها سلبية .

ويستشهد بحكمة سقراط التي أنتهت الى هذا النوع من الأفكار حين تكلمت عن فكرة "[illegible]" أي قتلة الأفكار . والملاحظ أيضا أن الأفكار تنتقم بشراسة .

- الأفكار المخذولة طبعا - يؤكد هذا الكلام ما يكشف عنه مالك بن نبي في أن التاريخ الغابر كان هو التاريخ الذي حصل فيه هذا الشكل من الانتقال اذ أن " روما " كانت " شاخت " أي ماتت وهي على قيد الحياة حينما أستولى عليها " يوليوس قيصر " اذا فلم يكن هذا الأخير الا نتيجة للضعف الذي أصاب جمهورية روما اذا فان كثيرا من الأنظمة يصيبها الكيروتموت موتتها الطبيعية ، وحتى نحن كعالم اسلامي أيضا فان الفناء أصابنا من داخلنا وليس من خارجنا ، ونلاحظ أيضا أن نظام الشرق مثلا لم يكن لينتهي بمجرد ذلك العطف الذي أبداه رجال القرن التاسع عشر ، لأنه لو لم ينته لقضت عليه آلات القرن العشرين ، وهناك نظام الزواج لكن هذا النظام هو من النوع الذي لا يناسب

---

1) المصدر السابق نفسه ص209.

2) المصدر نفسه ص209.

ولايقتضي بل ممكن جداً نصفان بتحريفه وهو نفس التحريف الذي حاولت جماعة العيبيز " ... " أن تقوم به من أجل ردنظام الزواج وتعويضه بالفوضى بنظام الشذوذ الجنسي... ان محاولة كهذه لم تكن في الحقيقة سوى تعبير عن تلك الأزمة الثقافية التي عانتها الحضارة الغربية.

وكما قلنا سالفاً فان العالم الاسلامي أيضا اليوم يحمل نتائج انتقام الأفكار المخذولة والسبب يعود الى تاريخه البعيد الى تلك القصة التي حدثت بين علي رضي الله عنه ومعاوية وعبر عنها رجل مبرراً موقفه بحجة غريبة فقال: "ان صلاتي خلف علي أقوم لديني ولكن طعامي عند معاوية أقوم لمعدتي"[1] ففي هذا الكلام يتبين أن أفول روح الديموقراطية التي قدمت نموذجا مثاليا: (مجتمع الانصار والمهاجرين) قد بدأ في هذه القصة غريبا بحيث نلمح أن من يريد أن يكون متدينا فما عليه الا أن يلحق بركب علي؛ ولمن يريد أن يكون على مقام كبير من الصحة عليه أن يتبع معاوية في حين أن الآية الكريمة تفصل الفصل القاطع في هذا الانفصال الموجود بين الدين والدنيا حينما تقول: " قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له ..."[2] اذا فان القضية تهم روح الديموقراطية قد بدأت مع تلك القصة التي ذكرناها آنفا وبعبارة أخرى فان الفكرة " الميتة " التي صدرت آنذاك لم تكن سوى لتتصل الأجيال التالية لها نتائجها. وهكذا أوصلتنا تلك الفكرة - لما انتقمت - الى عصر ما بعد التحضر هذا نموذج واحد فقط من تاريخنا الاسلامي، ونفس الفكرة المخذولة وجدناها عند " أبي العباس" حين كان يقول" للحسين بن علي"

---

1) المصدر السابق نفسه، ص212.

2) الانعام آية (161-162).

حين كان هذا الاخير ذاهبا الى أهل الكوفة بجزيه عنهم "ان هؤلاء القوم سيخذلوك كما خذلوا أباك من قبل ، لاتصدقهم ، ان قلوبهم معك ، لكن سيوفهم مع يزيد".[1] وهذه القصة الثانية أيضا نراها تضع أمر المسلم بين خيارين، لاثالث لهما بين، أن يكون اما مع قلب "الحسين" وأهل الكوفة موحدا. (وهذا ان اتبع يزيد). أو بين أن يكونوا شاهرين سيفهم عليه ، وهي في كلتا الحالتين ، نلاحظ أيضا دور الأفكار المخذولة فيها ، فلماذا؟ اما هذا أو هذا بالرغم من أن القرآن كما مرت معنا الآية لايقول لا بهذا ولا بذاك بل شيء آخر ، ان هذا الأمر في الحقيقة له أثره أيضا على الصعيد النفسي اذ يجعل الفرد قليل الفعالية في العمل المشترك من أجل ربح السيرورة التاريخية .أو يجعله عديم الفعالية أي لاينتج شيئا ، كما أن له أثره أخلاقيا ، اذ نجد المسلم خاشعا أمام المحراب ومصاب "بالزيغ" خارج المحراب وكأن ضميره ملطخ . وماديا كذلك فان الثمار المادية التي يقطفها ليست لها قوة عالم اقتصادي خاضع للتخطيط أو ان كان خاضعا للتخطيط فهو غير مكمل التخطيط أي أن أي خطة اقتصادية يضعها لنفسه تكون فاشلة[2] اذا كانت موجودة.

ولا يفوتنا أن نشير أن المجتمع الاسلامي وكل مجتمع أذا أصابته عدوى الأفكار المخذولة - والتي كما قلنا أنها تنتقم سواء طال الأمر أم قصر - فانه يحملها من جيل الى جيل سواء شعر أم لم يشعر ، يحملها كتراث ثقافي" كما حمل الينا نحن رجل ما بعد الموحدين أفكاره وصوره والذي لازال يمشي معنا اليوم في شكله ومضمونه . وكأن توريث الأفكار المخذولة

---

1) المصدر السابق نفسه ص213. يورد الرواية مالك بن نبي من تعليق المرحوم محب الدين الخطيب في شرحه لكتاب العواصم من القواصم ، للقاضي ابن العربي.

2) من محاضرة ألقاها الدكتور عبد الله شريط علينا بالجامعة

سواء "الميتة" منها أو القاتلة" مرهون عند كل جيل في "أرشيف" ذاك الجيل لذلك لاحظنا هذا المجتمع الاسلامي مغلوبا على أمره، اذ أنه اما أن تنتقم منه الافكار" القاتلة" التي دفنتها الحضارة الغربية في التاريخ فيلجأ الى تقليدها فتنتقم منه لانها أصبحت " قاتلة" . واما أن يلجأ في أفكاره أيضا الى تقاليد العادات الفكرية " الميتة" من أصالته، فأيضا تجدها تنتقم منه . لان هذا الاخير تكبله في الجمود لافي التقدم وأما الاولى فانها تعمل كما قلنا على تدمير التقدم فيه .

اذا تتبعنا تحليلا جد عميقا يورده أستاذنا مالك بن نبي حول "الافكار المخذولة" . وأوردناها هنا لانه أيضا كما قلنا لها دور في التاريخ، وكما حللنا تاريخنا الاسلامي وتاريخ جمهورية روما أني دهمها الانحطاط ،وكما يقول مالك بن نبي :" ان التاريخ لايصنع بالاندفاع في دروب سبق السير فيها وانما يفتح دروبا جديدة ، ولايتحقق ذلك الا بأفكار صادقة تتجاوب مع جميع المشاكل ذات الطابع الاخلاقي، وبأفكار فعالة لمواجهة مشكلات البناء في مجتمع يريد اعادة بناء نفسه".(1)

وتتبعنا أخيرا قضية الافكار المخذولة ودورها الضار السلبي، ليس وحسب في حاضر الشعب بل في تاريخه، على مدى محور الزمن ، واننا هنا نحاول أن نتتبع هذه المرة دور" الافكار الفعالة" والنافعة في التاريخ . لكي يتسنى لنا ذلك لابد من معرفة متى تكون الافكار صادقة أوصحيحة لان كل من صدق الفكرة وصحتها يوعلانها فقط لان تلعب دورها تاريخيا .

---

1) مالك بن نبي، مشكلة الافكار في العالم الاسلامي ص220.

أولا: ان كل فكرة صحيحة لانوءقر على الثالوث الاجتماعي: الاشخاص والافكار والاشياء فهي فكرة "ميتة" . فمثلا ان ابراهام لنكولن" الرئيس الامريكي في فترة من تاريخ أمريكا قال قولا معقولا جدا حول ما اذا حاولت أن تجعل من فكرة" ميتة "- أي لاتتجاوب مع الشعب ويتجاوب هو معها- جعلتها فكرة حية موءثرة فقال:" انه يمكنك أن تغرر بشعب يوما أو يومين ولكنك لاتستطيع أن تغرر به أبد الدهر" اذا عرفنا وأن الفكرة الحية تكون كذلك متى قوبلت من طرف الضمير الحي أيضا هو الآخر لشعب من الشعوب وفي هذا الكلام نلاحظ كلمتا " ضمير" وكلمة" حياة" وكأن الفكرة تحمل الطابعين طابع القيمة الخلقية وطابع الحياة البيولوجية :وفعلا فان حياة الافكار شبيهة بحياة الجنين في بطن أمه . أي نقصد من حيث الظروف الطبيعية التي تلائم حياة الجنين في بطن أمه، مع تطور مراحله المعروفة لكنهما يختلفان من حيث الغايات : ان الظروف الذي تولد فيه أ الفكرة تمهد، العناية الالهية ، حتى تجعل من تلك الفكرة فعالة في مجتمع ما كأن يكون ذاك الظرف هو نفسه، الذي حدث للفكرة القرآنية في المجتمع الجاهلي ، يقول مالك بن نبي :"ان برغم الحياة لايمثل سوى رمز تضعه العناية الالهية في أرضيته الصالحة "LE GERME DE VIE NIQU'UN SYMBOLE

OU MOUVMENT OU LA P R OVIDENCE LE DEPOSE OURSEM D' UNE MERE"

اذا ان كل فكرة تولد لابد: من جهة أن تكون هناك مراعات لمولدها سواء شعرنا نحن أم لم نشعر (والامثلة عديدة في هذا المضمار- ان الفكرة الماركسية ماكانت لتنمو مثلا، لولم يأت على أوزها ذاك التطور

---

1) أنظر في هذا: MALEKBEN NABI. les GRAND THEME , COPYRIGHT OMAR BEN AISSA 1976 ALGER P 38.

الثقافي والاقتصادي، اذأنظرف انتقال المجتمع الأوروبي من اقطاعي الى مجتمع رأسمالي هو الذي جعل من مفكر" ككارل ماركس" يقول: " ان البرجوازية تحمل بذور فنائها بيدها " هذا على الصعيد الثقافي ، أما أقتصاديا فان ماترتب من تطور في القرن الثامن عشر في أنجليترا ومن تحولات اجتماعية واخلاقية أيضا هو الآخر كان عاملا مهما في انتقال الفكرة الماركسية الى "لينين" كي يعمل على تطبيقها في روسيا البلشفية سنة 1917. ثم لاننسى أيضا عاملا آخر ألا وهو غياب المبررات الثقافية التي كانت للبرجوازية " العفنة " في أوربا وملأ الفراغ (الذي أوجدته " ثقافيا " الطبقة البرجوازية في أوروبا) باسم الاشتراكية ومبدأ السلام العالمي !. والعدالة الاجتماعية .

اذا هناك أقدار تتحكم في مصير الشعوب دون أن تدري هذه الشعوب وكذلك كان الحال عند ظهور الفكرة القرآنية : اذ أن التغيرات الاجتماعية أصبحت في المجتمع الجاهلي مهيأة الظرف الذي أوجد محمد (ص) بفكرته القرآنية . فعني تفاقم الوضع الاجتماعي الجاهلي من حيث تفشي بعض العادات السيئة وهدر الاخلاق والقانون الاجتماعي، وان تهيوء هذا الوضع ليس من أجل أن تثور طبقة العبيد متجلية في شخص بلال رضي الله عنه ـ على سيده وحسب ، بل هي تتعدى ذلك الى اعلان التحدي السافر لسادة قريش، بقول، أحد، أحد...."

اذن عرفنا منذ البداية أن الفكرة تحيا لما تساعدها ظروف خارجية عن نطاق الانسان عن شعوره .

ثم ان الفكرة اذا ولدت في "جو" تزاحم الثقافات وكأنها تكون أيضا مطاردة من أفكار مضادة وهو عين ماحدث للفكرة المسيحية لما نزلت في بيت " لحم " ووجدت تلك الصراعات الثقافية التي دارت رحاها في بلاد الشام

لأن الشام منذ القدم تاريخها حافل بالصراع الحضاري، غير أن عليها (أي الفكرة المسيحية) أن تولد ثانية ، واذا بها تعلن الهجرة من موضع مولدها الى الشعوب الأوربية فحتى الشعوب الجرمانية .

اذا عرفنا مالك بن نبي أن الفكرة يمكنها أن تولد مرتين، المرة الأولى حين تجد ظروفا يساعدها على زرع " بذرتها " والثانية حين تعلن الهجرة من مكان الى مكان، حتى تتم عملية البذر أيضا ولا تهمنا تفاصيل و لادة الفكرة لأننا سنأتي اليها في فصلها الخاص.لكن الذي يهمنا هو أن الفكرة تكون صحيحة بمقياس المنظور " الضميري للمجتمع " أي بمقياس من القيمة الخلقية أيضا ، وفي هذا المضمار يصور لنا مالك بن نبي قيمة الافكار وحياتها الرياضية كالتالي يقول: (1) أنها شبيهة أي الفكرة بما علمنا أياء مشايخ الفقه الاسلامي في باب الماء الطهور وكيف يكون صالحا للوضوء أو فاقدا صلاحيته للوضوء . اذ أن الماء الطهور حسب القاعدة الفقهية يفقد صلاحيته للوضوء في حالة ما اذا أضفنا اليه حدا ايجابيا كعطور أو رائحة زكية أو غيرها ، كما يفقد هذه الصلاحية للوضوء أيضا اذا أضفنا اليه - طبعا - حدا سلبيا كأن يكون نجاسة أو ما شابه ذلك. فان الماء الطهور في كلتا الحالتين يفقد صلاحيته للوضوء. وكذلك حياة الأفكار، ان الفكرة اذا أردناها أن لا تموت فما علينا الا أن نتركها تأخذ مجالها ، وفقط علينا أن نخصب لها الارضية ، وفي هذه الحال لا نضيف اليها قيمة أخلاقية فوق التي تستحق والا كان عمل باب " الغرور " يقف حاجزا مانعا بينها وبين ملتقيها من الناس، وفي هذه الحال نكون قد أضفنا اليها حدا ايجابيا ، ولنا المثال التالي: فاذا أردنا أن نغرس فكرة الديموقراطية في الشعب فلا فائدة من أن نضيف اليها فكرة المسؤولية كأن تصبح

---

1) مالك بن نبي، - الصراع الفكري في البلاد المستعمرة - ت :عبد الصابور شاهين، اصدار ندوة مالك بن نبي 1982 ص 121.

الفكـــرة : الديموقراطيـــة المسوءوليـــة ، كذلـــك اذا ع أردنـــا بـــث فكـــرة الاسلام في الجـزائر فلاداعـــي من كثـار المـــدح على التاريـــخ الاســلامي حتى نتصـــور وأن الكلمـــة تحولـــت من كلمـــة حاملـــة لفكـــرة فعالـــة الى فكـــرة قصيـــدة رثـــاء للتـــاريـــخ ! .

هـذا من جـانـب قيمـة الحـدالايجـابـي المضـاف الى الفكـرة حللنـاهـا وأوردنـالـه مثاليـن،أمامن جـانـب أن الفكـرة في حالـة ما اذاأضيـف اليهـا حـداسلبيـا ستفقـد فاعليتهـا الاجتماعيـة فاليـك التالـي:لنفـرض أننا أردنـا أن ننشـر فكـرة التعريـف" بالغزالـي" العالم الاسلامـي الكبيـر اليـوم أوغيرمـن العلمـاء ، فانـه يكفـي أن نستدعيـه للشـاشـة حتى يظهـر أمام الملأو يختـار لنـا محـاضـرة كأن تكـون حـول مواضـع الحضـارة الاسلاميـة ويكفـي بصـورة بسيطـة أن نقضـي - في ضمـير الشعـب ثقتـه بهـذا الأستـاذ- حينمـا نختـار رقصـه خليعـة لفرقـة من من فـرق الرقـص الغربيـة تحـت أنغـام الموسيقـى (كأن تكـون فرقـة جاكســون مايكـل" J ' maikhhel " تلي المحاضـرة مباشـــرة .

اذا عرفنـا من خلال تحليلنـا السـابق لقيمـة الفكـرة وحياتهـا الرياضيـة أنـه ونقـط فان الفكـرة تكـون صحيحـة في حالـة ما اذا كانـت صالحـة أيضـة أي أن قيمـة الفكـرة مشـروطـة أيضـا بمـدى صحتهـا الرياضيـة وفي هـذا المعنى يقـول مالـك بـن نبـي " قدتكـون فكـرة صحيحـة وليسـت صالحـة كمـا أنه قد تكـون فكرة صحيحـة وتفقـد صلاحيتهـا في الطريق"[1] . فالفكرة الماركسيـة كانـت صحيحـة في مجالهـا الجغرافـي مثـلا ، غيرأنهـا لم تكن صالحة في الشعـوب

---

1) مالك بن نبـي ،وجهة العـالم الاسلامي،ت ، عبدالصابـور شاهين اصدارندوة مالك بن نبي دار الفكـر دمشـق(1983) ص73.

المنتمية الى محسور نصف الكرة الجنوبي، كما أن الفكرة الاسلامية كانت صحيحة وصالحة غير أنه ولأسباب ما فقدت صلاحيتها في الطريق، أي ابتداء من الطريق الذي رسمته واقعة صفين سنة 37 هو أكثر عمقا ابتداء من عصر ما بعد الموحدين.

ثم ان الفكرة بما هي فكرة تكون فعالة بمقدار ما تكسب من صحة وقوة في التحدي عبر عن هذا المعنى ابن خلدون حين قال: " الحقيقة قوة لا يقاومها شيء والكذب - أي الكفر - هو أن يتوارى تحت ضغوط الانارة العقلية ".

يبقى علينا بعد هذا أن نبين كيف يمكن لفكرة ما أن تؤدي دورها في التاريخ وفي أي الظروف التاريخية السانحة لذلك:

الحقيقة كما يقول مالك بن نبي فان الفكرة تكون فعالة بمقدار ما تملك من فعالية EFFECACITE صاحبها، بمعنى أن الفكرة يمكنها أن تشق طريقها في التاريخ اذا كانت هذه الفكرة تحمل عوامل القوة الفاعلة، ولتكن مثلا كلمة " اقرأ " في غار حراء، فاننا نجد في هذه الحال كلمة "أقرأ" لم تكن لتعلن القراءة على الناس من أجل اكتساب العلم وحسب، بل من أجل غاية أخرى أهم من العلم ولا تنكر العلم أيضا. هذه الغاية هي أنه أن تقرأ من أجل اليقين بالحقيقة لأن الايمان بما لا يكون عن جهل، ثم أنه لتفعل تحت ظل هذا العامل في تعاملك وفي معاملتك لكل ما خلق الله في هذه الأرض أي أن تكون علاقتك بما يحيط بك علاقة أيضا ربانية سواء كان هذا الذي يحيط بك من عالم الانسان أو الحيوان أو النبات. اذا حسب تحليلنا

---

1) أخذنا هذه العبارة لابن خلدون من مجلة " ماذا أعرف عن الاسلام " الصادر بالفرنسية عن مسجد طلبة جامعة الجزائر عدد رقم 10 العام 1973 ص 50

هـذا فان الفكرة مرهونة بشرطها " الذاتي " من جهة وبشرطها " الموضوعي " من جهة أخرى . والا فان التاريخ حافل بأفكار لكنها وان كانت قوية فانها لم تكن لتنتج الحضارة ولا شيء ، ولانها ولدت امامي شكل أفكار " قاتلة " أو " أفكار " ميتة " تصادر معنا سابقا ، والشيء الثاني أننا نعثر في كثير من الاحيان على مقدمة ابن خلدون ونتساءل لمذا بقيت مقدمة ابن خلدون حروفا ميتة بالنسبة لرجل مابعد . هو أن هذا الاخير يحدثنا التاريخ أنه لم يكن يملك فقط مقدمة ابن خلدون ، بل كان يملك أينما مكتبات القيروان وبغداد وفاس لكنه كان وللاسف الرجل الذي فقد شروط حركته ، أعني أن القيمة التي كان بامكانها أن تحركه ، باتت ميتة في مجالها الثقافي فلم يتحرك " عقله " ولا بالتالي " يده " وحسب عبارة مالك بن نبي " .... والفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع وأنشط الحركات وأقوم التوجيهات ".(1).

وهكذا وجدنا محمد اقبال يتكلم عن ذاك " الجنين " بقوله في كتابه تجديد التفكير الديني في الاسلام : " ان أجدر ظاهرة بالملاحظة في التاريخ الحديث هي ذاك التحول الذي يتحول به الاسلام في جانبه الروحي نحو الغرب ".(2) فاقبال كان يقصد " بالجنين " الفكرة الاسلامية - والتي كما يقول مالك بن نبي عليها شيء من الضبابية - أي الفكرة التي لم تلد في عالمنا الحديث ، أو المعاصر بل لازالت سابتة في نومها وليست قائمة الا بمقدار ماناميت الرقعة الجغرافية التي تدعي أنها مسلمة ".(3).

---

1) مالك بن نبي - ميلاد مجتمع ص 30.

2) محمد اقبال ، تجديد التفكير الديني في الاسلام ت ، عباس محمود ط 2 لجنة التأليف والنشر - القاهرة - (1968) ص 7.

3) هذه العبارة لقب يوجهه كانذار المفكر الاسلامي الكبير سيد قطب في كتاب في ظلال القرآن وهو يرددها كثيرا .

والخلاصة ان التاريخ عند مالك بن نبي يبنيه النشاط المشترك لكل من " عالم الأشخاص " " وعالم الافكار "، " وعالم الاشياء ".

فعالم الافكار هو العالم الذي يعد اللبنة الاساسية في سير الحركة التاريخية لاتحرك بدون فكرة ، وفكرة ميتة .

لأن التاريخ النظري يؤكد لنا أن الافكار الميتة والقاتلة كلاهما شر ، لايبنيان سير مستقبل الحركة التاريخية ، بعامل كامن فيهما هو عامل " الانتقام " أي أنها تنتقم أشد انتقام ، والامثلة على ذلك كثيرة من التاريخ نفسه ، ثم ان التاريخ يقوم بالفكرة الفعالة والصادقة وكل فكرة لاتبقى كذلك تجر التاريخ نحو الهامشية او انها تؤخر مسيرته .

وعليه فكل فكرة تساهم في سير الحركة التاريخية يجب أن تكون صادقة وصالحة في الآن نفسه حتى تبقى فعالة في تاريخ شعب ما .

الفصل الثالث

عالم الأشياء

عالم الأشياء

ان عالم الاشياء لهو - كما جاء في تعريفه من طرف مالك بن نبي - كل مايحيط بالانسان من عوامل مادية وثقافية ، اذ أن الشيء في رأيه هو ذاك الكائن الذي يحتاج الى استعمالات عدة في جوانب عدة من مجالات حياة الانسان ، واذا قلنا أن الشيء بصفته المادية فنعني به الشيء كما أوجدته سواء الطبيعة ،أوكما أدخلت عليه بعض التعديلات من طرف الانسان ولتكن هذه التعديلات مقامة في الميادين التكنولوجية ، ونعني بالشيء أيضا حسب مالك بن نبي ذاك التراث الثقافي ، ذاك الرصيد من الافكار المرصوفة بعضها الى بعض ، ممايتنج عنه حسب مالك بن نبي في كثير من الاحيان الازمة الثقافية يقول عن عالمنا الذي يعاني من هذه الظاهرة " أي السيئة " في العالم الثقافي:" ان ثقافة نهضتنا لم تنتج لنا سوى حرفين منبثين في وسط هذا الشعب الامي ، ونحن مدينون بهذا النقص لرجل القلة الذي بتر فكرة النهضة فلم يرى في مشكلاتها سوى حاجاته ومطامعه دون أن يراعي لما في نفسه من عوامل الانحطاط..."(1).

واذا عرفنا وأن الشيء المكون لعالم "الأ شياء" - الذي هو عنصر ضروري أيضا لأن يقوم الانسان(بالاستعانة بعالم "الاشخاص" فيه وعالم " الافكار" بدوره المنوط به في التاريخ - ينقسم حسب تفسير مالك بن نبي الى قسمين:

-عالم الاشياء الثقافي " وهومايسميه "بالشيئية" ، ونحدده هنا باعتباره له علاقة سلبية بالتاريخ وعالم "الاشياء المادي" وهو مايشكل العالم

---

1) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة .ص65.

الاقتصادي لحياة الفردوالجماعة . ولنبدأ أولا بتحديد مصطلح" الشيئية"

يعني مفهوم الشيئية حسب مالك بن نبي أي كل منتوج مادي أو ثقافي غيرفي نطاق تكديس المال في البنك أو في غيره . وهو حسب مالك بن نبي لايفيدصاحبه فيشيء ، لأن صاحب هذاالشيء أي" الثروة" لايفيد نفسه بهذا المال ولا غيره ، والمفروض أن يوظف هذه الثروة فيمشاريع تهمه، أو تعودعليه بالفائدة وعلى مجتمعه . وسنعودالى تفاصيل هذا المرض الذي يداهم الشعوب فيأفرادها ، فتبقى ثرية دونأن تكون لاها اقتصاد متطور ، كماهوالشأن بالنسبة لبعض البلدان العربية اليوم.

وأماالشيئية بمعنى الحرفية في الثقافة :أ و هي التي تولدالحرفية في المجالالثقافي فهي ناتجة عن نوعين من التعليم ، فاما أن يكون التعليم موجها لتكوين الخبرات العقلية ورصفها في هذه الحال فوق بعضها البعض اذأنالانسان المتعلمفي هذه المرة يكون مكتبه متنقلة لكن مكتبة : بما خزن من معلومات وأفكار في جلمته العصبية فقطباعتبارها وعاء لملا الخبرات لاأكثر ولاأقل ، وهو شبيه أيضابذلك الشريطالمسجلعلى " كاسيت" ، مما يعنيأيضاأن هذا الانسان يصبح لايعمل شيئا سوىأنه يعيد ما أمتلأ به منأفكارلتفريغها تفريغا آليا ، وليكن هذاالعامل استاذابالجامعة ، أوسهندسا أوطبيبا أوغيره، فان العامل المشترك بين هوءلاءالذين داهمتهم الشيئية فيأفكارهم هوأنيصبحوا نواقيس ترن متى أردنا أننسمع رنينها ، ويعلق مالك بن نبي علىهذاالنوع من "المثقفين" بأنهم أصحاب التعالم".

كمايرى مالك بن نبي أن الحرفية فيالثقافة تنجم عنها أمراضخطيرة نفسياواجتماعيا يصعب معالجتها، وهذه الامراض هي:

فنفسيا نجد الانسان الحرفي في ثقافته مصاب أو متأصل فيه داء نفسي يسمى ذهان السهولة " PSYCOS D'EFACILITE " ، اذ يصبح صاحب "التعالم" هذا لا يستطيع أن يعمل شيئا ، وتراه طول اليوم يفتش عن "الشيء" السهل الذي يكتسب به قوته اليومي ، وليكن أستاذا جامعيا مثلا فانه يلجأ الى عمليات سطو على مواضيع ليست له في وضح النهار ينشرها بالجرائد لعله يأخذ مقابل عليها ، لكن هذا الداء الذي أستفحل خاصة عالمنا الاسلامي من مشرقه الى مغربه - كما قلنا - يصعب علينا محاربة هذا النوع من الثقافة الشيئية لا يعمل الا في الظلام أي أنه منبت في وسط شعبي أمي. وان مرض السهولة هذا المتفشي في صاحبه يلقي به أيضا الى أمتهان حرفة رجل " البوليتيكا" هذا اذا تمكنت أجهزة الرصد الشعبية من كشفه بدافع من أحد ضمائرها . وفي هذه الحال يكون قد فوت الفرصة أمام ضمير الشعب لأن يلقي القبض عليه من جهة ، ومن جهة ، أخرى فانه عندما يتسلل الى " كريسي" السياسة يصبح أكثر عالة على شعبه وأهم علة يحللها مالك بن نبي فيه . كأن يصبح المترادفات السياسية موتا بطيئا في "الكلمة" التي يلقيها على مسامع الشعب، فمثلا : " ألتقينا بفخامة المجاهد الأكبر الرئيس..."و"... كما عملنا على جلب بعض العروض الثقافية والاجنبية .. مع تشجيعنا للانتاج الثقافي الوطني.. لمواجهة الغزوي الفكري والثقافي !!".

اذا عرفنا مدى خطورة الحرفية في الثقافة من جانب ذاك " المتعالم الذي يشغل كرسيا ما كاطار سام أو كذا أو كذا...، بعبارة أخرى ذاك المتحصل على ديبلوم الشيئية ! . ونأتي الآن الى تحليل " المتعالم " الذي لا يملك ديبلوم وشهادة تؤهله لأن يقوم بعمل ما ،أنك تجد هذه الظاهرة متفشية بصورة أو بأخرى في رجل ما بعد الموحدين ، اذ أنه في هذه المرة يلجأ الى أن يستورد حتى

عالم أشياء ، . طبعا وليس عيبنا في ذلك كما يقول مالك بن نبي"....ولكن هناك جانبا آخر يتعلق بسلوك المجتمع نفسه، وموقفه أمام الشيء المستورد باعتباره منتوجا حضاريا بصفة مطلقة فلا بأس أن نستورد الطب والطبيب والمطبعة والأستاذ ومعلوماته والصيدلي وأدواته والمهندس وآلاته، مادمنا نحن لا ننتج هذا كله ، وانما على شرط ألا تكون عندنا بعض العادات الفكرية فتطلب ضمنا ودون أن نشعر منطق الاجتماع أن تكون عندنا بعض العقد النفسية فتربط اتجاهاتنا وواقعنا بالشيء والشيئية .

اننا اذا فهمنا جملة مثل هذه :" المنتوج لا يكون المنمتج بل المنتج هو الذي يكون المنتوج". فسوف لا نختلف في مضمونها لأنها صياغة عامة واضحة لا يختلف فيها اثنان وسوف نتفق لا شك على أن هذه القاعدة المنطقية صحيحة دوما . وعلينا فلنتخذها كمقياس عام في الموضوع.

اننا حين حللنا الصورة الشمسية التي أستخدمناها خلال حديثنا وجدنا في النهضة العربية بين السنوات(1868_1905)" عالم أشياء" جديدة لم يعرفه أباؤنا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر مثلا ووجدنا الأشياء نفسها في اليابان أستوردها كما أستوردناها نحن من الحضارة الغربية . ولكن كشف لنا التاريخ أن تلك الاشياء لم تؤد في نهضتنا الدور الذي أدته في نهضة اليابان ، فنستنتج من هذا أن الاشياء لا تؤدي مفعولها الاجتماعي تلقائيا ولا تؤثر وحدها في صياغة العملية الاجتماعية وانما تؤثر بقدر ما يضاف الى مفعولها من دوافع نفسية وتوجيهات فكرية معينة ، فالشعب الياباني كان يريد بالاشياء التي أستوردها خلال العهد الميجي وسائل يواجه بها بناء حضارة : والبناء لا يتم بالأشياء مهما كانت صلاحيتها وثمنها وانما يتم بالدوافع التي تحرك الاشياء : الفكرة التي تربطها في العملية الاجتماعية

وعندما لايكون في هذه العملية سواء الاشياء وحدها ، فالنتيجة تصبح في حكم الصدف لا في حكم التقدير ... وكأننا كنا نحاول بناء حضارة بمنتوجاتها[1]"

اذا عرفنا من خلال هذا التحليل العميق من طرف مالك بن نبي والذي يقارن فيه بين نهضتنا والنهضة اليابانية في جانب " الاشياء " التي توفرت لنا ولليابانيين غير أن الاشياء لم تؤت بمفعولها عندنا كما أتت به في النهضة اليابانية ، مما يعني أيضا ان عملية استراد الاشياء عملية وان كانت مثللة لاكن لا بد أيضا من حسن استعمال استراد الشيء . وعرفنا أن استراد الفرد أو الدولة للاشياء لا يضر الفرد أو الدولة من خلال التجميع بضاعة ما . بل ان عملية الاستراد تضر في حالة ما ان أسأنا علاقتنا الاسترادية بالشيء . وهناك الامثلة التي يوردها مالك عن استيراد الشيء المضر اذ أن السيدة التي تقطن الصحاري الحارة في بلادنا وتستورد لباس الفرو من أوربا لان لباس الفرو هو لباس للاخذ بالموضة ، لا يؤهلها هذا النوع من الاستراد الا الى أن تسقط في أحضان الشيئية ، كما أن استراد سيارة " الكادلاك " هي الاخرى لا تؤهل الفرد في مجتمعنا هو الاخر الا أن يتنعم بنعيم لبيس هو مسؤول لما يترتب عنه من مشاكل .

كنا قد عرفنا حسب تحليل مالك بن نبي أن الشيئية مرض عضال اذا تأصل في نفسية الفرد يجعله مصابا " ذهان السهولة " - ان ماينجم عن هذا أيضا اجتماعيا هو أن يصبح الفرد باعتباره العضو المشارك في بناء المجتمع وبالتالي في صنع التاريخ مصابا بمرض آخر اجتماعيا ، اذ يصبح يقدم حقوقه على واجباته ، مما يعني أيضا أنه يكون فردا ماديا متفانيا بالحقوق

---

1) مالك بن نبي ، أحاديث في البناء الجديد ، ص193 .

دون أن يقوم بأدنى الواجبات هذا ولقد علمتنا الحكمة المشهورة : "أن المحراث لايوضع أمام الثيران" اذأنه في هذه الحالة بينما تنعكس هذه الظاهرة المرضية ليس وحسب على الفرد بل على المجتمع ككل ، كأن يصبح هذا المجتمع يعيش على المعادلة المشهورة حق واجب استهلاك مما يجعل اقتصاد الوطن ككل ينهار تحت صيحات الاستهلاك دون انتاج ، وهذا الاحظنا كل المجتمعات التي مرت عبر التاريخ عندما تفقد انتاجها (سواء الثقافي منه أو المادي) فانها تنهار تحت عصا دولة أخرى، وهناك الأمثلة من التاريخ الحديث ، ان قمة انتاج مكنسة ذات عصا لدى شعوب ناظلت الى حد ما في التاريخ غير واردة البتة :فلم تكن الفكرة أي فكرة هذا النوع من الانتاج بالشيء الصعب اذ كان بامكان جداتنا أن تقوم بهذا النوع من الانتاج حتى تتخلص من آلام المكنسة القصيرة ، وهذا ان عزيناه الى شيء فانما نعزوه الى المصيبة التي تحل حين يطبق الانسان في حياته حكمة "تأكل القوت وننتظر الموت" وما أشبهنا من حكمة ، فهي تدل على عدم القيام بأي واجب مع استهلاك يومي: مما لاتستطيع أن توفر لكل فم لقمة عيش مقابل أن لاتقوم كل يد بالتحصيل على هذه اللقمة .

اذا الأمراض التي نجدها كثيرة ويصعب التغلب عليها حين نسقط في الشيئية ، أما انه يمكن لعالم الاشياء أن يلعب دوره اذا ما حقق ذاك التنافس مع عالم "الافكار" "والاشخاص" "في" حالة "ما اذا ربط هذا الكل قيمة خلقية يؤمن بها مجتمع ما .

ان "عالم الاشياء" كما قلنا لايقوم وحده بل يقوم على على العوالم الاخرى والتي تتحكم فيهم جميعا القوة الروحية أو ما يمكننا أن نسميه بالقيمة الخلقية ... فيمكننا أن نضمن شروط الديناميكا الاقتصادية اذ ما بطل أحدهما . وأضن أنه حسب مالك بن نبي فان شروط هذه الديناميكا

الاقتصادية تتحدد كالتالي:

1- لقمة العيش حق لكل فم .

2- العمل واجب على كل ساعد [1]

حيث أن هاتين المسلمتين تكونان صورتهما منطقية ، اذ قلنا ان لا انتاج من دون استهلاك ولا استهلاك من دون انتاج، والمسلمتين غير ممكنتي التحقيق اذا ما تصورناهما بعيدتين عن ذاك الكساد للطاقات الاجتماعية الذي يطلق عليه اليوم اسم "التخلف" [2] وان ضمان لقمة العيش لكل فم مرهون بالواقع السياسي في البلاد، ولقد واجه مالك بن نبي في نظرته هذه اعتراضات حين كان يقيم بمصر 1957 اذ أنه وحسب رأي الاعتراض: فان البلاد فقيرة ! ولن تستطيع أن تتكفل بلقمة العيش لكل فم . وكما يقول ردا على هذه الاعتراضات:" فالقضية ليست قضية قصور في الامكان بل قصور في التصرف والسياسة والتخطيط" [3] ويركز مالك بن نبي على أنه لابد كي نخرج الى اقتصاد مخطط أن نقوم "بالوثبة الى الامام" [4].

ان الارادة تكشف " الامكان" بمعنى أن الارادة الحضارية تصنع الامكان الحضاري اجتماعيا ، وقفسيا فانه محدد بالآية القرآنية :" ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" [5].

اذا فعالم أشيائنا بمكنه أن يستقيم اذا ما تتبعنا خطوات حذقة من أجل الوصول الى مرحلة الاقتصاد المخطط تلك الخطوة هي التي يعبر عنها القرآن في قضية المسغبة حين يقول:"فلا أقتحم العقبة ، ولما أدراك ما العقبة فك رقبة أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ..." [6] أي أن مرحلة اقتحام العقبة ضروري بل واجب من أجل التخلص

---

1) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ت عبد الصابور شاهين، اصدار ندوة مالك بن نبي، دار الفكر بيروت ، دمشق (1981) ص82.

2) المصدر السابق نفسه ص82.

3) المصدر السابق نفسه ص82.

4) المصدر نفسه ص84. -(5) الرعد آية 12. - (6) البلد آية (11، 12، 13، 14، 15، 16).

من مشاكل الفوضى الاجتماعية وبالتالي الاقتصادية .

ويلخص لنا مالك بن نبي ضرورة الوصول الى اقتصاد لا بالاقتصاد الرأسمالي وبالاقتصاد الاشتراكي ، اذا تمكنا من شروط الانطلاق والمتمثلة في

1ـ أن نجعل للمال دورا في اختزان العمل وأن نعمل استثمارا ماليا واستثمارا اجتماعيا .

2ـ لابد من تحقيق الديناميكا الاقتصادية على أساس مبدئي ، ولابد من وضع ك أساس اخـ[illegible]ـي لعمليتي الانتاج والتوزيع ، مع مراعاة المعادلة البيولجية والمعادلة الاجتماعية للفرد في التجارب الحديثة .

3ـ ضرورة الاكتفاء الذاتي والتطور من الاقتصاد الوطني الى اقتصاد جهوي لتحقيق الاكتفاء[1] بعد هذا التبيان لما يمكنه أن يخلصنا من الالشيئية" وأن يجعل لنا" عالم أشياء متطور" لنعمل نظرة خاطفة على مثل هذه الخطوات التي حققت خاصة في التاريخ الحديث.

يضرب لنا [illegible] ك بن نبي مثال: ألمانيا وكيف تمكنت من بناء نفسها في فترة وجيزة بعد الحرب الكونية الثانية ، وبعد كما هو معلوم ـ أن دمرتها الحرب، وخاصة في جانب اقتصادياتها :

فلاحظنا كيف أنها اعادت ما خسرته في الحرب والذي قدره الاقتصاديون آنذاك بحوالي 80% من اقتصاديات البلاد، والسبب في هذا التطور واضح" ان ألمانيا تخلصت من الشيئية بفضل ما كانت تملك من عالم أفكار .وكذلك الشأن بالنسبة لليابان معجزة القرن العشرين بعد أن كانت تعيش في العصر الميجي في تخلف كبير تمكنت بفضل :

أولا: أنها بنت عالم أفكارها على أساس واضح في علاقتها مع الغرب والحضارة الغربية .

وثانيا: تمكنت من ارساء قواعد اقتصادها ، حتى غدت اليوم تحتل.

الرتبة الأولى في الاقتصاد العالمي ، فتنافسه أمريكا وروسيا ودول أوربا الغربية على المرتبة الأولى .

نلاحظ أن هذا العالم أي "عالم الأشياء" ضروري مع العوامل السالفة الذكر لسير الحركة التاريخية وهو ذاك المجال الحيوي الذي يتم بواسطة التعامل مع الطبيعة أي هذاك استخدام وسائل بدائية أو والمهم في هذا هو توظيف قدرات الانسان للوسط الخارجي لأغراض لها علاقة بالمجتمع وبالتالي فان لها علاقة بالتاريخ أي تاريخ شعب ما هأعني تسخير المحيط من طرف الانسان من أجل تشييد حضارة ما والتي هي غاية التاريخ الذي يقيمه الانسان في هذه الأرض.

ويضرب لنا مالك بن نبي أمثلة عديدة عن "عالم الأشياء" الذي أصابه التكديس في الغرب . ذاك هو مايتكلم عنه المفكر الفرنسي "رجاء غارودي" في كتابه "كلام رجل" Parole d'homme اذ يرى أن "التضخم الذي أصاب الحضارة الغربية في عالم "أشيائها" لهو الممهد الكبير لزوال هذه الحضارة ونوجز كلامه في عبارة قصيرة يورد ها في هذا المقام حين يقول : " ان الغرب هو الصدمة ..." L'Occident est un accident .

وللانصاف فاننا نقول ان العالم اليوم يعاني في محوره واشنطن موسكو من عذاب التضخم " l'excès d'avoir " وفي محور طانجة جاكرتا فانه يعاني من آلام التكديس طبعا في عالم الأشياء : ان العالم الأول هعذاب التضخم أدى به الى أن يفقد مبرراته الثقافية مما لاحظنا وأنه في السويد مثلا أكبر دولة أوربية حققت ليس وحسب الضروريات بل الكماليات بمعنى أن الفرد فيها يسبح في بحبوحة النعيم نجدها تتصدر طليعة الدول في أهوال الانتحارات والادمان على المخدرات(1)

1)مالك بن نبي دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين ط صدارند وقما لك بن نبي دار الفكر بيروت دمشق (1982) ص25 .

ومن جهة أخرى فان آلام التكديس الذي أصاب محور دول الجنوب أدى بها هو الآخر الى شكل آخر من الانحسارات هو مايمكننا تسميته " بالانتحار الطبيعي " اذ أنه وفي الوقت الذي نجد فيه القصور الفخمة وجنات الحدائق و . . . " مفتوحة في الغرب من طرف الملوك والرؤساء العرب ، فاننا نجد الشعوب تموت من آلام الجفاف هناك في جنوب السودان وفي أثيوبيا و . . . " ان دل هذا على شيء فانما يدل على أن التكديس سواء في المال والذي يسميه مالك بن نبي " الثروة " أو في الأشياء الأخرى أدى الى هلاك شعوب تدعي أنها تعيش تحت " راية الاسلام " كما يقول سيد قطب .

اذا أن الغرب وان عانى من مشكلة التضخم في الانتاج فان الجنوب يعاني من نقص كبير في التغذية _ أبسط حق طبيعي _ والسبب يعود الى تكتل ، لتكديس في " عالم الأشياء " لدى بعض مجانين الدولار العربي !! ان مايصيب القارة الافريقية اليوم من مجاعة وتقرود يون و . . . " انما آثمة فيه الأمة العربية ، هذه الأمة التي حباها الله بالمال في أحلك أيام تاريخها ، لكنها تصرفه كذلك الطفل الصغير الذي تعجبه حبيبات الذهب فيلهو بها ، وقد نسمع كثيرا أن مايصيب القارة الافريقية ناتج عن ذاك الشكل من الاستعمار الذي أمده الغرب بعد الخمسينات في هذه القارة لكن كلا ان الدليل واضح والبينة على ماأدعي أو لم يقل الله " واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " (1) ، والقرية _ حسب تفسير سيد قطب _ مقصود بها الدولة ، ودولة الاسلام هي كل أرض وصلتها نفخة من نفخات الاسلام والقارة كلها من جنوبها الى شمالها ، فتحها الاسلام يوما ما في التاريخ .

---

1) سورة الاسراء آية 16 .

ولقد قال في المعنى هذا كله مالك بن نبي : " اننا حين نلعن الاستعمار فاننا نلعنه بدافع من شقيقته الشمطاء المتفشية فينا ألا وهي القابلية للاستعمار هذا الذي نراه شرحا وتفسيرا لآية " ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (1)

ان عالم الاشياء ضروري لكل بناء تاريخي ، ولكن لا يقوم وحده ، وضرورته تفيد فهمه أولا والتعامل به ثانيا .

ـ لمعالجة الامر يجب التحلي بحكمة الخطة الاقتصادية المنتظمة ولا طائل من اضاعة الوقت أمام " التوقيع " الاقتصادية كل خطة اقتصادية هي أولا وقبل كل شيء عليها أن تراعي المعادلة التالية .

1 ـ حق ـ واجب = استهلاك

2 حق + واجب = انتاج

3 حق ≠ واجب

وعلى كل خطة اقتصادية عليها أن تراعي أن المنتج لا ينتج المنتج بل المنتج هو الذي ينتج المنتج .

وعليه فانه بهذه الحقيقة وحدها يمكن لعالم الاشياء أن ينير سير الحركة التاريخية .

---

1) الرعد آية 12 .

لاحظنا وأن التاريخ حسب مالك بن نبي لا يقوم ليشكل حضارة الا في شكل عوامل ثلاث " لكن هذه العوالم الثلاث لا تعمل متفرقة ، بل تتواقق في عمل مشترك تأتي صورته طبقاً لنماذج ايديولوجية من " عالم الافكار " يتم تنفيذها بوسائل من عالم الاشياء " من أجل غاية يحددها " عالم الاشخاص " (1)

من هذا النص نفهم وأن العوالم الثلاث تربطها ببعضها البعض مجموع علاقات تلك التي نسميها بالعلاقات الاجتماعية ، والا فماذا يعني العمل المشترك للأفكار " والاشياء " " والاشخاص " ، اذا فالعلاقات الاجتماعية هي المنسق وهي المنشط وهي المسطر للعمل المشترك ، نحن قلنا العلاقات الاجتماعية هي المنسق بمعنى أنها تقوم بدور التآلف بين هذه العوالم الثلاثة فهي اذا التي تربط بين هذه العوالم من جهة ، ومن جهة أخرى فهي أيضا تحفزها لأن تقوم بالدور المنوط بها ، ولا يكون ذلك الا وفقد ماترسمه من قيمة أخلاقية يؤمن بها أفراد المجتمع ، هذه القيمة الأخلاقية تسنها بالدرجة الأولى " الايديولوجيا " (والتي سنتكلم عنها في باب خاص) .

وعند ما قلنا أن العلاقات الاجتماعية تقوم بدور التآلف فانها والحقيقة تقوم بهذا الدور بما تملكه من قيمة ، سواء كانت هذه القيمة خلقية أومادية أو جمالية وهذا يقتضي منا أن نحلل طبيعة العلاقات الاجتماعية حتى يتسنى لنا معرفة أي من القيم يمكنها أن تتحكم في العلاقات الاجتماعية أشد تحكم .

فاذا قلنا أن القيمة المادية " الجمالية " هي التي تتحكم في العلاقات الاجتماعية فاننا والحقيقة نحصل على عمل مادي مشترك بين العوالم الثلاثة ، لكن التاريخ يؤكد

---

1) مالك بن نبي ، ميلاد مجتمع ص 23 .

يؤكد لنا أن العلاقات الاجتماعية التي تتحكم في الاتحاد السوفياتي أو الصين هي علاقات مادية ، ولماذا لم تكن كتلك العلاقات التي تتحكم في قطيع السباع أو النمور الغابية . ان المجتمع هو مجتمع بما يملك في الحقيقة في علاقاته الاجتماعية من قيمة خلقية ولا لاحظنا أن المجتمع الغربي يكون قد تهاوى منذ زمان طبعا لولا القيمة الخلقية التي حافظ عليها طوال تاريخه (1) ولكان أجدر لنا أن نطلق عليه اسم " جمع " وليس مجتمع كما يقول القرآن في شأن التجمع الذي يكون بدون روابط : " سيهزم الجمع ويولون الدبر " القمر (2) .

اذا عرفنا وأن العلاقات الاجتماعية هي علاقات بما تحمل من قيمة سواء كانت هذه القيمة معنوية أو مادية ولاحظنا أن العلاقات الاجتماعية قد تعمل تحت وطأة " المادة " أقتصاديا . فماذا ترى نقول عن العلاقات الاجتماعية حين تعمل لدوافع معنوى أو من قيمة خلقية . الحقيقة أن التاريخ يحدثنا عن ذلك ، وسنورد أمثلة عديدة حتى نستنتج فيما بعد نتائج هذه الناحية .

الحقيقة ان كتب السيرة تحدثنا عن ذلك العمل الذي قام به الرسول (ص) والصحابة رضوان الله عليهم حين قاموا ببناء المسجد ، فلاحظنا أن النبي (ص) لم يكن يعنيه أن يجلس الى مكانه ويترك الصحابة يعملون بل كان يشاطرهم العمل ، في حين لاحظنا أن الصحابة أيضا كانوا يقومون بجهد بين حتى يقوموا ببناء المسجد ، ولم يكن ذلك الامر بدافع " الحاجة " ولا حتى بدافع " منفعة " بل مل مافي الامر حتى تتم الصلاة في المسجد والذي هو مسجد رسول الله آنذاك . ان عملا كهذا والذي هو عمل مشترك " للأفكار " والاشخاص " والاشياء " كانت تتحكم فيه مجموع العلاقات بين

---

1) يرى مالك بن نبي في أن محوروا شنطن موسكو أساس علاقاته الاجتماعية الضميرة المسيحية وحتى الكتلة الاشتراكية منه فانها لم تخرج عن هذا حتى أنه لم تكن الماركسية سوى ترجمة غير وافية للانجيل .
2) الجمع هو تجمع لافراد دون روابط والمجتمع مجموع افراد ترابطهم صلات اجتماعية والكلمة المأخوذة من آية سيهزم الجمع ويولون الدبر " القمر

ذاك الجيل الذي قام ببناء المسجد حتى كنا نلاحظ أن بلالا كان يحمل عوض لبنة واحدة في البناء فانه كان يحمل لبنتين ، وهذا العمل ما كان ليكون لولا أنه كان استجابة حية لقول الرسول (ص) : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" (1) ولقوله تعالى : " . . . يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص" (2) وفعلا تم بناء المسجد في ذاك التعاون بين الصحابة والرسول صلى الله عليه وسلم .

وهاك مثال آخر من التاريخ أيضا ان العمل الاول الذي قام به الرسول (ص) في المدينة المتمثل في المؤاخاة بين المهاجرين والانصار، وكان الرسول في عمله ذاك يعلن للبشرية أن أساس كل حضارة انما هو التأليف بين القلوب : ما يمكننا تسميته بتوثيق شبكة العلاقات الاجتماعية ، حتى لاحظنا أن ذاك الشكل من أشكال المؤاخاة لم يحدث في التاريخ لا الحديث ولا القديم . وتكررت صورة من صور هذه المؤاخاة ابان الثورة التحريرية الجزائرية : اذ أننا كنا نلاحظ مشاركة الشعب وتآلفه لرد عدوان الاستعمار ، نابع في كل بيت وفي كل دار جزائري بكل ما يملك الجزائري من " قوة مادية" وللاسف فان هذا التآلف ولي الادبار منذ أن تحررت البلاد والحقيقة كما يقول مالك بن نبي منذ ذاك المؤتمر لسنة 1964 الذي رفعت فيه " الكراسي " وأقيمت فيه " الزردات السياسية" .

واليك أمثلة أخرى يوردها مالك بن نبي في البلاد الحديثة " الثورة " كالاتحاد السوفياتي أو الصين الشعبية ، أن يلاحظ وأنه ابان الستاخنوفيه رفع الانتاج الى الضعفين في الاتحاد السوفياتي في فترة وجيزة من الزمن . وكذلك في الصين الشعبية وألمانيا ولكن كان ذلك العمل في حدود " سياسة الحديد و النار" التي قدمها نموذجا للسياسة الروسية للعملاق ستالين :

---

1) حديث شريف رواه البخاري

2) الصف آية 4 .

أما بخصوص الجانب الذي خص التاريخ الاسلامي فاننا لم نكن نلمح ولم تحدثنا كتب السيرة عند سياسة الحديد والنار لهذا يمكننا تسجيل الملاحظات التالية :

1) ان شبكة العلاقات الاجتماعية لاتعمل بشكل منظم في التاريخ المؤدي الى الانفجار .

2) ان شبكة العلاقات الاجتماعية تعمل بتوتر في التاريخ الفعال .

3) ان شبكة العلاقات الاجتماعية عند ماتكون حاوية " لبذرة " خلقية دينية فانها تتسم بالفعالية .

4) الفعالية في العلاقات الاجتماعية ينجم عنها العمل المضاعف .

الفصل الرابع

الايديولوجية : "المفهومية"

الايد يولوجيــة المفهوميــــة (1)

يمكننا تحديد المصطلح حسب مايدل عليه في كتابات مالك بن نبي : غيـــر أنه لابد من الرجوع قليلا الى أصل الكلمة ، حتى لا يختلط علينا الحابل بالنابل في تحديد المصطلحـــات .

ان كلمة ايد يولوجيــة (Idéologie) (2) في اللغة اللاتينية وحســب اشتقاقاتهـا الفرنسية تعني : نســق من الافكـار يكون مذهـب ، وتعني أيضا مجموعـة أفكـار لمذاهب حقيقيــة في عصرهـا ، لمجتمع أو لطبقـة اجتماعية ، كأن تكون الايد يولوجية البورجوازية أو الايد يولوجية ، وهي مذهـب معروف للمثالية الواقعية .

وان ظهور الكلمـة أتى على يد " كارل ماركس " واتباع المادية التاريخية أي ظهرت الكلمة فقط في القرن التاسع عشر الميلادي ولقد كان مايقابل كلمة ايد يولوجيا هي كلمـة عقيدة ، والفرق شائع بين الكلمـات : اذ أن كلمـة عقيدة تعني : مجموع الصلات أو الروابـط التي تربط فرد أو أمـة بديانـة سماوية ما أو مايشابههـا . اذا العقيدة اصطلاحا هـي ارتباط بوجهة كأن تكون العقيدة الاسلامية أو العقيدة المسيحية أو البوذية أو غيرهـــا في حين أن الايد يولوجية هي نسق من اللبنات الفكرية القائمة عند الانسان يهدف الــى رســم خطــة أو وجهــة فكـرة غائيـــة .

يحلل مالك بن نبي التكتلات الموجودة في العالم فيرى أن العالم اليوم تسيطـر عليـه ايد يولوجيتيـن لا ثالثة لهما ، هاتان الايد يولوجيتان هما : تلك الرقعـــة الجغرافية الملونـــة باللـون الأحمـر والتي يرمـز اليها بالايد يولوجية الشيوعيـــة وتلك الرقعـة الجغرافية الملونـة باللـون الازرق على الخريطة والتي ترمز الـــى الايد يولوجيـة الديموقراطية التي تشمـل العالم الرأسمالي فان العالم واقع بين فكـــي

---

1) حدد مصطلح الايد يولوجيا " بالمفهومية " في الترجمات الخاصة لمالك بن نبي
2) أنظر معجم : Le Robert

هذين الايديولوجيتين فاذا قلبنا الأمور على وجهها الصحيح نرى أن العالم ذا اللون الازرق هو الممثل بالديموقراطية وهو اللون الذي كان الى حد ما في التاريخ يرمز الى خريطة أوروبا والبلدان المستعمرة من طرف " الرجل الابيض " : وكأن هذا الرجل أنى مكث أعطى لونا في نطاق الجغرافية لنفسه ، حتى أننا لاحظنا مع مالك بن نبي كيف أن المستشرق المسيو " منوني " (1) يجعل للشعوب المستعمرة تقبل الراية الزرقاء ، راية الديموقراطية ! . حيث يصورلنا أن أبناء المستعمرات ذات سيكولوجية تتسم بالموقف الاستعماني (2)

وبالجملة وحسب مالك بن نبي فان محور واشنطن موسكو يحمل ايديولوجية واحدة تارة مختفية تحت اقتصاد " المنفعة " الذي أرساه آدم سميث وتارة أخرى تحت راية " الحاجة " التي أرساها كارل ماركس ولا فرق بين الشيوعي والرأسمالي أذ أن الاول كان يحمل من وراء فكرته ملأ بطنه لحما ، والثاني كان ينوي من وراء فكرته ملأ أكياسه ذهبا أما محور طانجة جاكرتا فانه المحور الذي يبدو افكرته " ضبابية " أي عليها الضباب فهو لا يمثل ايديولوجية قائمة بذاتها أمام التكتلات العالمية . لذا ولهذه الاسباب يحاول مالك بن نبي أن ينزع على رجل مابعد الموحدين هذه " الضبابية " هذا الهذي لازال بيننا بتلك الضبابية ، ويرتق به الى أن يواجه تلك التكتلات العالمية فيجعل ويحاول أن يرسم له مفهومية حتى يتسنى له أن يقاوم الايديولوجيات الاخرى . هذه المفهومية التي يعرفها مالك بن نبي كالتالي يقول : " فالمفهومية أو الايديولوجية هي النشيد الذي يقود عمل الشعب بأسره فهي الصوت الحيادي الذي يضبط

---

1) المسيو منوني مهتم بعلم النفس كان يدرسه مع الاستاذ كارل بلوندال عند ما شغل بعد غشقر كرسي الدراسات الفلسفية الذي استمر في تكوينه أنظر في مهب المعركة ص17 .

2) مالك بن نبي : في مهب المعركة ص19 .

ايقاع مجهود الأمة . . . كي تتظافر على انهاض مصيرها . . . فهذا النشيد لايمكن أن ينبعث الا من روح الشعب*، انها من تقاليده ، من تاريخه وعن ما يجعل عمله أونضاله مقدسا في ناظريه" (1)

وهو يعني بذلك أن المفهومية هي ذلك النسق من الأفكار الوظيفية من أجل القيام الجماعي للعمل المشترك في التاريخ وهو ما رمز اليه بكلمة النشيد ونلاحظ في كتابه شروط النهضة أنه يشيد بالامام العلامة ابن باديس رائد الاصلاح في الجزائر لما يصور عمل هذا الانسان في شكل رمزي فيجعله تحت عنوان " أنشودة ، رمزية" وبهذه الأنشودة فانه يبارك العمل الذي قامت به تحت عنوان " أنشودة رمزية " وبهذه الأنشودة فانه يبارك العمل الذي قامت به الجمعية* على الصعيد الايديولوجي ، ويبارك على أنه " بدأ أشعاع الفجر يناسب بين طلوع الشمس . . . فدبت في الأرض هينمة وحركة " (2) ونلاحظ حسب تعريفه هذا للمفهومية فانه يحددها على أنها هيّ" الكلمة" التي توحد صفوف الشعب وتجعله يقوم بالعمل الجماعي من أجل النهوض بالأمة ، وهي لاتوحد فقط صفوف الشعب ، بل أنها تؤلف ما بين القلوب حتى يتم ذلك التناغم بين " الأفكار " " والأشخاص " والأشياء " .

واضافة الى هذا كله فان الايديولوجية تجعل من القيمة الخلقية كعنصر آلفي في هذه العوالم عاملا محفزا للعلاقات الاجتماعية ، مما يظن الظان أن العلاقات الاجتماعية تعمل بتوتر في التاريخ ، ويزيد قصة الايديولوجية أكثر وضوحا حين يؤكد على أن أي معتقد لايمكنه أن يتكلم عن تاريخ شعب ما ، لم يكن نابعا هو الآخر من تاريخ

---

1) مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ، مكتبة النهضة الجزائرية (1964) ص178_181 .
*) أي مفطاة بجهالة من الضباب
*) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تأسست من طرف عبد الحميد بن باديس (1931)
2) مالك بن نبي شروط النهضة دار الفكر دمشق (1979) ص4 ، 5 .

هذا الشعب ،وهنا يورد مالك بن نبي قصة ذلك الثوري " فرانس فانون" الذي خدع به البعض حين كان يلوح للثورة الجزائرية) ظانين أنه يمثل الشعب الجزائري فيقول فيه : " لكي تتكلم لغة شعب لا بد أن تقاسمه معتقده" .

«Pour parler le langage d'un peuple, il faut lui partager ses convictions»

ويقول فيه أيضا : ان " فانون" لا يمكنه أن يمثل الشعب الجزائري لأنه لم يكن يشاطره الرأي وحسب ولم يكن يقاسمه تاريخه" (1)

اذا فلنه حسب مالك بن نبي فان " فانون" غير جدير بأن يقود أو يمثل ايديولجية الشعب الجزائري لأن عقيدة " فانون" والشعب الجزائري تختلف ،بحيث أن هذا الأخير يدين بعقيدة الاسلام بينما الآخر فانه يدين بغير الاسلام ،وهذا بالرغم من أن " فانون" كان يبدي تعاطفا مع القضية الجزائرية باعتبارها قضية انسانية . ."
وفي هذا المجال يمكننا استنتاج : أن الفصل في شخصية شخص ما فانه فصل بالدرجة الأولى في المعتقد الذي يؤمن به ،وليس في ما يبديه لنا هذا الشخص من حماس سياسي فياض.

اذا فالنشيد ـ أي نشيد ايديولوجية شعب ينطلق من روح الشعب ،ثم ان القضية الايديولوجية تهم تاريخ شعب ما ،لأن التاريخ هو الشاهد الوحيد على مصير الايديولوجيات ،وهاك المثال من التاريخ الاسلامي : ان ايديولوجية الشعب الجزائري لا يمكن أن تمثلها بطولات يوغورطة و ماسينيسا . لأن هؤلاء كانوا على عقيدة تعدد الآلهة ،وبالأحرى على عقيدة وثنية ،أما روح هذا الشعب

---

1) المصدر السابق نفسه ص78 .

الجزائري النابعة من عقيدته فانهـا تمكنت ولأول مرة في التاريخ أن تتوحد وأن تعلن أمام الملأ أنا لشعب شعب مسلم واحد في هذا القطر ، وماكان من هؤلاء الأبطال الأمازيـغ سوى أن يحل فيهم شخص طارق بن زياد وهو من جدلتهم ، اذا فـان " الجلدة " لاتوحد بل من الممكن أن تنفـر ، وأن التوحد على أساسها غير وارد البتة لا في التاريخ الحديـث ولا في التاريخ القديم ، وان " الغرب " قديما وحديثا ملـة واحدة ، وان الشرق ملة أخرى فلا يختلفـون هن الجرمان ولا الجرمان يختلفون عن البروس ولا . . . كما أنه لا الهنود الباكستانيين يختلفون عن العرب ولا العرب يختلفون عن البربر ولا . . . " .

اذا فان " العامل " الوحيد هو اما : " . . . ان أكرمكم عند الله أتقاكم . . " (1) أو اما : " ولاتعجبك أموالهـم ولا أولادهـم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحيـاة الدنيـا . . . " (2) ومن هذا المنطلـق فان الشيء الذي يجعل الايديولوجية لشعـب ما مقدسـة ، هو مايمكـن أن تتقدمه كنموذج يشهد عليـه التاريـخ بأنـه الأقدر ، وهكذا لاحظنـا الى حد ما في التاريـخ عدة شهادات ، فها هو الشخص عقبة بن نافع يأتي من جزيرة العرب فاتحا الشمـال الافريقي ليقف عند حدود الأطلسي قائلا : " والله يارب لو علمـت لك أرضا وراء هذا البحر لفتحتها " . ان هذا العمل لهذا الرجل في التاريخ لم يكـن سـوى من فعاليـة عقيديـة . هذا ان دل على شيء فانما يدل على أن التاريـخ شهـد لهذا الانسـان بهذا العمل في حياتـه وهو عمل يجنده من حذا حذو عقبـة بن نافع ، حتى لاحظنـا الى أي مدى كرم الشعب الجزائري مثلا في قرامهذا الرجـل

1) الحجرات آيـة 13 .
2) التـوبـة آيـة 59 .

فحسب تصرافاتي على الشعب الجزائي وجدت وأن فيه كثيرا من المداشر والقرى عند ما نتكلم اليها فانها تقول لك هذا الشيء أوذاك" كان منذ سيدنا عقبة" ،هذا في التاريخ المعاصر لكتابة هذه السطور ،وكأن ذاكرة هذا الشعب لم يخنها عصر الظلم الاستعماري في تذكر صلاتها التاريخية .

بعد هذا التعريف من مالك والذي أطلعنا على بعض تحاليله ودعمناها بأمثلة فان مالك يجمل للايديولوجية شروطا : وهي شروط لازمة لتجانس عمل الفرد وعمل الدولة في وحدة عضوية لاتنفصم أمام أهوال التاريخ ،ولأنه لايكفي أن تكون شروطا كأن يكون لدولة ميثاق وطني ثم تحديد قانون يقيها من" الانحراف المذهبي " وهذه الشروط التي يقدمها مالك تتجلى في التالي :

أولا : " الاجماع" : لأن الاجماع هو بالتالي المقياس الجوهري الذي يميز سياسة ناجعة" (1) غير أن هذا الاجماع لايكون مجديا هو الآخر الا اذا تجانس عمل الفرد مع الدولة والا فان العكس – أي التضارب الذي يقع بين الأفراد والدولة – يودي حتما الى أن يكون السياسة ديكتاتورية وهو مايحصل حاليا في بلدان العالم الثالث.

ثانيا : التعاون بين الدولة والفرد على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي والثقافي أن التعاون هذا في جميع هذه المجالات ،هو المحفز للسياسة المؤثرة في واقع الوطن واذا ماتصورنا أنه حدث العكس ،فان التشتت والتمزق هو الذي يأكل مصير الأمة وهذا مايحدث في بعض البلدان العربية بكل أسف " لبنان" : ممايعني معه أنه لاعمل سوى " عدم الانسجام وعدم التناغم ومعارضات طاعنة في فوضى شاملة

---

1) مالك بن نبي ،بين الرشاد والتيه ،ت: أعمر كامل مسقاوي ،دار الفكر (1976) ص71 .

يســـود هـــا شعـــار " عليك بخاصة نفسـك " ويضيف مالك بن نبي أن التجانس بيـــن الفرد والدولة في نطاق التعاون له شـــرط آخـــر هو أن هذا الأخير " يتحقق فـــي ضميـــر الفرد ويجعـــل هـــذا الضميـــر موضوعـــا من ناحيـــة ، وحكما من ناحية أخرى

ان وجود هذا المحكمـة " الضمير" "كشاهد " " وممثل" هو الذي يقـول قلتـه في نظـام الحكـم جيـــن يكون من قبيـل ما يعبر عنه " ابراهام لنكولن رئيس الولايات المتحدة ــ ان التغرير بفرد ممكـن دائمـا ، والتغرير بشعب ممكن بضعة أيـــــام الا أنــه غير ممكـن كل يـــوم " (1) .

هذه الواقعيـــة هي التي أملت على واحد كلينين في روسيـا أن يوقع على شعارتـه " السلـم للجندي ، والخبز للعامل ، والأرض للفـلاح " ولم يكن لقدم للشعب الروسي " رأس المال " كنظـريـة ، ولكنه ترجـم فحواهـا ، على صـورة هي في متناول الادراك الشعبـــــي .

ولكن هيهـات لتلك الشعارات أن تبقـى حين دقت ساعة الكلخوز ؟!

يقول مالك بن نبي في هذا المعنى " ان الإيديولوجيـة التي لا تتضمن ــ كأفكــار موجهـة ــ الا مصالـح عاجلـة ، فانهـا وان كانـت محترمـة ، سوف لا تفتـح الطريق لغيـــر سياسـة قصيـــر محدودة المدى على قدر الشعارات التي دفعتها " (2) .

ولهذا فاننا نفهـم أن التي قال عنهـا أنها تكون قصيرة المدى ، فانهــــــا سياسـة فاشلـة للسبب التالي : " فالايديولوجيـة تتطلـب اذا خمائر أخرى ، تضمن الوحدة الضروريـة بين عمـل الدولة وعمل الفرد لانجاز مهمات بعيدة ترتكز على الثقة والبطولـــة .

---

1) المصدر السابق نفســه ص 72 .

2) المصدر السابق نفســه ص 73 .

والبطولة .

والضمائر هذه هي للتي تعطي حسب جوهرها القيمة ــ الجلية أو الحقيرة ــ للسياسة أمام التاريخ .

وإذا ما تفحصنا هذا الجوهر وجدناه من عنصر اخلاقي وهو متصل بما وراء الطبيعة أي من العنصر النفسي " (1) .

ويقصد بن نبي من وراء "الضمائر" أي ذاك " الملاط " الذي يجعل عمل الدولة منسجما مع عمل الفرد ، وبتعبير آخر فانه العنصر الاخلاقي الذي يجعل الشقاق بين عمل الدولة وعمل الفرد مستحيلا ، ونجد بن نبي يبحث عن هذا العنصر الاخلاقي فيجده في الدين ، باعتبار أن الدين من أصل " الغيب " وهذا الذي كثيرا ما بين لنا التاريخ أنه " أي الدين " هو الذي يبدي تجاوبا مع النفس الانسانية ، مما ينفي كل فكرة وكل محاولة تجعل من هذا المبدأ عاجزا عن الخروج بالانسان الى البناء التاريخي ، وكما يقول مالك بن نبي " والتاريخ منذ عهد الفيران في روما ، الى شهداء بدر ، الى أبطال ستالين غراد ليس الا شرحا لهذه الحقيقة " (2) .

اذا فالايديولوجية هي الاخرى ، يتحكم فيها " المعامل " أي معامل فعالية هذا النسق من الافكار هذا " المعامل " هو الذي نسميه الدين وبعد تحليل وافي للمسيرة الايديولوجية التي اتسم بها عالم الغرب ضد ما سمي بعالم المستعمرات يستنتج مالك بن نبي أن الفضل ــ في أن الاستعمار ولي عن هذه الاخيرة الادبار ــ يعود الى الاسلام فيقول : " لقد كان الاسلام الحصن الذي فشلت تحت أسواره جميع المحاولات التي أستهدفت سلب الشعب الجزائري شخصيته على مدى قرن من الزمان كما كان الحافز الايديولوجي

---

1) المصدر السابق نفسه ص 73 .
2) المصدر نفسه ص 83 .

الرئيسي الذي دعم جهده البطولي خلال الثورة ، لكي نلخص هذه الكلمات لابد أن نقول ان علينا العودة الى الأصول والمنابع التي منها نبع تاريخنا"[1]

اذا يدعونا مالك بن نبي الى أن نشرب من منابع تاريخنا ، وكأنه يقول في أسلوب آخر" في التاريخ فكرة ومناهج " وبالتالي هناك تصور عند نسا ويسمح لي القارئ أن أعقب علي على مفهوم التصور هذا اذ وجدنا مفكرا اسلاميا كبيرا يضع من " خصائص التصور الاسلامي ومقوماته" الربانية ، الثبات ، الشمول ، التوازن ، الايجابية الواقعية ، التوحيد . . . " ولاحظنا على أن المفكر[2] بالرغم من أنه تمكن من حصر خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ، فانه لم يبين البناء المنطقي بصورة تصورية عقلية لهذه الخصائص بل صاغه بصورة عاطفية شعرية ، ولاعيب في المفكر لأن أختصاصه الأدب عالم الخيال ، وودت الاشارة الى هذا الأكد أن ماينقصنا هو الفكرة وليس الفعالية" فنجد في مرحلة ماقبل الاجتماعية التي يتكلم عليها علم النفس الطفل ، كما لاحظنا أيضا ماجرى من نقاش مثلا حول كتاب " نحو مجتمع اسلامي متحضر" الذي عدل عنه ب" نحو مجتمع اسلامي " لالشيء سوى لأنه وكما قال مالك بن نبي " فلقد استبعد المفكر المحترم اذا مشكلة العالم الاسلامي من بحثه حين أعتقد وحملنا على الاعتقاد بأن المجتمع الاسلامي هو على وجه التحديد " متمدن" وهكذا نراه وقد أنجز مرغما تحت تأثير " حالة الخلاص" الى موقف من المدح العقيم . . . ولو أنه وقف موقفا موضوعيا الى النهاية معتبرا أنه يوجد فعلا" مجتمع اسلامي " ولكنه موجود في حالة " بادرة حضارة" وان من الأوفق أن نواجه مشكلة حضارته" [3] .

---

1) المصدر السابق نفسه ص84

2) المفكر هو المرحوم الشهيد سيد قطب

3) مالك بن نبي فكرة الافريقية الاسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ت عمر كامل مسقاوي اصدار ندوة مالك بن نبي دار الفكر دمشق (1981) ص246 .

ثم ان نفس المركب هذا الذي وجد في نفسية هذا المفكر والذي أنطبع على عنوان كتابه هذا لاحظنا أيضا مدى مايمليه مركب " التعلق بالألفاظ " دون القيام بالفحص عن الحقيقة في عنوان كتاب آخر هو "تقويم الفكر الاسلامي " للكاتب غاني التوبة " (1) اذ تجد أن المؤلف ونتيجة لما ذكرنا فهو يقوم تقويما مبنيا على " التساوي اللفظي " اذ أن الفكر الاسلامي في نظار الكاتب يمثله واحد كطه حسين والعقاد الى جانب الافغاني ومالك بن نبي وحسن البنا وأن ألفاظ الاعلام هذه تتعاقب على لسان الكاتب دون محص لها وتدقيق فهل يمكن أن يكون طه حسين ممثلا للفكر الاسلامي !؟ أم حسن البنا أم مالك بن نبي أم ..؟ رواه الفكر الاسلامي المعاصر بأصحاب " الاسلاميات" هذا من جهة ،ومن جهة ثانية ،كم نكون نفتقر الى التقويم ونحن نقوم بهذا التقويم لا لشيء سوى لكي يقال لنا أننا ملكنا زمام قضاة الفكر الاسلامي المعاصر . وأخيرا يسمح لنا القارىء الكريم عن هذا " الخروج " عن المقصود من الايديولوجية الى تفهم الواقع الايديولوجي الذي نعيشه والواقع يبرهن على تطني في الكتب .."

اذا أن مشكلة الايديولوجية هي واقع مثلا سياسيا متجاوب اجتماعي في نطاق جوثقافي ولذلك فاننا نرى مالك بن نبي يخص عناوين كالتالي السياسة والايديولوجية الثقافة والايديولوجيا في كتابه بين الرشاد والتيه .

---

1) غاني التوبة " تقويم الفكر الاسلامي المعاصر" ط1 دار القلم بيروت (1976)

ويعبر مالك بن نبي بدقة أكثر عن المفهومية ، فيلاحظ أنها النشيد الذي يحشد طاقة الشعب - كما يحشد المكثف الشحنة الكهربائية - لا يمكنه أن يتشكل على سجل أجنبي حتى في مجرد التعبير الفني أو الموسيقي أو الادبي ان العملية تركيبية تتم داخل روح الشعب لكي يترجم فيما بعد ضمن فكر أنساني يكون جزءا من تلك الروح الجماعية[1] ، نفهم من هذا أن :

- ان الايديولوجيا هي التي تترجم نفسية مجتمع ما .
- الان الايديولوجيا هي المعدن الوحيد عن ظاهر وباطن مجتمع ما .
- ان الايديولوجيا هي عملية " شد " للافكار والاشخاص والاشياء "

وطبعا فان مفهومية المجتمع الغربي المعاصر نجدها في وجه كوجه تشرشل (الذي لقب بالثعلب الماكر ابان الحرب العالمية الثانية) . ونجدها في مجتمع المجتمع الاسلامي في فجره الاسلامي متجلية في آية : " سيماهم في وجوههم من أثر السجود . . . "[2]

وهاك الان نماذج من الصور الادبية والفنية لايديولوجية ما ، من التاريخ القديم والحديث خذ مثلا شعر تلك المرأة التي وهبت وجهها لله ألا وهي رابعة العدوية ، اذ نراها حتى في أحلك خياراتها فانها تختار جمال الله الذي لا ينقص حينما قالت له : " رب ان كنت أعبدك طمعا في جنتك فأحرمني منها وان كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقني لها وان كنت أعبدك من أجل جمالك الفياض فلا تحرمني منه يارب " هذا المشهد نتصور منه أن رابعة تجلت فيها أحسن الصور في " الصفاء النفسي " والا فما لغير " الصفاء " أن يحب الجمال وهي صورة أدبية تجلت على الصعيد

---

1) مالك بن نبي ، آفاق جزائرية ص182
2) سورة الفتح آية 29 .

الفردي ماكان لهأثهر طبعا الاجتماعي في بغداد إبان العصر الذهبي للحضارة الاسلامية وخذ لك نموذج آخر يمثل هذه المرة صورة هن الايديولوجية في مطلع أيامها في الحضارة الغربية لربما ألتقطنا هذه الصورة عن جان بول سارتر" حين ينظر الى " الأيادي " القذرة" وهي الصورة الأدبية التي توهمنا على أن الجمال والقذارة لا يتلاقيان في هذه الحياة من حيث القيمة

ويتساءل مالك بن نبي عن وظيفة الايديولوجيا على الصعيد النفسي والاجتماعي والسياسي فيلاحظ أنها ليست مجموعة أفكار شقيقة انما هي المسيّرة للطاقات والسهم الذي يعين للجماعة طريقها في التاريخ " (1).

وهكذا اذا يعمل مالك بن نبي عملية تقنية للأفكار الشتيتة باعتبارها نشيد " يرتفع في أعماق روح الشعب - وكما يقول بأنه - هو الذي سيزن وقع خطواتها على دروب التاريخ " (2).

---

(1) المصدر السابق نفسه ص225.
(2) المصدر السابق نفسه ص226.

الباب الرابع

التاريخ والحضارة

الفصل الأول : مفهوم الحضارة

الفصل الثاني : عناصر الحضارة

الفصل الثالث : مراحل الحضارة

الفصل الرابع : مقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية .

التاريخ والحضارة

الفصل الأول

مفهوم الحضارة

مفهـــــوم الحضـــــارة :

ان الوجـه الصحيح للتاريخ هـو أنـه تاريخ حضـــــاري (1).

فما هــي الحضـارة عنـد مالـك بن نبـــي ، وماهي مقوماتها ؟ أو عناصرها ، والى أيمدى وفـق مالك بن نبـــي في تلك المفاهيـم وتلك الأسـس التي وضعها من أجـل أن تقوم الحضـــــارة ؟

قبـل التطرق الى تعريـــف مالــك ، بودنا أن ننظـــر في ماوضعته المعاجـــم لهـــذه اللفظـــة:" حضـارة " اننا عندما ننظرفي معجـم لاروس نجـده يعرف كلمـــة حضارة مــن فعلها " [illegible] " : بمعنى أخـذ باليد الى تحقيق أكبـــــر تنميـة اقتصاديـة وثقافيـة (2) . ولقد وضـع لها معجـم العلوم الاجتماعية التعريـــف التالي : هي مجموع القواعـد والقوانين الماديـة منها والمعنويـة (الروحيـة) التـــي تقودعمـل الانسا ن الى شكـل أكثـــر تطورا عن حياته منذ فجـر الانسا ن :(أي عـــن حياتـه البدائيـة)وهو تعريف كما نلاحظ بين كلمـة حضارة وكلمة ثقافـة .

و لاتهمنا هذه التعاريف بقدر ما أتينا بها شاهدة على ما ألحق بهذه اللفظـة من تحريف (سواء في أوربا اليوم - وانعكس طبعا هذا التحريف على عالمنا الاسلامـــي اليوم أيضا)، حتى تجلت أكبـــر صورة معبرة عــن أن اللفظـة لحقها التحريف في ذلك الجدل الذي قام بيـن المفكريـن لضبط مفهوم الحضارة والمدنية حتى لمسنا أن مفكرا اسلاميا كبيرا كأبي الأعلى المودودي يخصص للفظتين جزءا كبيرا من وقتـه ،

---

(1) - وليس هو تاريخ الدولـة كما جاء ذلك عند ابن خلدون ، وهيجل ، أوهو التاريخ الاقليمـي الامني كما جاء في البيان الشيوعي ، لكارل ماركس .

(2) - انظرمعجـم (([illegible])).

ليدحض الخلاف الناجم في ذهنية الفكر الاسلامـــــي (1)

ولوتفحصنا اللفظـــة في القرآن الكريم لما وجدناها . ولربما و ردت في حديث يقال أنه مروي عن الرسول (ص) في قولـه " اخشو شنوا فان الحضارات لا تدوم (2).

ولو انتقلنا الى الفكر الاسلامي وعقلانية ابن خلدون لوجدناه يستخدم لفظة " حضر" و " حضارة " مقابل بدو وبداوة وهي لاتعني حسب رأيه سوى " دورية تاريخية " يمـــر بها مجتمع ما فـي التاريخ .

و لاننسى الخلاف الذي برز بين سيد قطب ومالك بن نبي حين وضع الاول كتابه تحت عنوان " نحـو مجتمع اسلامي متحضر" ، ثم عدلـه بأن نزع كلمـة متحضـــر ولاحظنا ذلك الرد من سيد قطب في كتابه " معالم في الطريق " وتلك الملاحظــــة التي أوردها مالك بن نبي حول الكتاب المعنى في كتابه " فكرة الافريقيـة الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونـغ " .

وانه لم يكـن يكفي ذلك الخلاف الذي جد في العصر الحديث بين فطاحلـــة الفكر الاسلامي لتذليل صعوبات هذه اللفظة . . مالك بن نبي جعل جميـــــع كتبـه تحت عنـوان . . . " سلسلة مشكلات الحضارة" وهو بالتالي أول انسان يتفطن الى ان مشكلـة العالم الاسلامي هـــي مشكلــــة حضارة أولا وقبل كل شيء) و لهذا السبب يقدم لنا الحضارة من خلال التعريفيـــن التالييـــن :

* أولا : تعريف يتبع فيه منهج التحليل والتركيب .

* ثانيا : تعريف يتبع فيه الناحية الوظيفيـة للحضارة .

(1) أو لا : التعريف التحليلي والتركيبي للحضارة : يضرب مثال المصباح الذي نستنيربه ان مالك بن نبي يتساءل متى يصح لنا أن نسمي المصباح انتاجا حضاريا ؟ ، وفي الـ الحقيقـة حسب رأيــه لا نقول عنه ذلك الااذا كان " المصباح الذي نستنيربه والافكار التي وجهت امر تجهيزه والآدميون الذين قاموا بعملية انجاز ه يمثلون جميعا منتجات اجتماعية لحضارة معينـــــة . (3)

---

(1) ـ ابو الاعلى المودودي نحن والحضارة الغربية ط1 دارالفكر بيروت 1979ص32

(2) ـ رواه الترميذي وقال انه حديث ضعيف .

(3) ـ عمارالطابي مجلة الثقافة عدد18 ـ 1973.

وكمايقول مالك بن نبي ، وحتى نوضح عذا المشكل " مشكل الحضارة " بهذا الشكل علينا أن نعود الى طريقة المخبر التحليلية " (1) :: ان المصباح " كشيء لم يكن ليقام لو لا العمل الدؤوب ، أولا من تلك الافكار التي قام بها من أجل اكتشاف الترانزستور " [illegible] " أولئك العلماء ابتداءا من كالفاني حتى ايدسون " [illegible] " (1931) بمعنى أن الفكرة (فكرة الترانزستور) لم تولد لأول مرة مع عالم د " كلفاني " ، وان لم نكن ننكر مدى أهمية اكتشافاته في عالم الترانزستور ، لكن الفكرة اكتملت على يد " ايدسون " وكأن هناك نوعا من النشاط المشترك بين افكار هؤلاء .. بمعنى أنهم اشتركوا في انتاج الفكرة ككل هذا من جهة ومن جهة ثانية فان هؤلاء كانت ايديهم هي التي قامت بهذا العمل بمعنى أن هناك أيضا عالم أشخاص شارك في انجاز الفكرة .

ثم ان المنتوج استغرق زمنا ما ابتداء من " كالفاني " حتى " ايدسون" بمعنى أيضا ان هذا المنتوج الحضاري قام على أساس اشتراك مجموعة أفكار استمرت زمنا ما بسواعدعلماء معينين ، ويمكننا ان نصوغ هذه العبارة في ترجمة أخرى فنقول أن مجموع الأفكار + مجموع زمن + مجموع أشياء = مجموع منتجات حضارية و باختصار فانه يمكن القول : مجموع ادسيون + مجموع زمن + مجموعاشياء = منتجات حضارية و بعبارة و جيزة فان المنتوج الحضاري = انسان + زمن + تراب . "

و لاحظنا أن الذي سقناه لتعريف المنتوج الحضاري أدى بنا في الاخير الى تركيب المعادلة التي اصبحت كالتالي ان كل حضارة ، ماهي سوى نتيجة = انسان + زمن + تراب وهذه هي المعادلة الشهيرة التي أبدعها مالك بن نبي ، وفي هذا المعنى يقول بن نبي .

---

(1) - [illegible]

* ايدسون [illegible] عالم فيزيائي امريكي (1847 - - 1931 - مكتشف المصباح الكهربائي .

«يلخص ـ أي النموذج المدروس ـ المدير " الشاهد" لكل الوقائع الاجتماعية والحقيقة ، " الشاهد" على نفسه باعتباره كائنا اجتماعيا ، " للتراب " الذي يشخص كل الوقائع معطيا لها أسسها الطبيعية والاقتصادية ، وللزمن الواهب اجتماعيا لامتدادها الضروري في تطوره»

غير ان العناصر الثلاثة للحضارة ـ في مفهوم مالك بن نبي ـ لا تمارس مفعولها الحضاري في حال شتاتها و انفصالها ، و انما تدخل في سياق حضاري اذا ما أصبحت في صورة مركب تآلف، و الذي يشكل هذا التركيب الفعال ، انما هو " البذرة" الدينية اما بطريقة مباشرة و اما بواسطة بديلاتها اللادينية منها (1) .
و أيد نظريته بضروب من الامثلة في التاريخ القديم والحديث والمعاصر .

لم يأخذ بفكرة " توينبي A.Toynbee" الذي يرجع الحركة الحضارية الى التحدي الطبيعي أو البشري ، فكل عملية اجتماعية تفسرها هذه العناصر مجتمعة. والانسان هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لهذه المعادلة لأن التراب و الوقت لايقومان ـ اذا اقتصر عليهما و حسب ـ بأي تحويل اجتماعي و يضرب لذلك مثالا بتاريخ الأمة الألمانية (1939 ـ 1945) اذلم يبق لألمانيا من عالم الاشياء شيء وابتداء من الرسمال المفاهيمي أو من عالم الافكار بنت كل حياتها الاجتماعية و احتلت من جديد مكانتها السياسية في العالم " .(2) .

و يثبت مالك بن نبي فكرته عن المعادلة الحضارية ـ انسان + تراب + زمن. و كما قلنا + عنصر التأليف بين العناصر الثلاث أي الدين ـ بأن هذه المعادلة وحدها تأخذ صحتها العلمية فتكون مثال الحقيقة و ان كان يقال عن هذه الاخيرة احيانا أنها نسبية ، بحيث لو أضفنا كلمة مثلا " علم" الى المعادلة السابقة لوجدنا نفسها ـ و ان كانت الكلمة أي " علم " كلمة عظيمة ـ نحصل على المعادلة التالية انسان + تراب + زمن + علم ، لكن هذا غير صحيح لماذا لأن كلمة

---

(1) ـ عمار الطالبي مجلة الثقافة عدد18 ـ 1973 ص 15 ، 16 .

(2) ـ انظر المرجع السابق نفسه

" علم " هي نفسها منتوج حضاري.أي أنه منتوج حاصل تركيب الانسان و التراب والزمن أما ان " الانسا ن " فهو غير مركب لأنه فان،ثم أن الزمن ايضا عنصر حيادي غير مركب وكذلك عنصر التراب فانه أيضا غير مركب هذا الدليل الذي يسيقه مالك بن نبي على مدى صحة المعادلة الحضارية بطريقة اضافة اعظم كلمة والتي هي " علم " ـ و كما لا حظنا معا أنه حتى هذه الكلمة وجدناها في نهاية المطاف أنها كلمة مركبة وهي بالتالي مفتوح حضاري .

و يستخدم أيضا العكس أي في حالة ما اذا طرحنا احدى اطراف المعادلة فمثلا اذا طرحنا الانسان فان المعادلة تذوب ولايبقى لها أي مدلول كذلك فان طرحنا عنصر الزمن لأنه مثلا ـ ماركوني "(1)" تفضل على الانسانية في سنة 1912 أوفي سنة 1911 بجهاز الراديو وهل كان يمكنه ان يتقدم بهذا الاختراع المهم لولاأن سبقه بنصف قرن تقريبا الالماني هرتسز "(2) Hertz" الذي اكتشف الموجه الكهربائية ، بمعنى أنه لولم تكن هذه المدة الزمنية الفاصلة بينهما لماحصل هذا الاختراع وكأن الزمن هنا شيء داخل في المعادلة ، اذ بالاضافة لاحظنا أن المعادلة تسقط ،وبالطرح لاحظنا أيضا أنها تنهار ويصبح لا مدلول لها .

اذاً في حالة ما إذا صحت المعادلة فانها تسبح بعناصرها الحيادية انسان + تراب + زمن = منتوج حضاري .

وفي ضوء هذه المعادلة يفسر مالك بن نبي ظاهرتي التكديس ,والشيئية في الحضارة بحيث يلا حظ أنه با مكان أمريكا أن تضحي بأكبر سدفها نيويورك بمعنى المدينة التي فيها أكبر كمية من الذهب أي مايعادل الضعفين ، ولكن هل نقول أن أمريكا و الشعب الامريكي متخلفا من الناحية الاجتماعية والسياسية والعسكرية والاقتصادية . طبعا كلا لأن نيويورك كمنتوج حضاري صنعه الشعب الامريكي ولم تصنعه الشياطين ولا الملا ئكة ، اذا فالشعب الامريكي هو صانع حضارة ابتداء من الابرة حتى " أبولو" أو حتى " ديسكو فيري" و لهذا يفرق مالك بن نبي بين شيء

---

(1) ـ ماركوني Marconi فيزيائي ايطالي 1874 . 1987 محقق الرابطة الزمنية الراديو

(2) ـ هارتز فيزيائي الماني (1857 ـ1894. مكشف موجات الراديو الكهربائية .

يسميـــه " الامكان المالي " و " الامكان الاجتماعي ".

"LE POURVOIRE FINANCIER ET LE POU VOIRE SOCIALE"

اذا انه من الغير الممكن أن نتصور أن الامكان المالي يقوم وحده ، و مادمنا على ذلك من الشاهدين فان الامكان المالي أيضا لا يمكننا أن نتصور أنه هو الذي يبني الامكان الاجتماعي ، و الالننظرقليلا الى تاريخ المانيا ذاك البلد الذي وقع يوما (1939 ـ 1945) . قاعا صفصفا تحت ويلا ت حرب الحلف الأطلسي ،اذكنا نشاهد معـــا أن الالمان فقدوا وخاصة في برلين أكثرمن 80 ٪ من اقتصاديات البلاد أي أنه تحطمت فيها جميع المصانع وجميع الهياكل البنائية و ..." غير أن هذا " كامكان مالـــي" لم يكن ليعجزه امكان اجتماعي الشعب الالماني ، فلم نكد نستعيد النظر أي بعد حوالي عشـــرسنوات حتى وجدنا أن برلين أعيدبناؤها من طرف الامكان الاجتماعـــي للقوة الالمانية هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنه اقتصاديا ثبت وان الامكان الاجتماعي هو الذي يكمل الامكان المالي ، وان كانت ضرورة هذا الاخير أكيدة و هـــو مثال شاهد على مقولة مالك بن نبي السابقـــة .

و يستعيد أيضا مالك بن نبي دليلا آخر و هو الدليل الذي يهم جانب الاستجابة المنطقية للمعادلة هانه اذ لوقلنا أنه " ماذا يعني لما نستورد الاشياء لتكون علـــى أساسها الذي يسمى حضارة ، كي نخرج بها من أزمة حضارية معينة ، أي لنعود بهذا المجتمع او ندخل بهذا الطرف الى الدورة الحضارية ، اذا اردنا على هذا الاسا س أن نسير على قاعدة من يريد انتاج السبب او تسبيب السبب عـــن نتائجـــه

---

(1) ـ مالك بن نبي منشورات وزارة التعليم الاعلي والشؤون الدينية ،
الملتقى الثامن للفكر الاسلامي 1973 ـ ص 157 .

و هذا ضرب من المستحيل ، وهذا خطأ فضيع من الناحية المنطقية ، ان الحضارة لا تكونها منتوجاتها بل الحضارة هي التي تكون منتوجاتها كلها (1) .

و ليست الحضارة عندمالك بن نبي كما يتصورها الانتروبولوجيون أي شكل من الاشكال التنظيم للحياة البشرية " سواء كانت على مستوى المجتمع النامي أو المتخلف أو البدائي .

بمعنى أن الانتروبولوجيين أعطو ا هذا التعريف للحضارة من حيث" واقعية" الشعوب سواء كانت هذه الشعوب متحضرة أو البدائية (Primitif) من جهة و من جهة اخرى فان هذا التعريف للحضارة يترك الظن في ان تلك الشعوب التي خرجت من الحضارة لن تستعيد حضارتها ، كما ان هذا التعريف هو تعريف (لشيء) متخلف عن الحضارة الغربية بمئات السنين غيرانهم يجعلون من تراجع للثقافة الغربية المعاصرة و هذا مايثبت عنصرية (2) هذا التعريف من طرف الانتروبولوجيين.

و عرف مالك بن نبي الحضارة بتعريف آخر وهو الذي يهم مفهوم الحضارة من الوجهة الوظيفية أي من حيث الوظيفة التي تقوم بها الحضارة في المجتمع فالمعنى الوظيفي للحضارة عنده هو " مجموع الشروط الاخلا قية و المادية التي تتيح لمجتمع معين ان يقدم لكل فرد من افراده في كل طور من أطواره و جوده منذ الطفولة الى الشيخوخة ، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أوذاك من أطوار نموه فالمدرسة والمعمل والمستشفى ونظام شبكة المواصلا ت و الامن في جميع صوره عبر سائر تراب القطر واحترام شخصية الفرد تمثل جميعها اشكالا مختلفة للمساعدة التي يريد و يقدر المجتمع المتحضر على تقديمها للفرد الذي ينتمي اليه .(3) .

---

(1) ـ المرجع السابق ص 158.

(2) ـ أخذنا هذا البحث للتعريف الحضارة من طرف الانتروبولوجيين من حضارة القيت علينا كنا في طورالليسانس و حدة علم الاجتماع من طرف د/ عبدالمجيد مزيان

(3) ـ مالك بن نبي افاق جزائرية ، ص 46 ـ 47.

في هذا التعريف قال " أن الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظـر و ظيفيـة " (1)

من خلا ل هذا التعريف الوظيفي للحضارة يبرز مالك بن نبي ما أغفل عنـه الانتروبولوجيو ن في تعريفهم السابق للحضارة " فاذا كان كل شكل من اشكال التنظيم في الحياة الاجتماعيـة يعتبر لونا من ألوان الحضارة فأي فارق يفصل المجتمـع البدائي عن المجتمع المتحضـر . (2) .

و يفرق مالك بن نبي بين مجتمع ماقبل الحضارة ومجتمع الحضارة و مجتمـع ما بعدالحضارة ، و هي المقولا ت الثلا ثة الاساسية التي وضعها وجعلها مفاتيح في تفسيره لاطوار التاريخ الحضاري للمجتمع البشري،و يراعي مالك بن نبي في تعريفاتـه للحضارة سواء كان منها التعريف التحليلي - التركيبي أو التعريف الوظيفي شعوب العالم الثالث فيصرح لنا بأن مشكلة الحضارة عند رجل العالم الثالث تقوم على حل مشكلتيـن .

1 - المشكلة العضوية الخاصة بتشييد بناء قائم على الحقائق النفسية الاجتماعيـة في هذه البلاد .

2 - مشكلة التوجيه القائم على حقائق الوضع الحالي . (3) .

ويقصد من المقولة الاولى أنه للنظر في مشكلة الرجل الذي ينتمي الى العالم الثالث علينا ان لا نغفل المشكلة الجوهرية و المتمثلة في اخراجه من التخلـف و الحاقه بركب التحضر . و على هذا يتعين علينا أيضا أن ننظر بعين الطبيـب الفاحص للرمد من حيث هو مجموع"مكروبا ت " بكتيريـة تكتلت في حـ دقة العيـن (العالم الثالث) أعني أن نجسد الداء قبل اعطاء الدواء . و مشكلة الداء هنا هـي النظر بصفة دقيقة الى العناصر النفسية التي تكون عضوية هذا الفرد في هذا العالم . و يقصد من المقولة الثانية علينا ان نوجه الانسان بفكره وووضعه النفسي لكي يساهم في بناء الوجهة الحضارية التي يحددها .

أخيرا وكخلا صة لهذا الفصل فان مالك بن نبي يختلف عن غيره من المفكرين اليوم في عالمنا المعاصر في تحديده لمشكلة الحضارة و اعطائها المفاهيم التي سبق ذكرها مع تحديده للأسس التي تقوم عليها هذه الحضارة في تاريخنا .

---

(1) - المصدر السابق ص 46.

(2) - عمار طالبي مجلة الثقافة عدد17 - 1973 ص 17.

(3) - مالك بن نبي فكرة الافريقية الاسيوية ترجمة عبدالصبور شهيـن دار الفكر دمشق 1981 - ص 123 .

الفصل الثاني

عناصر الحضارة

عناصـــــــر الحضـــــارة

بعدما تعرفنا على تعـــريف مالك بن نبي للحضارة وراعينا وأنه أيضا يوليها معادلة سنهتم الآن بتحليل عناصر هذه المعادلة انسان + تراب + زمن = منتوج حضاري

1 ـ عنصـــــر الانسان :

ان الانسان في رأي مالك بن نبي هو العنصر الأساسي في تشيـــــد أو قيام أي حضارة غيـــر أن هذا الانسان هو ذاك الذي يؤثر في سير التاريخ وهو يؤثر فيـــــه حسب ملاحظـــة مالك بثلاث أشياء أولا بفكره وثانيا بعملـــه وثالثا بمالـــه وهو بذلك يجب أن نصنـــع رجالا يمشون في التاريخ مستخدميـــن التراب والوقت في بناء اهدافهم الكبرى " (1) . و على غرار ذلك راح مالك بن نبي يضع التوجيـــهات ، فهو لابـــــد أولا أن يكون الانسان المثقف يحمل بالدرجـــة الأولى مفهوميـــة من أجل شقه للتاريـــخ فالمفهوميـــة هي سهم الثقافـــة .

ان الانسان في نظر مالك بن نبي (يتفاعل والبناء الحضاري) ليس هو ذاك الذي انحدر من عالم مابعد الموحدين حاملا بما يملك من صوره وافكاره ، وليس الانسان هـــذا المنحـــدر أيضا من ذاك العالم ، أي الانسان صاحب الارجل الفخارية ذاك الذي رأســـه في السماء و رجلاه في الارض ، و انه ليس أيضا ذاك الانســـان ((الأميـــبـــي)) : و هو يعني من كل هذه التشبيهات مايلي : ان الانسان المنحدر من عالم مابعـــــد الموحدين أي هو الذي مازال بيننا يحمل أفكارا وصورا تعود الى ذاك الزمن والزهـــد عهد الانحطاط ، بمعنى أنه يحمل من الأفكار تلك التي سنعها مالك بالافكار الميتـــة ، و يقصـــــد بالانسان صاحب الارجل الفخارية : أي هذا العملاق الذي يقدر على أن يؤثـــر في أشيء مما كانت ضخامة بنيتـــه الجسمية وكأن شأنـــه شأن تلك السيارة التي فقدت آخر قطرة من البنزيـــن في محركها ، وهو يقصـــد بالانسان "الأميبـــا" لأن هذا الحيوان اما أنه متطفل على غيره ، لأنه قاصـــر على مديده الى العمل و الى البناء فهو ينتقـــد كل هذه الأصناف من النوع الانساني الذي مازالت تمشي معنا كا خطبوط تاريخـــــي ؟ .

---

(1) ـ مالك بن نبـــي شروط النهضـــة ص 104.

ان الانسان المثال عند مالك بن نبي هو مايسميه بالانسان الجديد و لكن ياترى هل يعرف جديدا ، أنه من غير الممكن أنه كان جديدا لو لم نحدث على " جوه" النفسي والاجتماعي تغيرات وهذه التغيرات هي المتعلقة بمشكل التوجيه الثقافي.

ان التوجيه الثقافي يتطلب منا مجهودا كبيرا اذ " انه يجب علينا بادء الأمر تصفية عاداتنا و تقاليدنا ، و اطارنا الخلقي والسناعي مما فيه من عوامل قتالـــة لا فائدة منها حتى الجو للعوامل الحية و الداعية الى الحياة و أن هذه التصفية لا تأتي الا بفكر جديد ، يحطم ذاك الوضع الموروث عن فترة تدهور أصبح يبحث عـن وضع جديد هو وضع النهضة " . (1) .

اذا ان وضع النهضة يقتضي منا اجراء عملية لافكارنافي الآن نفسه ، و بعبارة أوضح يمكننا النهوض فانه لابد من عملية لافكارنا : كأن نقوم أولا بتنقية أفكارنـا مما يشوبها من عوامل الانحطاط ، وثانيا كان نقوم بتنحية لافكار أصبحت عادات بالية تمشي معنا : و هذه العملية لن نقدرعليها الا اذا أدخلنا مدرسة التربيـة الاجتماعية .

و حسب رأي مالك بن نبي في فكرة التوجيه فان " فكرة التوجيه : الثقافـي قوة قوة في الأساس و توافق في السير ووحدة في الهدف " : بمعنى أنه لا بد و أن نراعي مدى قوة أساس هذا التوجيه و نفتح قوسين عنا للنظر في قضية التوجيـه (في الوطن العربي المخذول من أفكاره) اذ كم لاحظنا بلدانا عربية تنهج النهج الملكي الرأسمالي ، ثم تعوضه بالاشتراكي ثم تستعيضه بالاسلام الاشتراكـي العربـي ...." طبعا تبعا للسياسات القائدة لهذه البلدان ، ولقد كان أحسن كلام قيل هنا عن هذا الوضع الخاص بمشكل التوجيه هو ماقاله الرئيس الامريكي " ابرهام لنكولن يوما : يمكنك أن تغرر بشعب يوم أو يومين غير أنك لن تستطيع ان تغرر بـه أبد الدهـر " .

و ان مشكل التوجيه حسب رأي مالك بن نبي هو أولا و قبل كل شيء توجيه في عناصر الثقافـة .

---

(1) ـ مالك بن نبي شروط النهضة ، ص 109.

فلا بـد أولا من توجيه للمبدأالاخلا ق و من توجيه للذوق الجمالي لأنــــــــه " ... كذلك شأن الحضارة تتغيـر مميزاتها و تتجه بوجـه خاص طبقا لعلا قــــــة المبدأ الاخلا قي والذوق الجمالي في المعادلـة الحضارية : أي طبقا لترتيب هذيـــن العنصريــــن في تلك المعادلــــة " . (1) .

و ان المبدأالاخلا قي في رأي مالك بن نبي لايمكن أن يكون سوى" منحــــــة من السماء الى الارض تأتيها الحضارة مع نزول الأديان ، عندما تولد الحضارات و مهمتهـــا في المجـــتمع ربط الافراد بعضهم ببعض كما يشيـــر الى ذلك القرآن الكريم " لو انفقت مافي الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم ، انه عزيز حكيــــم " .

ان مالك بن نبي حينما يبني التاريخ الحضاري و الحضارة بصفـة عامة علـــى أساس ديني اخلا قي فانما يعـــود الى التاريخ فهو صاحب نظـرة " انه كلمـــــا أوغـل المرء في الماضي التاريخي للانسان في الاحضان الزاعـــرة لحضارته أوفــــي المراحل البدائيـة لتطوره الاجتماعي فانه يجد سطورا من الفكـرة الدينيـة " (2) .

و الحقيقـة ان المجال الاخلا قي أصله دينـــي بدليل الشاهد القرآنـــــي أيضا لأنه من غيـر الممكـن تصور نظام حياة كامل بدون اخلا قياته والقرآن كذلـــك من جهـة ، و من جهـة أخرى فان المجال الخلقي خاض فيه الكثير من الفلاسفـــــة غير أنـه كما يقول سيد قطـــب " انهم يحاولون حصر الحقيقة في نطاق العبارة " بمعنى أنه وحتى أعم فيلسوف كرس حياته " لأ سس مبتا فيزقينا الاخلا ق" خرج أخيـــــرا بفلسفـة الواجب الاخلا قية لا غير و قس على ذلك ماشئت .

و في هذه النقطة لا حظنا مع صاحب " تقويم الفكر الاسلامي" أن مالك بن نبي في كتابـه فكـرة الافريقيـة الأسيوية تجعل المجال الخلقي يرضع من ذاك التزاوج الذي يحصل بين سياسة " اللا عنف" التي أتـى بها غاندي و مفاهيم الاســــــــلام

---

(1) المرجع السابق ص 17.

(2) ـ كل حضارة أساسها اخلا قي أي روابط روحية دينيـة حسـب مالك بن نبي.

ومفاهيم سياسة عدم الانحياز ، وللأسف فان هذا الكتاب وحسب ماعلن على مقدمته المؤلف نفسه في الطبعة الثالثة :" ... خاصة وأنه صدر من عربي " أريد ت أن أقول با ن الذين يرجون لتحطيم أفكار شخصيات اسلامية من خلال اغتنام فرص الاقتناص - التي ضاعت من مفكر كمالك بن نبي انما الحقيقة تقال قدلعبوا دورا كبيرا في محاولة خلق " الصراع الفكري في البلاد المستعمرة " بمعنى أنهم كانوا بمحاولاتهم تلك المس ليس بعصا مالك بن نبي السحرية و انما بعصا الاستعمار السحرية ، ولا عيب في ذلك فانهم يعانون نقصا وفراغا في تكوينهم الايديولوجي .

والحقيقة تقال ان أصل أفكار مالك بن نبي هو " شروط النهضة " وهو أيضا " الظاهرة القرآنية " أما بقية التأليف فانما تكملة لمفاهيم واردة في هذين الكتابين" وهلا عليك وان كان صاحب كتاب " تقويم الفكر الاسلامي" يجعل من " حسن البنا" يجلس في صالونات " الاسلاميات " والمهم هو أن مالك بن نبي يجعل من الأخلاق كعنصر يدخل في التكوين الثقافي أهم عنصر حتى أنه يحلل ما ذا جاء من معنى كلمة دين في اللغات اللاتينية في الفرنسية " Religion" و في الانجليزية " Religion " ومي تعني ربط " Relier " الافراد بعضهم الى بعض فكذلك فان العنصر الاخلاقي في أساس فكرة دينية كما قلنا ، ويعقب مالك بن نبي على أهمية هذا العنصر بكلامه " ليس الهدف أن نعلم الناس أن يقولوا أو يكتبوا أشياء جميلة ، وانما الهدف أن نعلمهم فن الحياة مع زملائهم أعني أن نعلم كيف يتحضروا " . (1) .

اذا اتضح وأن تعليم الناس التخلف و العيش مع زملائهم " فن الحياة" هو أول خطوة في طريقه التاريخي للحضارة .

وهناك عنصر آخر من عناصر الحضارة وهوالذوق الجمالي : يقول مالك بن نبي " و الاطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمالي ، بل ان الجمال هو الاطار الذي تتكون فيه أي حضارة فينبغي أن نلاحظه في نفوسنا و ان تتمثل في شوارعنا و بيوتنا ، ومقاهينا ، مسحة الجمال نفسها ، الذي يرسمهامخرج رواية في منظر سينمائي أو مسرحي .

---

(1) - مالك بن نبي ميلاد مجتمع ص 93.

ان الجمال هو وجه الوطن في العالم ، فلنحفظ وجهنا لكي نحفظ كرامتنا و نفرض احترامنا على جيراننا " ..(1) و على هذا الاساس تحذر مالك بن نبي أيضا من السقوط في جعل مقود حضارتنا هو الجمال : لأنه كما قلنا فان المبدأ الاخلاقي هو العنصر الرابط لعناصر الثقافة ككل و ليس هنا أي عنصر اخر مهما كان ثم ان تاريخ الحضارة الغربية شاهد اليوم على تلك النزعة الجمالية التي تغلبت على المبدأ الاخلا قي فيما ذاك المبدأ الذي وضعت أسس الحضارة المسيحية ، هذه النزعة الجمالية التي ابتدأت مع النهضة الايطالية لتصل الى الشعوب الجرمانية فالى شعوب أوربا الغربية كلها وامريكا اذ من تحليل مالك بن نبي لتغلب النزعة الجمالية التي طبعت الحضارة الغربية يلاحظ وأنها أصبحت تنظر الى كل شيء سواء أتت به الحياة الصناعية أو الحياة الطبيعية من منظور جمالي غاية هذا الوجود ولو كان على حساب الضمير الخلقي لأوربا كلها .

و يضرب أمثلة من التاريخ الاسلامي اذكنا نلمح وجه الجمال في الشاعرية الفياضة لابن الرومي او لربيعة العدوية تعبيرا فعليا عن صفاء في النفس ، صفاء في الضمير صفاء في الحياة ككل .

ان عنصر الجمال كما مر معنا كان ضروريا في كل حضارة ، لكن يبقى المشكل في توجيه هذا العنصر : و ان توجيهه لايمكن أن يعبر عن معنى غيرما تحدده ايديولوجية شعب سبق وأن رسمنا عرضياتها ، اذا فلا يمكن أن نخضع الاخلاق العنصر الجمالي بل علينا أن نخضع العنصر الجمالي الاخلاق ، ثم ان عملية الاخضاع هذه نفسها ليست من باب الهروب الى اعلان " الاشراف الروحي" أعني أن نجعل الاخلاق و الجمال عنصران متسايران معا غير أن أولوية الاخير على الثاني ضرورية و الا ، فان أي افراط أو تفريط في العنصران مخل بكل أساس حضاري ، و بالتالي فانه منسف للتاريخ الحضاري . كما علينا - أن نقوم بالتوجيه الاخلاقي والجمالي ، أيضا ان نوجد الانسان " الجديد" صاحب المنطق العملي ، و يقصد مالك بن نبي بالمنطق " أي استخراج أقصى مايمكن من الفائدة من وسائل معينة " . (2) .

---

(1) - مالك بن نبي شروط النهضة ص 130.

(2) - مالك بن نبي شروط النهضة ص 121.

ان المنطق العملي ، حسب ماعرفه هنا مالك بن نبي أي تلك البادرة الواجب أن تتوفر فينا من اجل القيام بالعمل المستمر ، ليس من أجل الحصول على لقمة العيش وحسب بل من اجل استخراج أقصى مايمكن من الفائدة ، ولكن كيف؟ هل معنى هذا أن ندعي أن امكانيا تنا محدودة و من غير الممكن أن ننتج أكثر مما نتصور ، و الحقيقة ... اننا ما يمكن تصوره مرهون لما نجعل من خواتم أعمالنا غايات دائما ، وكأ ننا في هذه الحالة النفسية - بالرغم من امكاننا المحدودة - فاننا ننتج أكثر مما يريد ، و فعلا فعلت الشعوب ، وهكذا بني كل التاريخ الحضاري بسواعد العبيد ، فالرقين ، فالانبياء ، والتديس ، فالعلماء و المفكريين ، فالبرجوازييين فحتى البروليتاريا ، و كأن سلسلة التاريخ الحضاري هذه كلها تضافرت في ايصال روافد التاريخ الى مصب النهر الأعظم في القرن العشرين و اننا احوج ماتكون الى هذا المنطق " العملي " لأن العقل المجرد متوفر في بلا دنا غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الارادة والانتباه فهو شيء يكاد يكون معدوما " (1)

اننا حينما قلنا أن " العقل المجرد" متوفر في بلادنا و لاينقصنا سوى " العقل التطبيقي " المنطق العملي و كأننا كشفنا عن مرض نفسي عضال يعانيه مجتمعنا نفهمه من العبارة التالية " اننا نعاني انفصاما شخصيا بين عمرنا النفسي وواقعنا الاجتماعي " اذا لهذا السبب وهذا وحده كنا مقصريين في مجال المنطق العملي ، لانه كما مر معنا في " الفاعلية " تعمل بتوتر حماس قلبي فياض ، و يتقويم عقلي سديد فحركة يدوية فعالة ، وكأ ن الذي تكلمنا عليه والخاص بذاك" الانفصام " أردنا أن نقول انه بأن مرض مصابون بن نحن في قلوبنا ليس الا وهذا ماكان يشير اليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله الصحابة مستفسريين عن مستقبل الأمة "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم ، كما تتداعى الاكلة الى قصعتها : قالوا او من قلة نحن يو مئذ يارسول الله قال كلا و لكنكم غثاء كغثاء السيل ، و ليبعثن الله في قلوبكم الوهن قالوا وما الوهن يارسول الله قال حب الدنيا وكراهية الموت(2).

---

(1) مالك بن نبي ، مشكلة الثقافة ص 72.

(2) - حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه .

وحسب رأي مالك بن نبي في هذا الحديث فان المقصود به ليس فقط الاخبار بمستقبل الأمة الاسلامية و انما هو التربية ، لأن الرسول كان يعلم أن أخطر مرض يصيب الامة فتقعد الى الاكلة هو " الوهن " وهومرض نفسي خطير يصيب الامة فتبقى لا هي بالميتة ولاهي بالحية ، و انما تبقى شأنها شأن تلك الحيوانات التي تحيا حياة بطيئة (Hibernation) لما يأتيها فصل الشتاء ولهذا السبب و هذه الاسباب كلها التي ذكرناها لا بدمن المنطق العملي ذاك الذي يتكون في جو هرة من الارادة والانتباه .

ان كل هذه العمليات التوجيه الاخلاقي ، وخلق الذوق الجمالي من توجيهه مع ايجادالمنطق العملي - كلها لا يمكنها ان تتم سوى تربويا لأن الثقافة عليها أن تراعي برنامجها التربوي الذي يتلخص في التالي :

1 - دستور الاخلاق لتكوين الصلاة الاجتماعية .

2 - دستور الجمال لتكوين الذوق الجمالي.

3 - المنطق العملي لتحديد اشكال النشاط العام .

4 - الفن التطبيقي لكل نوع من أنواع المجتمع أو الصناعة بتعبير ابن خلدون .

اذا فرسم هذا البرنامج التربوي بغاياته كما نلاحظ ، فالاخلاق من أجل تمتين عرى الصلات الاجتماعية ، و من أجل ايجادالذوق الجمالي لابدمن دستور الجمال و لتحديد أشكال النشاط العام للمنطق العملي وهذه كلها تقوم بها " الصناعة" أو الفن التطبيقي ، اذا نلاحظ ان كل هذا الفهرس التربوي يتحقق في حالة ما اذا أكدنا أهميته من جهة ، ومن جهة أخرى عندما نؤكد أن لنا ارادة قادرة على انجاز هذا الشكل .

عنصر الزمن :

أعطى مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة تعريفاللزمن (1) من حيث اهميته في تكوين الحضارة فعرفه بأنه نهر ينساب ويجري في التاريخ وهوكل لا يتجزء الى روافد حتى ان بعض الحضارات ستغل هذه الروافد ، وغير ما لاستعمالها

---

(1) - مالك بن نبي شروط النهضة ص53 منه " اني اعرف الزمان اذالم يسألني عنه احد ، اما ان حاولت تفسيرة للسائل فان اجهله)

هكذا مثلا كان شأن الحضارة الغربية اليوم و هكذا كان مسير شعوب العالم الثالث

و الزمان لا يمكننا تحديده، لأنه في سيلان مستمر حتى أن " سان اغسطين " (St Augustin) (م 430 م) يقول " ان"الزمن" بالنسبة للحضارة الغربية ذا ا همية كبرى كست هذه الأهمية في ضمير الفرد ، خاصة بداية مع واضع الزمن الصناعي في أوروبا والذي هو " Taylor " مكتشف طريقه" 1928 م Rendement " و غرسه في الحياة الصناعية الغربية منها وغير الصناعية أعني حسن الحياة الاجتماعية ، و هي فكرة اختصرت المسافات وقضت على كل محاولة لقتل الوقت ومن هنا كان أو ازداد اهتمام الفرد الاوربي بالوقت ، فهو في المعامل على الثامنة صباحا ليس آكثر أو أقل وهو على الساعة 12 مسافر في القطار السريع ، الغير المتأخر ، وهو على الساعة ... اذا أن نظام أو تنظيم الوقت الوقت خاضع للتوزيع " الحاجي" اليومي للفرد الاوربي ، ومراعيا أيضا حتى التوزيع الكمالي للوقت .

غير انه نحن كشعوب تنتمي الى حو رطانجة جاكرتا فانه حسب نظرة مالك بن نبي المرأة مثلا عندنا شبيهة في مشيتها بقاضي من قضاة قرطبة أو أشبيلية أو غيرها فهي للأسف - باعتبارها شقيقة الرجل ضربت آحسن مثال في هدرها للوقت ، واليك أصناف آخرى من الرجال ، فانها أيضا تهدر الوقت هدرا أن الحكومة الجزائرية مثلا في الأونة الاخيرة كلفت الشرطة بالبحث عن المتغيبين عن العمل في المقاهي

و يتنبه مالك بن نبي الى ظاهرة قتل الوقت في العالم الاسلامي اذ يقول " فنحن في العالم الاسلامي نعرف شيئا يسمى " المدة " ... لكنها التي تنتهي الى عدم " (1) . و يحذر مالك بن نبي أيضا من مضيعة الوقت نظرا لما له من أهمية في اسهامه " استغلا ل " في انشاء الحضارة : " ان وقتنا الزاحف صوب التاريخ لا يجب أن يضيع هباء " (2) .

---

(1) - تايلور Taylor مهندس امريكي (1856 - 1915) مخترع نسق تنظيم العمل .

(2) - مالك بن نبي ، شروط النهضة ص190 .

خاصة طبعا وأن الانجليز متخذين الحكمة المشهورة في عالم منفعتهم الاقتصادية " الوقت دراهم " Time is money " اذ مشكلة الزمن لا زالت هي الوصمة التي توصم بها شعوب متخلفة عن شعوب متقدمة و كيف لا وان " التاريخ ليس ماتصنعه والصدف و مكائدالاستعمار ، ولكنه ماتصنعه الشعوب ذاتها في أو طانها " (1) .

اذا فالقضية قضيتنا نحن دون لعن الاستعمار ، علينا أن نصفي فكرتنا عن الوقت لما مزجت من عادات بالية أبان عصور الانحطاط " مابعدالموحدين " و مشكلة الوقت هي التي أهلت ظاهرة كاليابان الى أن تستولي على الاقتصاد العالمي في القرن العشرين رغم عصر الميجي التي برهنت على تخلفها انذاك .

عنصر التراب :

يقصدمالك بن نبي هذا العنصر الأساسي في تكوين التاريخ الحضاري، أي هو تلك الناحية المادية والحيوية المحيطة بالانسان والذي ماعليه الأنيستعملها استغلالاكاملا " فالتراب في أرض الاسلا م عموما هو على شيء من الانحطاط بسبب تأخر القوم الذين يعيشون عليه ..." (2) . ان المقصود من التراب " " ليس هو مايخص حياة الفلحوالز ر ع و حسب بل ان كل مجال يسبح فيه الانسان في حياته اليومية فهو سواء في المجال الصناعي أو الزراعي أو التجاري أو العلمي أو الاخلا قي الديني أو غيره ، فهو دائما هذه المجا لا ت تشكل عنصر التراب: و اذا حللنا العبارة السابقة و طبقناها على المجال الصناعي فاننا نجد وللاسف أن هذا المجال لم يتكون بعدفي عالمنا الاسلامي حتى أن اكبر المصانع في العالم الاسلامي فهي اما خاضعة لمسيرين غربيين انما بحاجة الى استثمار مالي فهي تعاني عجزا ، في المجال الزراعي ، و ماأخصبها سهول العراق و أندو نيسيا لكن المشكل فيها هو " تحضرالانسا ن " و في الزراعة دائما كان الى يوم ما في التاريخ المعاصر السودان اكبرمنتجي رؤوس الماشية لكن للأسف أيضا فهي

(1) ـ نفس المرجع نفسه ص 190.

(2) ـ مالك بن نبي ، شروط النهضة ص 179.

تعاني اهمال كبير ، في المجال التجاري و جدنا أخيرا بدأالتفكيـــر فقط في الطريـق و المواصلا ت في الجزا ئـــر مثلا و في الموانـي و المطارات ، و علما ماذا يعانـي العالم الاسلامي انه يعاني اما هجرة الادمغة الى الدول الغربية ، و اما انـه يعاني من تعريضهم لأمور تتعلق بالصراع الفكري في البلاد المتخلفة هذه وأخلاقيا و دينيا فان هذا المجال اما انه ارتفع الى مستوى السياسة فعبرت عنـه اغتيالات الامـــام الشهـيد حسن البنا و اتباعه ، أو لم يصل نتيجـة أيضا لأمور تتعلق بالصـــراع الفكري في هذه البلدان .

اذا هذه مشكلة تعانيها شعوبنا لكن الحـل الذي يقترحه مالك بن نبي لها انما هو ايجاد تكامل بين الشعوب العربية والاسلاميـة في اطار كومنو يلث اسلامي و نشيـر هنا الى أنه اقترح حلولا لمشكلة " التـراب " ، فهو صاحب فكـرة انشاء السدالأخضـر في الصحراء الجزائرية في المجال الفلا حي وهو صاحب ملتقى الفكر الاسلامي فـــي المجال العلمي ، وهو صاحب فكـرة التوجيه الجماعي " لم ينفذ حتى الآن" ثـــم أنـــه بعد ذاك كله صاحب " فكـرة الافريقية الاسيويـة " (1) . (ولهذه الفكرة شيء من تداخل معاملي : الاستعمار والقابليـة : للاستعمار : الاستعمار وماكـــان يهمـه في مجال الصراع الفكري والقابليـة للاستعمار و ماذا كانت تتغنى بالافكـــار المضادة لفكرة لفكـرة الافريقيـة الاسيويـة كايجاد منطقة الوحدة الافريقية 1958.

---

(1) ـ نشير هنا الى الفكرة بعيدا عن الاشخاص الذين نفذوها سواء بدفنها او بتفخيمها حسب ماعلمنا مالك بن نبي في مقدمة طبعة 1983.

الفصل الثالث

مراحل الحضارة

مـــراحل الحضــــارة

بعد دراستـــه للتاريخ الحضاري الاسلامـي منه والغربي ، يلخص مالك الـــى قانو ن يعرف بقانون أو بنظرية المراحل الحضارية ، وهي شبيهـة بالمراحل الثلاث للتطور الخلدوني في الحضارة - مع ما لا حظناه عن هذا التطور من أنه تفسيـــــر بيولوجي ، عند ابن خلدون و تفسير وظيفي عندمالك بن نبي .

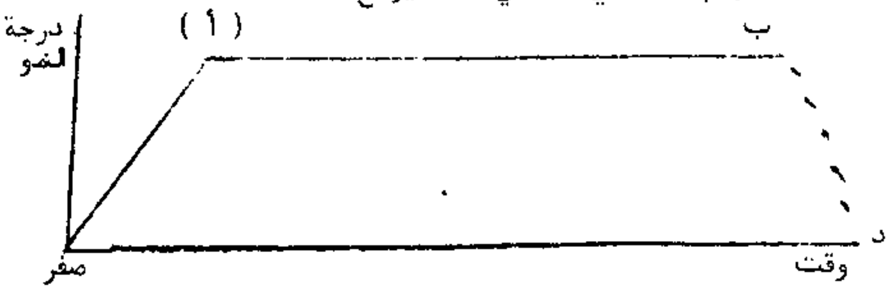
و يقسم مالك بن نبي هذه المراحل الى :

1 - مرحلـة الروح : و هي تمثيلا أوليا " لاشعاع الفكـرة الدينيـة تلك التي تتمكـن من النفوس فتبنيها بناء " مرصوصا " كما كان ذلك في عهـد الرسول (ص) و جماعتـــه من الصحابـة والخلفاء الراشدين ، اذ أنـه في ذلك العهدكانت الروح غارحــــراء هي التي فعلـت فعلتها في النفوس فكنا نلا حظ أنـه بمجرد ماتنزل ايات الخمـــر مثلا فان الصحابـة ينتهون عن شربها حتى أن واحد كعمرابن الخطاب - رضي الله عنه كان يأتيها في الجاهليـة وتخلى عنها بتلك السهولة بمجرد أن أعلن اسلامـــــه (نذكرعنا أن كلا من الولايات المتحدة الامريكيـة و الاتحاد السوفيا تي اصـــــدارا مرسميـن يقضيان بمنع " الخمر " حتى أن الرئيس الامريكـي في 1963 تراجع - بعـد شهــــر من اصـداره للمرسوم - عن قانون يمنع الخمـر لأن المجتمع الامريكـــــي لم يكن ليجـد الروح المربيـــة للنفس كما أ قامها القرآن الكريـم ، في قبائل قريشية

؛ مرحلة الروح هي تلك الفترة التاريخيـة من الحضارة الاسلاميـة التي بدأت مع نزول أول آيـة من القرآن الكريـم و تراجعت القهقري مع معركـة " صفيـن" 37هـ ، أي انها المرحلة التي مارس فيها القرآن نشاطه في النفوس فجعلها تلبي النداء كل لحظة ، فهي التي امتدت مابين نزول القرآن المكي ونزول القرآن المدني الى أن يأتي رابـع خليفـة للمسلميـن - ولايمكن تحديد الفترة الزمنيـة التي استغرقتهـــا بالضبط ، حتى أن فترة بدايـة الملك والفوز به كانـت هي الاخرى تعـود الى تـــلك الروح التي صنعت نفوسا من امثال علي كرم الله وجهـه في علـــوه وشهامتـــــه و قـوة ايمانـــــه .

.../...

2 ـ مرحلة العقل : و هذه المرحلة لا تمثل في رأي مالك بن نبي سوى تنازلا " لعالم الروح " الى " عالم العقل " وهي التي انت بعد مرحلة الروح ، لأنه حسب مالك بن نبي فان " قوة الايمان " هي التي تمكن العقل من الفهم وهي لا تمكنه من ذلك وحسب بل تحفزه على الأخذ بالعلم ، يمثل هذا تاريخيا بالعصر الذهبي العباسي حيث جمع لنا هذا العصر قائمة باسم علماء و مفكرين شهد لهم التاريخ بذلك كأمثال الكندي والفارابي و ابن سينا والغزالي في الفكر وابن حفصين وابن النفيس والرازي وجابر والخوارجي في العلوم ، بمعنى أن المجتمع التاريخي هذا انما وصل الى تكملة بنائه الاجتماعي ، هذا البناء الذي تترجمه في صورة نظرية " ان العلاقات الاجتماعية تمكنت بما يملك من قيمة خلقية ـ استطاعت أن تنميها ـ أن توجد " عالم أفكار " و " عالم انشاء " الحضارة ، حتى أن هذا الاخير ممثلا في العهد العباسي الاول و الثاني وما تلاه ـ انما عبرت عنه كبريات الجوامع و المنارات والقصور و غيرها التي انشئت هنا وهناك في كل من بغداد والقاهرة ودمشق و غيرهم ، و لو تتبعنا الرسم البياني التالي فانه يوضح لنا :



أن الحضارة ممثلة في نقطة " 0 " الى " أ " وهي ماكانت ترمز اليه أول نزول لآيات القرآن الكريم ، ولقد كنا سمينا هذه البداية حسب التقسيم الذي وضعه مالك بن نبي للحضارة بمرحلة الروح وهي ايضا تلك البداية التي عبرت عن رحلة تطبع الانسان بعد انتمائه للمجتمع الذي ساد حياته حينما كان في ماقبل الحضارة اما و بمجرد حدوث ذاك العارض "أو الضرف الاستثنائي الذي غير مجرى حياته فانما كان بمثابة عالم النطفة في علم البيولوجيا فهي الخلية التي تحمل بين طياتها ما سينجم عنه ضيف ومولود جديد للحياة مع انها تتلقح البيضة ، وهي على محور

.../...

الزمـن ممثلة ايضا في تلك الصفا ة التي كانت تحملها معنى أمـة في اَيــة " ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا " (1) .

فا براهيم لم يكن أمـة الا بما تجسدت فيه صفاة الامـة أي انه كان يحمـل الخصا ئص المورثـة للقيمـة الاجتماعيـة للجمتمع الذي يوجد مكونا للأمة الابراهيميـة وهي بصريح الاية الامـة الاسلاميـة : " ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكــــن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركيـــن " (2).

وهكذا شهد المجتمع الاسلامي الاول الرسول (ص) والصحابة رضوان الله عليهم بدا ية تكون (الضميرالحضاري) ، ولقد كان انذاك كله محتملا في ضمير الغيـــب، حتى تكون على الافكار هذه الامـة وعالم اشيائها في الذي مر معنا من اعلا م ومعالـم حضاريـة .

ثم ان العقل كماقلنا يعمل بقوة الايمان (حتى اذا أوهنت الدفعة القرآنيـة ضوءل اشعاع العقل و انحطت الحضارة) وهو ايضا حيث ما فقدت الروح سقطـــت الحضارة وانحطت ، لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يلبث أن يسقط بتأثيــــر من جاذبية الأرض (3) .

و بناء على كل هذا تأتي المرحلة التي تعقـب مرحلة العقل بعد ان يخمــــد اشعاعـه ـ و هي مرحلة الغريزة التي يتحلل المجتمـع .

أولا : من علا قاته الاجتماعية ، كأن تصبح لا تحمل العنصر المؤلف لها والذي هـــو القيمـة الخلقيـة و نجـد هذا ممثلا في الحضارة الاسلاميــة في هذه المرحلــــــة بماظهــــر." تختان الحضارة اذا ما فارق دعاتها سبيلهم الذي يسلكونه من أجل نشاطهم المشتــرك و اتخذوا سبلا وطرائق متخالفـة تجعل النشاط مستحيــــــلا فسبل تنسل الى حضيرة التصوف وأخرى تنحدر الى عالم العجائب الذي هبت منه روح الف ليلة وليلـــة وثالثة تدعي الرقص والغناء بدعوى انها تحضـــــرت".(4)

(1) ـ سورة النحل اية 120.
(2) ـ سورة اَل عمران اية 66.
(3) ـ مالك بن نبي ميلا د مجتمـع ص 78.
(4) . نفس المصدر السابق ص 78.

اذا علمنا و أن المجتمع في مرحلة الغريزة من الدورة الحضارية يفقد كل مايربط اواصره كأن تصبح بتعبيـــــر آخر طرق موضة محببـــة للقلوب التي تستمتـــع" بالاشراق النورانـــي " أو تصبح صالونات الآداب بالاندلس مراقص و ملا هـي بدعوى التجديــــد في التطور آو - التقدم الحضاري ، و تصبح الز خارف والعناية بالمنظر على حســـــاب المخبر غايـة هذا المجتمع أيضا كأن يحدث في يحدث من عجائب الف ليلة وليلة .

هذا على صعيـد العلاقات الاجتماعية ، أوعلى ما اصطلحنا عليه " بعالـــــم الأشخاص " أما فيما يخص عالم افكار هذه الحضارة في مرحلـة الغريزة ، فانها أيضا تصاب بالشلل " فقد تكفي لذعـة ابرة ليحل الشلل بالعلاقات الاجتماعية كما يكفـــي لاشيء (في مكان مـا) ليحل الشلل بالجهاز العصبي " (2) . وهذا ممثـــلا فـــي عصرالانحطاط من الحضارة الاسلاميـة أي أيام ابن خلدون حيث بقيت " المقدمـــــة" حروفا ميتـه و حين كانت مكتبات القيروا ن و فاس وغيرها تزخـر بالكتب دون أ ن تجـد بشأن عنها او حتى متصفحـا لها .

ان مرحلة الغريزة في الحضارة هي الطور الحضاري الذي ينبيء عن مجتمـــــع سمـاء مالك بن نبي بمجتمع مابعدالحضارة ، وهو ممثلا أيضا على محور الزمـن من وقـت سقوط دولة الموحديـــن بالمغرب العربي حتى عام 1868 حين بدأت ملا مح حضاريـــة تمهد للشيء في طريق النهضة ، لكن وكما مر معنا سارت على نصف الطريق فتوقفـت وللأسف على مايشبـــه " الارهاص" الحضاري.

الانسان المسلم ودوره التاريخـــــــــــــــــي:

لا يقصــــد مالك بن نبي بقوله علينا أن نهيء " الانسان الجديد" لكـــــي يقوم بدوره الحضاري نفس ماكان يقصـده الفيلسوف الألماني نيتشـه (1905...). حينما كان يدعو الى خلق " الانسان الأعلى " ([illegible]) لأن هذا الاخيـــر كان يريد منـه أن يكـون انسانا " ارادة" القوة " دائمـا وأبدا وكان يريدمنه " ان يكـم على التاريخ جماليا لا أخلا قيا " لأنه التاريخ في رأييتشـــه ماهو الأسعـــم نارية علينا ان نحكم جماليا لا أخلا قيا .

---

(1) - نفس المرجع السابق

المرجع السا بق،نفســـه ص78.

أما مالك بن نبي فانه يريد منه أن يكون صاحب " ارادة " الامكان الحضاري أ ي الانسان الحضاري الذي " يكدح " ابدا لكي تسعد ويسعد البشرية معه .

ولو تأملنا تفسير الفيلسوف الاسلامي محمد اقبال لمشكلة الانسان الذي لعبت به أيام التاريخ للاحظنا أنه وضعنا آمام " براهين " عوض أن يأتي لها بالحلو ل، كانت تلك البراهين . (حين انجر الفيلسوف الكبير سواء شعر او لم يشعر في طريق " القومية " الضيقة " صورة من ضباب شاخصة في كلا مه " ان الرياضة الدينية هي في جوهرها حالة من حالا ت الشعور بها ناحية فكرية لا يمكن كشف محتوياتها للغير الا في صورة حكم ، و عندما يعرض عليا حكم للتسليم به (وهو يزعم) ... فمن حقي أن أطالب بضمان لصدقة " (1) . فهو في هذه الحالة عوض أن يأتي لنا بالدواء للداء الذي يعانيه رجل مابعد الاستعمار راح بكل جهده يحاول ان يحكم حكما مسبقا على امكانية تبني آوتفهم أوعدم تفهم الرياضة الدينية وهكذا فلا حرج على المفكر الكبير اذا كان قدقال " انني اعرف الزمان اذا لم يسألني عنه أحد ا ماذا حاولت تفسيره للسائل فانني أجهله (2) . ثم ان الفيلسوف الاسلامي محمد اقبال لم يكن ليرى أن " معامل القابلية للاستعمار " هو الداء العضال لمشكلة الانسان و انما كان يرى آن المشكلة مطروحة فقط على صعيد ما يسميه بالغزو الفكري أي أنه كان يرى أن مشكلة الانسان تأتي بالدرجة الأولى في تحرير الانسان من " أفكار الاستعمار " وكأنه بهذا يعطي حلولا أخرى ملا ئمة لهذه المشكلة فهو يرى أن مشكلة " الاجتهاد" الذي غلقت أبوابه أمام رجل اليوم وعلى هذا الأساس حاول أن يرجع بنا الى أصل الاجتهاد هو القرآن والسنة يقول في هذا المضمار أ فلو أننا درسنا شريعتنابالنسبة للانقلا ب المنتظر في الحياة الاقتصادية فانه من المرجع ان تكشف في أصول التشريع عن أنواع جديدة لم تكشف لنا بعدمعها يمكننا ان نطبقه بايمان متجدد يحكمه هذه المباديء. (3) .

---

(1) ـ محمد اقبال تحديد الفكر الديني في الاسلام ترجمة محمود عباس ص13.

(2) ـ نفس المرجع السابق ص 68.

(*) ـ يقول في هذا المعنى " ... و صدقوني أن أوربا اليوم هي اكبر عائق في سبيل الرقي الاخلاقي للانسان .

و أما عن الدولة فهو يقول " انها في نظر الا سلام ليست الا محاولة لتحقيق الرومانية في بناء المجتمع الانساني ، ، و بهذا المعنى تكون كل دولة ليست مؤسسة على مجرد السيادة والسلطان بل تهدف الى تحقيق المبادئ المثالية ، دولة ثيوقراطية " (1) . و هي نظرة ضيقة يؤيدها بقوله"... وعلى هذا فالنظرية التي تقوم بقومية الدولةتجرنا الى الخطأمن حيث أنها تفترض ثنائية لا وجود لها في الاسلام " (2) .

و من هنا فلو تأملنا صاحب كتاب أقول الغرب ترجم تحت عنوان " تدهور " الحضارة الغربية "لشبنجلر" فاننا نلا حظ أنه حاول أن يصوب من جديد " مشكلة الانسان " على أنه مشكل حضاري لكنه " المدرك للسلبيات التي تجاوزها الزمن و التي بقيت مجر عشرة امام تقدم الشعوب نحو" المجال الحيوي الحضاري " (3) . و هي أيضا نظرة ضيقة حاولت تغطية الافكار الهدامة " بالا فكار الهدامة اذا سمح لنا التعبير و ما هو فيلسوف غربي آخر ينظر الى مشكلة الحضارة على أ نها نتيجة تصدع في المجال الاخلا قي اذا نظرنا كما يقول تنظرالى الأمور لا بالعقل بل بالغريزة يقول في هذا المعنى البرت شفيتزر " لقد فقدنا كل نظرة في الكون ولهذا فاننا بدالا من أن تشيع فينا روح قوية عميقة لتوكيد الحياة والعالم - نقول فاننا نسمح لانفسنا سواء بوصفها افرادا و امدا ان تساق ها هنا هناك بنوع من التوكيد مختلط سطحي معا ، و بدلا من أن نتخذ موقفا اخلا قيا محددا نعيش في جو مسحون بالجمل الاخلا قية ان نعد أنفسنا شكاكا اخلا قيين . (4).

ثم لا يلبث أن يلاحظ هذا الخطر الذي داهم الحضارة الغربية فيقول :
" انما نمخر بالسفينة في تيار مليء بالامواج العاتية تحت شلال هائل ولا بد من مجهودات جبارة لا نقاذ السفينة سفينة مصيرنا و من اعادتها الى المجرى الرئيسي ان كان ثمة أمل في ذلك ابدا.(5) .

(1) - المرجع السابق نفسه ص 194

(2) - المرجع السابق نفسه ص 179 .

(3) - شبنغلر تدهور الحضارة الغربية د/ الشيباني دارالكتاب اللبنانيبيروت سنة 1983 ص 1042.

(4) - البرت شفيتزر ، فلسفة الحضارة ، د/ عبدالرحمان بدوي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ص6.

(5) - المرجع السابق نفسه ص11 - * مأخوذة من الاية ... لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

كانت هذه مجرد ملا حظات عابرة أتينا بها شاهدين لأنــه في الحقيقــــة اذ كان مالك بن نبي قد شخص " مشكلة الانسان "وقدم " شروط النهضة وهيشـــروط في رأينا كافية للخروج من التخلف بمعناه العام فانه أيضا قد أعطىالدور التاريخــي الذي يجب أن يلعبه الانسان و هو دور تاريخي أعطي في نظرة من الآية :" هـــو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .." اذ في نظـــر مالك بن نبي فان الدور الحضاري للانسان يقتضي منه أن يكون آولا وقبل كـــل شيء " شاهـد" على الناس وحاكم على افعاله وحتى يمثل هذاالدور الذي تنتظـــره البشريـة منه عليه ان يقدم دائما الواجبات على الحقوق من جهـة و من جهـة أخـرى عليه أن تتحقق فيه شرطان (1) ، والاقتناع فالاول يعني به أن يقتنع بالفكرة القرانية أشد اقتناع و الثانية ان يقتنع الآخرين بما يملكه من اقتناعه للفكـرة القرانيـــة و بذلك يمكن له آن يؤدي دوره الحضاري لأنه كما يقول مالك ... فيجب أولا أن يرفع مستواه الى مستوى الحضارة أو أعلى منها كي يرفع الحضارة بذلك الى قداسة الوجود (2)

اذا حسب رأيه لا بدمن ارادة حضارية تلك التي تتجاوب و فاعلية " ان اللــه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأ نفسهم " و بذلك تصبح الحضارة هي " هذه الارادة ـ ارادة تحرك المجتمع .

و لقد كان من مشاريع الانسان " الجديد" المسلم حسب تصور مالك بن نبي حتى يتسنى له أن يكـون في مستوى الامكان الحضاري اقامة مشروع " الكو منويلث الاسلامي" ان فكـرة الكومنويلث الاسلامي هي ا لتي و جدها تمكن الفرد المسلم من اقامة علاقاته الاجتماعيـة حاملة لقيمـة خلقيـة ، وذلك بما تتضمنه من الفكرة من تقريب الشعوب الاسلاميـة الى غايتها المنشودة والتي هي التوجه نحو القبلة التي ترضي الله سبحانه و تعالى و هذا الحشــد للطاقات بهذه الصورة وحده يقضي على افتعال بعد المسافات الجغرافية من طرف البعض ، كما تمكن أيضا هذه الفكـرة من اقامة تكامل اقتصاديين شعوب العالم الاسلامـي و لاتقف عند هذا الحـد بل هي التي تمـد ايضا التعاون الثقافي بين اعضاء الكو منويلث الاسلامـــي.

---

(1) ـ مأخوذة من الاية " ... لتكو نوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا .

(2) ـ مالك بن نبي دورالمسلم و رسالته في الثلث الاخير من القرن العشرين موءسسة الرسالة الطبعة الثالثة 1977 ص 35.

يحددلنا مالك بن نبي فكرة الكو منويلث الإسلامي هذه فيقول :
أن الكو منويلث البريطاني في حقيقته تجمع دول ، ... بينما الكومنويلث الاسلامي يمكنه أن يكون تجمع شعوب " و يضيف " فاذا كان نموذج الكومنويلث البريطاني و ضع لكي يجاوب عن الوصايا السياسية ، فان النموذج الاسلامي يمكنه أن يوجد ليضعنا وجها لوجه أما م المشاكل المحددة نفسيا و اجتماعيا ..."

le COMMONWEALTH ,BRITANIQUE EST ESCENCIELLEMENT UNE ASSOCIATIOON D'ETAT ... TANDISQUE LE COMMONWEALTH ISLAMIQUE DOIT ETRE SURTOUT UNE ASSOCIATION DE PEUPLE" (1°).

"SI LE MODELE BRITANIQUE EST CONCU POUR REPONDER A DES PREOCUPATIONS POLITIQUE , MODELE MUSULMAN DOIT ETRE CONCU POUR FAIRE FACE A FACE AU PROBLEME D'ORDRE PSYCOLOGIQUE EST SOCIALE" (2)

ان الكو منويلث الاسلامي في نظرمالك بن نبي ليس موجها فقط نحو العالم الاسلامي و انما فكرته قابلة لأن يدخل فيه أي شيء ، لأنه كما يقول : " فهو الحاوي على عناصر عضوية محايدة " للعالم " المستملك ، العناصر المكونة لهويته و اصالته الظاهرة و لرابطته ، وهو الضام أيضا العناصر النفسية و للغايات التي يمكنها أن تربط العالم الحائربالعالم الاسلامي بنفس المبدأ المشترك " (1) .

و المقصود بالمبدأ المشترك هنا هو أن نكون مالكين لضمير أخلا قي ، هذا الضمير الاخلا قي هو الذي علينا وفقط أن نملكه و لأنه أصبح المعامل الوحيد الذي يستطيع ان يكسر شوكة أصحاب " ارادة القوة " و تعني بهم الدول التي كانت الى يوم ما ومازالت تستعمر الشعوب .

انظر : 1) MALEK BEN NEBI: L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE MOSQUE DES ETIDIANT ALGER p47.

2) IBID P47

3) IBID P22.

و يحذرنا مالك بن نبي من أنه علينا ان لا نغتر و لانترك الغرور يتسرب الى أنفسنا لتحقيق عمل شاهد كهذا والمتمثل في ايصال هذه الروح التي مازالت معنا الى "الرجل الابيض " مستعبدالشعوب ، و عمل كهذا وان كان شاقا جدا الاأنه يسير " تاريخيا" حسب ما أسفرت عليه كل من عصبة الأمم أو هيئة الامم المتحدة أو مؤتمرات جنيف أو با ندونغ أو حتى اخيرا لقاء " قورباتشيف " و " ريغن " حول تحقيق السلم والسلام العالمي وحده، وان هذا العمل الذي قلنا عنه أنه شاق في الحقيقة شأنه شأن أي فكرة ، اذا ما حولنا غرسها فان العناية الا لهية هي التي تتولى أمرها بعدذلك و في هذا المعنى يقول مالك بن نبي :

"LE GERME DE VIE N'EST QU 'UN SYMBOLE AU MOMENT OU LA PR OVIDENCE LE DEPOSE AU SEIN D'UNE MERE" (1)

خاصة و أنه فيه البعض الكثير من عالمنا الاسلامي بلغ بهم التشاؤم حده ، فتتبعناهم معا سالكين تارة " الواقعية" وتارة أخرى فخورين بجلدتهم والحقيقة ان السالكين تحت درب " الواقعية " يعوزهم جذور هذه " الواقعية " في تاريخهم ، و لاننتظر منهم - بعدأن يصبح لهم تاريخ - آن يكونوا قدوة للانسانية لانهم بهذا فان تاريخهم غيرتاريخ الرقعة الجغرافية التي امتد فيها النفوذ الماركسي باعتبار أن تاريخ هذه الاخيرة مر بأحقاب تاريخية مميزة حتى وصل اخيرا الى فترة تقسيم العمل هذا مالم تمرعليه " الواقعية " في عالمنا الاسلامي .

و ان الظرف جد ملائم لايصال فكرتنا الى الغرب و بالخصوص فاننا في العالم الاسلامي وجدنا أنه فية أشياء كثيرة تعفنت و ماتت فيه أشياء آخرى أكثر ، ضرورية لم تولد بعد ، اذا فالعمل عمل جماعي بالدرجة الاولى يقتضي فقط تحقيقا لـ :

أ - على الصعيد الفردي أن يحقق الفرد فكرته في نفسه و فكرته هي تلك التي تبعث من أصوله التاريخية أعني بها الفكرة القرآنية . و تحقيقه لهذه الفكرة في نفسه يعني أيضا اقتناعه بها أشد اقتناع " الايمان هو ماوقر في القلب وصدقه العمل"(1)

---

(1) - حديث شريف رواه مسلم في صحيحه .

1) MALEK BEN NEBI : L'IDEE D'UN COMMONWEALTH ISLAMIQUE P24.

و لايكتفي بالاقتناع بها بل يقنع بها غيره (وهو العمل المزدوج و المتكامل لتحقيق هدف الانسان الجديد عندنا في العالم الاسلامي و ان الظرف كما قلنا مواتي جدا اذ أنه حسب مالك بن نبي دائما فانه بقي فقط أن ننظر بعين خانه الى الاسلام كفكرة استطاعت أن تنهض و تقود البشرية يوما ما في التاريخ و نتيجة لظروف تعلقت بالانسان الذي حملها فقد أخرجها بعدالحروب الصليبية في زي الفكرة المتعفنة وهو ماأكده عصر مابعد الموحدين أي حينما اختينت الحضارة الاسلامية و يتساءل مالك بن نبي في كتابه " دورالمسلم ورسالته في الثلث الاخير من القرن العشرين " حول مستقبل الانسانية فراء عالم منشود في الغاية الاخيرة للبشرية وهي الفكرة الاسلامية كما قلنا و يصل الى تأكيند هذه الحقيقة من تحليل عميق جدا فرأى أنه لا يمكن للبوذية أن تحمل الرسالة العالمية لأنها تقوقعت منذ زمن بعيد في العالم الهندي كما أنه شطب عليها أيضا اخيرا السيد " ماو تسي تونغ " تحت شعار الثورة الثقافية ، كما أن الفكرة المسيحية قد انتهى بها التاريخ الى عصر سمي بعصر الاستعمار و تلته مباشرة فكرة التعايش السلمي لكن لا يمكن لفضائح الفاتيكان أن تكمل المسيرة من جهة و من جهة أخرى فانه لا يمكن لحضارة فقدت مبرراتها الثقافية ـ و هي الحضارة الغربية ـ في عصر " الوجودية " التي تمثلها صاحب " الامنتمي " ذاك الذي راح يبحث عن معناه في هذا الوجود " و في الحقيقة راح يبحث عن مبررات ثقافته هذا من الناحية الفكرية أما من الناحية الاجتماعية فان ظهور حركات"الهيبيز" و " جون ترافولتا" و غيرهم سول لضمير الحضارة الغربية أنها تبقى تسبح بجناح واحد في هذا الهواء الطلق كما قال الدكتور " محمد البهي " ، و ينبهنا مالك بن نبي الى أن الطاحونة و ان كانت لا زالت تدور فانها لا زالت تدور بفضل " خميرة " العصورالوسطى و بفضل عقول القرن السادس والسابع عشر و بفضل بعض الأيادي التي لا زالت متبعية السلم والسلام العالمي كالمنظمات و الهيئات العالمية الخاصة بهذا الميدان اذن فان المصير كما سبق هو أن الموت يقتل صاحبه بحسب ذنبه ، ولقد صدق من قال "...ليعذبنهم بذنوبهم..." .

.../...

و أخيرا لا حرج أن نؤكد أنه " من الملاحظات الاجتماعية أن للتاريخ دورة وتسلسلا ، فهو تارة يسجل للأمة مآثر عظيمة و مفاخر كريمة ، وهوتارة آخرى يلقي عليها دثارها ليسلمها الى نومها العميق " و فعلا ليسلمها الى نومها العميق حسب تقريرات أيضا " أفول الغرب " . انها صيحة المفكرين ، انها أيضا نذير الازمة الاقتصادية في عالم " تضخم الانتاج " انها أيضا عالة " فضائح " الفاتيكان " و هي اخيرا " يجب أن ينتهي التاريخ في نقطة ماكي يتجدد التاريخ من نقطة جديدة ... يجب أن يفشل التاريخ ، يجب أن يفلس التاريخ ، و احيانا يجب أن نعلق الافلاس كي نشعر الناس و خصوصا الشباب بان هذا الافلاس هو طريق البداية ...

اذا مع كل هذا فان " فلسفة الانسان لا زالت في الغرب رهينة تعابيـــــر و مصطلحا ت لا تسمح بالذهن الغربي أن يتصو ر وحدة الانسان و تضامن ملا حمتـــــه على وجه الأرض ... فهناك كلمات مثل " الأهالي " و " المولود" و " الاسود" والجلد الاحمر" تعبيـــرفي الغرب عن عينات انسانية سفلى وهناك عبارات تضفي علـــى بعض الاجناس صفات أو القاب معينة الى الابد مثل " الهندي الخفي " و " الغربـي غير المكترث " و " الصيني الغامض " ..الخ(1) .

هكذا اذا ينظرالغرب الى الانسان للاسف ليس في عالمـه المقدس ولكـــن ينظـــر اليـه في ادنى درجاتـه الحيوانيـــة .

ان الغرب يتكلم عن الانسان من منظار هذه الشحنة العنصرية المشبعة عـــن " معامل الكبرياء " الذي استولى ولطخ ضميـــر الرجل الغربي ، و هو الذي يعاني من عقدة يسميها علم النفس " بعقدة التفوق " Complexe de supériorité " هذه العقدة يعاني منها تجاه - طبعا - اخيه الانسان .

و الانسان من وجهة نظر الغرب هذا لا يمثل سوى كائنا من كائنات الطبيعة يتميز بخاصية من خصائصها وهي " الصراع من أجل البقاء " ومن هذا فان الغرب أكد حيوانية هذا الانسان ولم يرفعه الى القداسة ، قداسة الوجود كله ، فهـو اذا ينظـر اليه على أنه " الكم " الذي يجرب عليه ويسخرلكل الميادين التي يستولي عليها " العلم " يقول مالك بن نبي في هذا المعنى الانسان ليس " الكم " بل " الصفـة" التي قرنها الله بالتكريم في سلالة ادم بكرم هذه الصفة بصورة مطلقة ..."
فشرف الانسان محرم في الاسلام حتى في الصورة التي عليها ملا محه في قطعـــــة من الورق (و ليس كما هو في"الثقافة " الغربية) : " انه نقطة حقيـرة على وجــه الارض (1) .

أما الاسلام فقد أعطى الانسان كل حجمه في ضمير المسلم لأنه قيمته في هذا الالضميـــر لا على تقدير الكم ولكن على أساس غيبي يجعله قيمـــة لا متناهية " (2).

---

(1) - مالك بن نبي في مهب المعركة ص 164 - 165.

(2) - المرجع نفســـه ص 165.

مع الاشارة أن مالك بن نبي يقول في شأن القرن العشرين هذا " انه بمثابة ذاك النهر العظيم الذي تجمعت فيه جميع روافد التاريخ " .

اذا " فاليفلس التاريخ و ليفلس التاريخ وعليه أن يعلن الافلاس" والا غماذا يقول هذا التاريخ أي تاريخ القرن العشرين أمام الترتيبات التالية في ظرف أقل من ربع قرن حربين عالميتين لم يشهد هما التاريخ قط ، عمليات التسلح التي تمت ابان الحرب الباردة والتي لا زالت الى أيامنا هذه من القنبلة الذرية الى النيترونية الى الهيدروجينية الى غزو الفضاء غزوا عجيبا الى زرع البرشينغ الى الى...

اذا مع كل هذا فان " فلسفة الانسان لا زالت في الغرب رهينة تعابير و مصطلحات لا تسمح بالذهن الغربي أن يتصور وحدة الانسان و تضامن ملحمته على وجه الارض ... فهناك كلمات مثل " الأهلي " و " الولد" و " المولود" و " الأسود " و " الجلد الأحمر " تعبير في الغرب عن عينات انسانية سفلى وهناك عبارات تضفي على بعض الأجناس صفات أو ألقاب معينة الى الأبد مثل " الهندي الخفي " و " الغربي غير المكترث " و " الصيني الغامض" ...الخ (1) .

هكذا اذا ينظر الغرب الى الانسان للأسف ليس في عالمه المقدس ولكن ينظر اليه في ادنى درجاته الحيوانية..

ان الغرب يتكلم عن الانسان من منظار هذه الشحنة العنصرية المشبعة و " معامل الكبرياء " الذي استولى و لطخ ضمير الرجل الغربي ، وهوالذي يعاني من عقدة يسميها علم النفس " بعقدة التفوق " Complex de supériorité " هذه العقدة يعاني منها تجاه - طبعا - أخيه الانسان .

و الانسان من وجهة نظر الغرب هذا لا يمثل تمت ابان الحرب الباردة والتي لا زالت الى أيامنا هذه من القنبلة الذرية الى النيترونية الى الهيدروجينية الى غز و الفضاء غزوا عجيبا الى زر ع البر شينغ الى الى....

---

(1) - مالك بن نبي ، في مهب المعركة ص 162.

الفصل الرابع

مقارنة بين الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية

بعد تحليلنا لعناصر الحضارة ، و شروطها ، وحتى نتعرف على ميررا ت بقــاء حضارة قائمـة ، و اختفاء حضارة لا بد من أن تقلب صفحة نحاول فيهاأن نجـــــري مقارنة بين الحضارة الاسلامية و الحضارة الغربية ، ذلك مايلخصه لنامالك بن نبـــي عندما يجري هذه المقارنـة ـ طبعا لا لشيء سوى لاستخلا ص النتيجـة و " الأيام " * التي تضمن شروط بقاء حضارة في استمراريتها .

يقوم مالك بن نبي بالمقارنــة بين الحضارتين انطلا قا من بدأ هاتين الحضارتين* فيري ان الحضارة و كل حضارة تمثل في الواقع من انطلاقها شرارة الفكرة الدينيــة فــي المجتمـع الذي يكـون " خام " حتى تبعث فيــه الروح التي تنشطـــه .

فالحضارة الغربية (وهي الحضارة المسيحية) بنيت على أساس ماقام به يسوع عليه السلام في بيت لحم في فلسطين ، إلا أن المسيح لما نزل في بيت لحم هناك بالبلاد التي عرفت بعدذلك ببلاد الشام كان مجيئه في الحقيقـة لا سباب واقعية و نموذجيــــة بمعنى آن نزول الدين المسيحي هناك جاء بعد أن ساد الجهل و الوثنية في تلك المنطقة التي كانت مجال الصراع الامبراطو ريتيـن الرومانية و البز نطية خاصة منذ فجر التاريخ اذ فان المنطقـة كانت منطقـة مجال تصارع الأفكـار بالدرجة الاولى " والحقيقة نقــول اذ منطقة مايعرف اليوم ببلاد فلسطيــن و سوريا و لبنان " كانت منذ فجر التاريخ عمر ، اقل شيء ـ لا كثـر من حضارة " (1) . ولهذا السبب وحده نعرف و أن هاته البــلاد لما نزل فيها الدين المسيحي و جد انذاك بنـو اسرائيل ، وكما هو معلوم من القرآن الكريـم افتراءا ت بنو اسرائيل على عيسى و الانجيل المسيحي ، " اذا فان مهبــــه الوحي المسيحي حسب نظرة مالك بن نبي كان يعاني تزاحم أفكـار ـ كما أسلفناهــــا و هذا السبب كان كافيا لتبرز مدى تأخر المسيحيـة في الانتشار في العالم ـ بالرغــم من أنها أتت قبل الفكـرة الا سلاميـة بحوالي 7 قرون ، هذا من جهة ومن جهة آخرى ان تأخر المسيحيـة في الانتشار عاد بالتالي الى تلك التحريفات التي منيت بهــا .

* نقصد "بالايام " ماجاء في التعبير القرآني " و تلك الايام نداولها بين الناس "
* و ليس من واقع هاتين الحضارتين ـ الحضارة الاسلامية والحضارة الغربية بأخلاق ما تقوم بـه الدراسات الانتروبولوجية ، لكي تولدفقط فكـرة العنصرية بين الشعوب " البدائية " و الشعوب المتحضرة .

(1) ـ ويل ديورا نت ، قصة الحضارة الجزء الخامس دارالكتاب اللبناني منح خوري 70ـص ٢٦٣

خاصة بعدوفاة المسيح (تعددالاناجيل الى أكثر من واحد خير شاهد على ذلك).

و للانصاف نقول أن المسيحية لم تنتشر نتيجة لما كانت المنطقة التي ولدت فيها في تزاحم فكري هائل وعظيم .

أما الاسلام فلما كان حسب مالك بن نبي مهبط الوحي فيه هو غار حراء الذي عرف كنقطة في مكة أو اشعاع روحي و بالتالي أول دفعة للفكرة الاسلامية ، حتى أن مكة بالرغم من أنها كانت أول بيت وضع للناس - لم تعرف تلك الزحمات الحضارية التي عانتها بلاد مهبط الوحي المسيحي بل بالعكس فان مكة كانت أرضا عذراء خصبة لهذا السبب وحده تمكن محمد(ص) أن ينشر الرسالة وأن يبلغها الى المعاصرين له ممن كان على قيدالحياة ، ثم ان تبليغ الرسالة ، لم يكن ليحصل لولا أن القرآن كتاب الاسلام كان قد شد النفوس اليه فتمكنت منه و حفظته رأسا على عقب " انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون " (1) .

و من هنا أخذت الفكرة القرآنية فاعليتها - اذلم يلحق بها أي تحريف - حتى رأينا أنه خاصة على أيام صحابة رسول الله وبعدهم مباشرة فتحت البلاد الاسلامية - انطلاقا دائما من مكة والمدينة - كل من بلاد الشام و مصر والشمال الافريقي والعراق وايران حتى الهند والصين ، و توغل الاسلام بعدذلك في جنوب أوربا و أواسط افريقيا ، انها القفزةالكبيرة على مجال التاريخ - ضرف لا يتجاوز خمسين سنة .

و بخلاف هذا وجدنا الفكرة المسيحية بالرغم من انها كماقلنا انطلقت من بيت لحم الا أنها بعد وفاة المسيح تقوقعت هناك فقط نتيجة لما ذكرناه من اسباب حتى أن الفكرة الاسلامية تمربمشكلة ما سمي بفترة الحكم الاموي وعصر الحضارة الذهبي ، و تنتهي الى عصر الانحطاط وهوما يرمز له سياسيا و عسكريا أيام سقوط غرناطة سنة 1492 .

---

(1) - سورة يونس آية 10.

خلا ل هـذه الجولا ت الحضارية التي قضاها الاسلام في هذا الرقي الحضاري و هذه المكانة ظلت آوربا تنتظـــــر بفارغ الصبــــر ما تجلبه لها الحروبالصليبية من عالم البلاد الاسلامية ، وهكذا رآينا بعدتلك المعارك كانت بدايات النهضـــــة في ايطاليا معقل " الفاتيكان " و حكمة الله في خلقـــه : " أو لم يروا أنا نأتـي الارض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهوسريع الحســـــــاب"(1)

اذن فالحضارة الغربية في نظـــر مالك بن نبي هي نتيجة لـ " تخمـــــــر" الفكرة المسيحية خاصة لما وصلت الى نفسية الرجل الجرماني ، اذ انها بعـــــد أن طاب بها المقام كما ذكرنا لم تكن لتجد سوى أن تعلن الهجرة حتى و صلت الـــى الشعوب الجرمانية هاته ، وذلك لا سباب معقولة هي أية اذا كان مجال ظهـــو ر الديانة المسيحية في فلسطين و الشرق الأوسط بصفة عامة فانها وجدت نفسيـــة الشرقـــي مفعمـــــة با فكار صارعت الفكرة المسيحية و بالتالي حملتها على الهجرة الى خارج بيت لحم اني وجدت " الأرض العذراء " هناك في الشعوب الجرمانيـــة " الشروط المتاحــــة " الملا ئمة لأن تلك الشعوب لم تكن تعرف صراعا فكريـــــا و في هذا المعنى يقول مالك بن نبي " فمن هنا نرى أن الموجة التي اغرقتالامبراطورية لم تتولد في النطاق الامبراطوري او في النطاق الجرماني بل هناك بعيدا في شمـــــال آسيا " (2) .

اذا هذا خلا فا لظهور الاسلام الذي بنى حضارة اسلامية بالرغم من التفاو ت الزمني بيـــن الديا نتيـن لأن الاسلام نشآ هناك في مكة الا رض العذراء وهكـذ ا و جدت الفرصة لظهور الحضارة الاسلامية قبل المسيحية " و هكـذا تتجلى لأذهاننا حقيقة جوهرية في التاريخ هي دورة الحضارة وكل دورة محدودة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معيـن فهي حضارة بهـذه الشروط . (3) .

---

(1) - سورة الرعد آية 42.

(2) - ما لك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي عبدالصبور شهين ، دار الفكر دمشق 1982 - ص 22.

(3) - المرجع السابق نفســـه ص 23.

اذا فبعد تلك الهجرة التي استطاعت بها المسيحية أن تولد مرتين نلاحظ عامل مهم هو ظهور القديسين في آوربا (في ايطاليا خاصة) الذين عملوا على ترسيخها في المجتمع الغربي و من جملتهم ظهور التدريس توما الاكويني * " Thomas d'Aquin " (1274م) خاصة عندما كان يهتف " انني مسافر في هذا العالم و محبط ترحالي في العالم الآخر " و ازدادت المسيحية تثبيتا عندما بدأ عالم أفكار أوربا في الظهور بداية من عصر النهضة الاوربي بتلك العقول سيرتها كالعقل الديكارتي * أو عقل الثورة الكوبرنيكية * أو غيرهم من العلماء الفلاسفة و المفكرين الذين ظهروا ابتداء من القرن الرابع عشر فالخامس وما تلتهم من قرون اضافة الى تو ترات الاصلاح - ثورة لوثر - التي قامت في اوربا قبل هؤلاء .

يزيدنا مالك بن نبي تحليلا عن توسع الحضارة الغربية عن ازدهارها ، فلقد استطاعت بتلك الأفكار أن تبقى عالم أشياء أوربا و تشحذ سلوك بتأثير - سواء عن وعي أو عن غير وعي - من تخمر الفكرة .

و هكذا تمكنت الحضارة المسيحية من رفع مستوى الفرد الاوربي الى مستوى " الامكان الحضاري " غير أنه يعاود الكرة وينتقد الحضارة الغربية عندما ينظر الى أن " عالم أفكار اوربا " انطلاقته سيئة اذ أنه لم يكن منطلقا الا ممثلا لفكرة أنا أفكر اذا أنا موجود" الديكارتية ولهذا لمسنا عصرا كانت فيه " الأنا الأوربية " بلغت اوج ذروتها في " التضخم . اذا فان التضخم أصاب اوربا لما تأثرت بفكرة الكوجيتو الديكارتية التي كانت مبنية على " الانانية " ".

و هكذا لمسنا هذه الفكرة نفسها أعاد بناءها ادم سميث في المجال الاقتصادي بفكرته " دعه يعمل دعه يمر " مما سبب التالي : مشكلة فتح اسواق خارج آوربا لكن دون هذه المرة " الفتح " ممثلا " بالاستعمار - طبعا لأنه انطلق من ارضاء شهوة

---

* - القديس توما الاكويني " Thomas d'Aquin " لا هوتي ايطالي و صاحب علم اللاهوت في المسيحية ولد في 1225 وتوفي في 1274م .
* - نسبة الى الرياض الفيلسوف الفرنسي ديكارت و 1586 - 1650) .
* - نسبة الى الثورة التي اقامها كل من غاليلي و كوبرنيك في الفلك .

حا جيـــة ـ فعرفنا نحـن الشعوب المغلوبـة على ا مرها بداية من القرن 15 حتــــى القرن العشريـن عصورا مظلمـة ،العصور التي لم يعرف التاريخ مثلها خاصة مــــع بداية القرن العشريـن الى أن حصل للنفسية الاوربية الشرف أن تبحث بكــــل الوسائل اللا أخلا قية و تسد ما تشبع به شهوتها من اسواق خارج اوربا .

و حينئذ ظهـر الاستعمار كالجبروت مدعيا تحضير الشعوب الاخرى لكنــــه مستغلا لخيراتها ـ و كيف يعيش " الذئب والخروف تحت سقف واحد".

انتهى عصرألاستعمار بما " يشبه الاستقلا ل " لفائدة الشعوب المستعمرة ، لكنه في رأي مالك فان الشعوب لن تعرف الاستقلا ل و الحرية الابعد أن تتخلص من"معامل" نفسي وهو " القابلية للاستعمار" " Décolonisabilité ". يقول مالــك بن نبي هناك نتيجـة منطقية وعلميـة تفرض نفسها هي لكي تتخلص من أثر هــــو الاستعمار يجب أن نتخلص من سببــــه وهو القابلية للاستعمار"(1).

و مالك بن نبي ينتقد فكرة ابن خلدون عن الحضارة ، بنظرتيه في الأجيــال الثلاثة : " وهي نظرية ضيقـة تعكس لنا النفسية الاسلاميــة آنذاك "(2) . و ينتقد ايضا النظرية الماركسية " التي تتعارض مع منطقها ... من الحيوانية البدائيــــة الى عهـد يسود فيه الرخاء و الضمير والحرية " (3) . و بناء على هذا كلـه فان مالك بن نبي ينظر الى " الحضارة " انما لا تفهم الا من دراسة لأسباب الانحطاط وليـــس بمعزل عن هذه الاسباب ولقد أكدنا هذه النظرة سابقا ، وهكذا بنظرة فاحصــــة في اعماق التاريخ الاسلامي و حضارته فيرى ان الأزمة في الحضارة الاسلاميـة بدأت من معركـة "صفيـن " 37 هـ ، ففي رأيه كانت تلك المعركـة بداية لتزعزع ضمير المسلم، اذ عـوضا ان يصبح يتكلم بلغة الدين أصبح يتكلم بلغة السياســة . و بتعبيـــر أدق و قع في ضميـــره شيء من التفرق في ماذا يتبع عالم السياسة ،او عالم الدين ، و بايجاز فاننا نقول بأنه جعلت ـ أي معركة صفين ـ"الضميــــر الاسلامــــــي"

(1) ـ راجع فصل شبكـة العلاقات الاجتماعية والاستعمار في كتاب ميلاد مجتمع لنفس المؤلف و لمزيدمن التفاصيـل راجع فصل القابلية للاستعمار في كتاب شروط النهضة لنفس المؤلف .

(2) ـ مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسمي ص 23.

(3) ـ المصدر السابق نفسه ص 23.

يعتقد بأن هناك فرق بين الدين والسياسة و أن همته بأن الدين غير السياسة ، -
والحقيقة لم تكن كذلك ابان الفجر الاسلامي مع نزول أو ل آية من القرآن -
(والمتتبع للقرآن الكريم فانه يجدفيه دينا من سياسة الحكم و التشريعات القانونية الكثيربمعنى أن الدين ضم في جنبيه السياسة) ، لهذا إن اختمال ذاك الشكل من الدهاء السياسي من طرف معاوية - رضي الله عنه - الذي" حطم " ذاك البناء الذي قام لكي يعيش ربما الى الأبد بفضل ما ضمنه من توازن بين عنصر الروح و عنصر الزمن " (1) .

ان واقعة " صفين " والتي حرض فيها معاوية الجند في الشام لكي يفوز بالملك ضد علي رضي الله عنه - و اتباعه ، حينما قال لجنده ارفعوا المصاحف على الرماح و قول " هذا حكم بيننا ، طبعا انها شكل من اشكال"الاريحية " كما سماها الاستاذ محمودعباس العقاد ، و كما هو معلوم بالرغم من أنه ردعليه بمقولته المشهورة " كلمة حق اريد بها باطل " فانه والحقيقة تقال أن الضمير المسلم وقع في ذاك الوهم بين اختياره الدين أم السياسة ، كماقلنا .

و بناء على هذا لا حظنا وأن الحضارة الاسلامية أعطت للانسانية عصرا ذهبيا انتج ما انتج من " العقل الاسلامي " انذاك ، و هو في هذه الحال لم تكن مثلا في نظر مالك بن نبي مدارس علم الكلام اخوان الصفا و كل من الكندي (و803م) والفارابي(890م) وابن سينا (م 1037م) لتحل مشكلة ذاك التفكك للضمير الاسلامي الذي حملته الدورتان التاريخية الى عصرهم حتى اننا كنا نلاحظ ذاك الشجار الذي داربين " تهافت الفلاسفة " و" تهافت التهافت لابن رشد (م1198م) رمزا و محاولة عقلية لاعادة بناء ذاك التفكك لذالك الضمير ، لكن هيهات إ، كان احسن من عبر عن تلك " الروحانية " التي أتت " بالمنقذ من الضلال " ولكن أيضا هيهات ! لأن " الداء " قد تغشى في تقاليد وعادات المجتمع الذي واكب الغزالي (م1111م) .

(1) - المرجع السابق نفسه ص 23.

حتى أننا ايضا لمسنا الكثير من نماذج الغزالي ، كرابعة العدوية (ق10) والحلاج (ق10) و غيرهم ، و تقاود " العقلانية " الخلدونية لتطغى هذه المرة في " المقدمة" لكن تبقى في المقدمة " حروفا ميتة " لأنه لم تكن لتكفي آنذاك مكتبات القيروان و لا بغداد و لافاس أن تعرف بالحقيقة لأن العصر عصر الانحطاط : انتى تمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية تماما لذاك المجتمع الذي واكب ابن خلدون ، اذا فحتى العقل " يخمد اشعاعه ... عندما يفقد الانسان " قوة الايمان"(1) .

و يؤكد مالك بن نبي هذه الحقائق التاريخية فيقول : " و لكن أوضاع القيم تنقلب في عصور الانحطاط * بحيث تبدو آصا غر الامور ذات خطر كبير ، فاذا حدث حادث انهار البناء الاجتماعي اذ هو لا يقوى على البقاء ، بمقومات الفن و العلم والعقل و حسب لأن الروح و الروح وحدها هي التي تتيح للانسانية ان تنهض و تتقدم ، فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة و انحطت لأن من يفقد القدرة على الصعود لا يملك الا ان يهوي بتأثير جا ذبية الارض " (2) .

و ينتقل بنا مالك بن نبي محللا تاريخيا الحضارة الاسلامية حتى يصل الى نهايتها. ففي رأيه ان واقعة " صفين " لم تكن سوى بداية " فكرة محذولة" انتقمت هذه الفكرة من العالم الاسلامي لما أصيب خاصة بداء " الرجل المريض": لما أصيب في القرون الاخيرة بالسيطرة الاستعمارية من طرف الاسبان ابان العثمانيين و من طرف الدول الاستعمارية الغربية خاصة في القرن التاسع عشر .

و للحقيقة يقول مالك بن نبي " حتى اذا و هنت الدفعة القرآنية توقف العالم الاسلامي ،كما يتوقف المحرك عندما يفقد آخر قطرة من الوقود " (2) .
و فعلا فان المحرك عندما توقف فهو لما اصيب به من تعطيل ، و لا يعود السبب حينئذ الى الطاقة الدافعة ، لأن هذه الطاقة الدافعة " و هنت " أي لم يعد لها مفعول في حياة النفوس الضالة ، حياة النفوس التي صدت عن الحق ، و ليس معنى هذا أيضا أن الطاقة هذه هي الأخرى لم يكن لتستطيع أن تعمل عملها كما كانت عليه سابقا ، و الا فما ذا يا ترى يقول عند تلك الحضارة التي يقال عنها انها ،

---

(1) ـ المصدر السابق نفسه ص 26 .

(2) ـ المصدر السابق نفسه ص 27.

أخصب الحضارات ، اذا فالمحرك " أي الذوا ت التي تتحرك " هي التي شلت سواء بالطريقة الخارجية أو الداخلية ، بالطريقة الخارجية بمعنى الاجتماعية وهي هنا " القسم " الداخلي " الحتمية " البيولوجية بمعنى " اتباع طريق الشهوا ت " الذي هو غير طريق " الهد ى " و حسب مالك بن نبي في هذه النقطة ايضا فان المسؤولية تقع على اكتافنا نحن المسلمين " الشعوب المستعمرة " لأن الاستعمار ، أوالشيطان لم يكن سوى بمثابة الراية الحمراء التي يلهو بها الثور الاسباني فعوضا أن يتوجه هذا الثور الى " الشخص" الذي يصيبه بالسهم - و هوهنا القابلية للاستعمار - فاننا نراه يتوجه الى تلك الراية الحمراء خاصة و ا ن لونها الاحمر مزعج لهذا الثور ، فكذلك نحن عوضا ان نتوجه الى تنقية افكارها و تصفيتها من ماحمله لنا عهد مابعد الموحدين ، فا ننا ترانا نلجأ الى تلك العمليات والنداوا ت و التنديدات التي تصبح الى حد ما شبيهة بالشطحات الصوفية " ولن تكفينا ألف الخطب السياسية لتغيير مابنا " (1) .

و مالك بن نبي عندما يقول كل هذا فهو يتكلم من تلك النظرة " الفطرية" حتى أنه يرى " أن الايمان لم يفقد مطلقا سيطرته في العالم الاسلامي حتى في عهود الانحطاط فالدين اذا هو " مركب القيم الاجتماعية وهويقوم بهذا الدور في حالته الناشئة حالة انتشار ، و حركته عندما يعبر عن فكرة اجتماعية " (2) .

و بعد هذا كله فان العالم الاسلامي اليوم حاول أن يقيم نهضة فماذا يقول عنها مالك بن نبي :

يبدأمالك بن نبي آو لا بأن نهضة عالمنا الاسلامي كان هناك " ظرفا" محفزا لها هذا الظرف هو " العامل الاستعماري " لقد منح نشاط الاوربي - حين منح تنسان مابعد الموحدين الهاما جديدا لقيمته الاجتماعية ، حين نسف وضعه الاجتماعي الذي كان يعيش فيه راضيا وحين سلبه و سائله ... و انسان اوربا قام - دونما قصد - يدور " الدينا ميت " الذي نسف معسكر الصمت والتأمل والاحلا م " (3) .

---

(1) - مالك بن بني بين النية والرشاد ص 88.

(2) - مالك بن نبي وجهة العالم الاسلامي ص28 .

(3) - مالك بن نبي ، وجهة العالم الاسلامي ص42.

و من عنا تولدت الحركات التاريخية ممثلة في تيارين :

التيار الأول : و هو الذي كانت بدايته ممثلة في ذاك السوفي المجاهد "ابن تو مرت" الذي كان الحافز الروحي لاقامة دولة الموحدين في الشمال الافريقي ، وهذه الاخيرة كان لها أن تعكس - و بتواطوء من الدولة العربية - في ماسمي بالدولة الوهابية ، التي ظهرت بقيادة الحركة الوهابية ، و بعد نصف قرن سوف يكون أيضا الضمير الذي يستجيب لهذا العمل السياسي الذي نشأ في الشرق هو ، ضمير " جمال الدين الافغاني " (المتوفى 19 م) و تلميذه الذي يأتي بعده وهو "محمد عبده " (المتوفى 19 م) و ان الجهود التي قد مها هوءلاء مع غيرهم من حركة الاصلاح لهي جهود اثمرت بكاملها ماسماه مالك بن نبي بارهاص " نهضة" و ليس نهضة للعالم الاسلامي ، لأن الأول أي " جمال الدين الافغاني " كان زعيما دينيا سياسيا و بهذا المعنى راح عوض أن ينهج النهج الديني والديني وحده القائم على آية " ان الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم " (1) .

فانه نهج نهجا سياسيا أو بالا حرى فانه رآى أن مشكلة العالم الاسلامي مشكلة سياسة بمعنى أنه بمجرد تغيير أنظمة الحكم (للخروج من عهد مابعد الموحدين) . فالافغاني رأى أن المشكل سياسي كما كنا نلتمس من تلميذه محمد عبده أيضا تكملة الحل باعطاء حل جذري لمشكلة العالم الاسلامي ، فان هذا الاخير رأى ايضا أن المفتاح بيده عندما كانت انطلاقته لتحديد ووضع أسس للثقافة الاسلامية ملخصة في ما يشبه علم الكلام في " رسالة التوحيد " و هو الزعيم المعلم الاول للاصلاح الحديث ، نظر الى ان مشكلة العالم الاسلامي يمكن التغلب عليها بتعليم " الفرد " ، " فلقد كان الشيخ عبده يعلم علم اليقين ، انه لكي يتحقق الاصلاح يجب أن يبدأ خطوته الاولى من الفرد " (2) .

ولقدكان الشيخ محمد عبده بحاجة الى فكر ثوري كالذي كان عند استاذه جمال الدين الافغاني ، هذا الاخير بحاجة نظرة الى النفس " الفردية " التي تريدوتحبب الاصلاح بمعنى أن حركة جمال الدين كان ينقصها طابع " الوعي الاسلامي والارشاد".

---

(1) - سورة الرعد آية 11.

(2) - المصدر السابق ص 47.

اذاً كل من الافغاني ومحمد عبده ، نظرا على جدى لمشكلة العالم الاسلامي فلم يكن التلميذ ليتوافق مع أستاذه - على خطة تراعي العوامل النفسية التاريخية أي تراعي أن مشكلة العالم الاسلامي هي " مشكلة ثقافة " بالدرجة الاولى و " الثقافة " هنا ليست تلك التي انحدر اليها كل من نهج نهجاً اصلا حيا بعد النهضة ، اذ كما يقول مالك بن نبي - سواء منهم أولئك الذين تخرجوا عن المدرسة الغربية أو الذين كانوا متخرجين كأ زهـريين أي عن المدرسة التقليدية.)...

(وهنا يوءتي بنا المقام الى الحديث عن " الحرفية " فلقد العبقرية العربية أجمل لغات الدنيا ، و لكن هذه العبقرية كانت في موقفها مما ابدعت ، كالمثال الذي هام بتمثاله ، وقد أبدعه منقا شة ، و الغرام بالكلمات أعظم خطرا من الغرام ب ... بالمعدن أو الرخام أو الحجر ، فهو أولا و قبل كل شيء الى أن يفقد الانسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح" (1) .

و هكذا ترتب حسب رأي مالك بن نبي عن الاصلاح : " التعلق الواهم بالكم " و تلخصه حتى عند الذين احتكوا بالثقافة الغربية ، والنزوع الى" الشعر" قد انفردت به شبيبة جامعة الزيتونة . " (2) .

هذا كما قلنا ماجاء به الاصلاح منذ أكثر من قرن و نصف قرن ممثلا في المدرسة الافغانية . و اما حديثا فان الحركة الاصلاحية اتخذت شكلا آخر سواء منها تلك التي تخرجت من المدارس الغربية و الممثلة في تلك الدفعات الطلابية أو تلك التي مارست نشاطها الروحي في ديار الاسلام . .

ان ماتجلى وانعكس عن ذاك الاصلاح هو " ضمير المغرب الاسلامي" الذي مثلته الحركة الاصلاحية الحديثة في الجزائر ولكم كان لها دور كبير في دفع عجلة التاريخ الى انشاء " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، تحت الزعيم الروحي لها العلامة الرائد عبدالحميد ابن باديس ويقال عنه حسب مالك بن نبي أنه الرجل الذي كان بمثابة " اشعاع الفجر" في أرض الجزائر والعالم الاسلامي ككل ، لكن المرض الذي كانت مصابة به هذه الجمعية انما هو " و كأن الجمعية تتقبل الاشياء كهديا و تغفل عن هدية الأفكار ." (3) .

---

(1) ـ نفس المصدر السابق ص 52.

(2) ـ نفسه ص 54

(3) ـ قيل هذا الكلام بمناسبة اهداء كتاب مالك بن نبي شروط النهضة للجمعية غير انها لم ترد عليه بكلمة تشكل طبعا لأنه حسب رايها ، ان كاتب هذا الكتاب " فرنسي عميل الاستعمار " .

و هكذا لا حظنا أيضا تلك القفزة التي قفزتها شعوب العالم الاسلامي خاصة بعد عام 1952 بقيادتهم مصر العربية ، ومالك بن نبي معجب بذاك التطور الذي توصلت اليه هذه الشعوب ، غيرأنه يلاحظ عليها أنها و قفت موقفا شبيها بموقف " الزبون "الذي يشتري السلعة (لكن هذه المرة من البلاد الغربية) عوضا أن تنهج نهجا سياسيا يساعدها على توجيه ثقافتها و اقتصادها ، كما فعلته اليابان حينما و قفت من الغرب موقف " التلميذ الذي تعلم " العلم " من الغرب وعمل به فيبلاده .

و لايغفل مالك بن نبي الدور الذي لعبته "طاقة " جديدة في العالم الاسلامي هي تلك التي نشأت مع بداية عام 1928 تحت زعيمها الذي اقام شيئا فقدته كل حركات الاصلاح ذاك الذي كانت الحركة الاصلاحية بحاجة اليه بداية من الافغاني حتى ابن باديس فأنها قدمت نموذجا لعمل " المؤاخاة " عوض انها تقيم نموذجا " للاخوة " (والذي في رأي مالك بن نبي أن " المؤاخاة " أكثر روابط وأواصر من " الاخوة " ان هذه الطاقة الجديدة كانت بزعيمها مثال اعادت صورة عن ذاك المجتمع المدني مجتمع المؤاخاة بين المهاجرين والانصار .

الخاتمة

الخاتمـــــــــــــة

ان بحثنا هذا المتواضـــع ، كشفنا من خلا لـــه عـن بعض النتائج تتمثـــل في التالـــــي :

أو لا : ان الخلدونيـة في فكرتها عـن التاريخ كانـت قـد أولـــت عنايـــة كـبرى بتاريخ دويلا ت المغرب الاسلامي ، وكيف مرت هـذه الدويلا ت من مرحلـــة الى مرحلـــة أخـــرى لكي تصـل أخيـــرا الى التفسخ و الانحلا ل ، أو بالاحرى كيف مـــر تاريخ هـذه الدول من الطفولة الى الشيخوخـــة .و الهرم انه مفهوم بيولوجـــي لتطور الدولـة و هو بهـذا المعنى لا يفســـر لنا محتوى العلا قات الاجتماعيـــة ا خذا طبعـــا بعين الاعتبـــار العصبيـة كمفهوم بيولوجـي ، ثم وان كان كذلـــك فانه يقدم لنا نموذجا للتاريخ الذي يتسـم بالدوريـة ، نضـف الى هذا أن الحيـــاة الاجتماعيـــة هي غيـــر الحياة البيولوجيـة ، فاذا كانت الاولى تحتاج الى عالـــم أو مهندس اجتماعي ، فان الثانيـة تحتاج الى عالم حياة ، و هناك تباعد بيـــن الحيا تيـــن .

ثم أننا لما انكبـــبنا على دراسة التاريخ كتطور لمجتمـــع معيـــن وهـو مجتمع المغرب الاسلامي بقيـت ضيقـــة في مجال الجغرافية كما بقيت أيضا فـــي مجال الشامـــل للعالم .

و اذا كانت الهيجليـة رغم تأسيسها للمنطق الجدلي و اعتمادها عليـــــه مستعينـة بفكـرة العقل " اللوغوس" فانها لم تتمكن و قننت عقلا نيتهـــــا في التاريخ ، و الا فكيف بها تنطلق من أن العقل هوغايـة التاريخ الانسانـــي لتعود عن قولـــها بفكـرة أن الشعوب الجرمانيـة هي وحدها غايـة التاريـــخ الانساني.و اذا كانت كذلك فبماذا تفســر" العقـل" الذي يقييم من جهـــة هذا التمييـــز العنصري بين الشعوب ومن جهـة أخري فبماذا تفســرهذا العقـــل الذي باسم العقل استعمـر شعوب و هل هنا ان التاريخ هو الهيمنـة والسيطرة ؟ فاذا كان كذلك فهذا يتنافى عندها مع فكـرة اخرى و ليدة العقل الا وهي فكرة الحرية ،اذا

.../...

فالتاريخ قد يأخذ تفسيرا آخر، و فعلا وجدناه مع فكرة الاقتصاد التي نالت بها الماركسية كي تكون مخلصة للشعوب من عصر يسمى"عصرالاستعمار" هذاسياسيا و كي تكون مثبتة لأسس أخرى كالعدالة الاجتماعية و السلام اجتماعيا أيضا. فان الديا ليكتيك الماركسي بالرغم من أنه و جذر أسسه في قلب الهيجلية. الا ان الفكرة الماركسية تقيم السيرورة التاريخية دورة مغلقة (من المرحلة المشاعية، الى المرحلة الشيوعية)، فيها نوع من التفسير الضيق، و الواقع أكد لنا هذا " فالواقعية " أخرجت " العقلانية " التاريخية من المأزق و لم تخرج الانسانية من المأزق، خصوصا وأن دائرة التنبوءات التاريخية لماركس نجحت مع شعوب " العقل " (كالشعب السويدي) و لم تنجح مع شعوب أخرى عبر قارات العالم المختلفة.

و لقد عوض تو يينبي فيلسوف التاريخ الانجليزي فكرة طرفي المنطق الجدلي بفكرة التحدي - والاستجابة ووضع لها شروطا، و هي محاولة منه لسن قانون و الحركة التاريخية من جهة، و من جهة أخرى فهي محاولة :" ضمير " استرجع انفاسه، تلك الانفاس التي تقطعت بها الاسباب في معركة " ستالين غراد" و معركة " العلمين " و لكنها محاولة ايضا تندى لها ضمير التعايش السلمي بعد الحرب العالمية الثانية، و حصل لها كل هذا في اعتقادنا لأن الفكرة هي أولا و قبل كل شيء تولد في مناخ ثقافي عبر عنه عصر"غليلي" باعلانه الطلاق بين الدين المسيحي والعلم، كما عبر عنه عصرالاستعمار بشكليه المعروف والمقنع: الجديد، و بقلب مالك بن نبي صفحة جديدة في سنه للأسس الاولى للحركة التاريخية معلنا مع مفكرو ا " الأزمة العالمية المعاصرة " يجب ان ينتهي التاريخ يجب ان يفلس التاريخ، يجب ان نعلن الافلاس، يجب ان ينتهي التاريخ في نقطة ما كي يتجددفي نقطة أخرى.

لذا فانه أقام فكرة التاريخ في حركيتها على ضوء القرآن الكريم بداية من"الفعالية " و " الوعد والوعيد"، و مرورا برسم العوالم الاساسية لهذه الحركة التاريخية، والمتمثلة في النشاط المشترك لكل من"عالم الاشخاص "

.../...

و"عالم الافكار" و عالم " الأشياء " نحو سمم غاية واحدة هي عالمية الحضارة ...
و الحضارة وحدها .

و الحقيقة أن النتائج التي توصلت اليها من خلال تفحصي لفكرة التاريخ
عند مالك بن نبي هي :

أو لا : أن رسم المعالم الاولى للانطلاق في الحضارة لا يعني التحضر بل يعني
امكان تحضر .

ثانيا : ان البحث في فكرة التاريخ لا يعني ابدا مدح التاريخ و البكاء على اطلاله
ان اردنا أن نقيم حركة تاريخية .

ثالثا : ان حركة التاريخ أي كانت لا تأخذ بمقوماتها "بدعائمها " الاساسية
هي ضرب من الشفافية للتاريخ ، و يبقى الغبار على هذا التاريخ.و رابعا ان التعامل
مع الحركة التاريخية يعني أولا و قبل كل شيء شحذ المفاهيم العالمية لفكرة التاريخ.
وخامسا : ان التسلح بالعلمية لتأكيد التاريخ شيء مهم.ولكن شرط أن نضع منهجا
لائقا لهذه العلمية ، أعني يجب الأخذ بمنهج " باستور " و ليس بمنهج
"ديكارت " .

و أخيرا ان فكرة مالك بن نبي عن التاريخ عليها هالة من التجريدية
و حتى نتمكن من الأخذ بها يجب أن نتسلح بالفكرة الفعالة تلك الفكرة
التي أخرت المسيحية " قرونا وسطى " و اضطرتها الى الهجرة من مولدها
ثم ان التاريخ أصبح اليوم ذا صبغة عالمية بحضارته ، فما العمل كي يصبح التاريخ
حضارة انسانية .

ان الموقف صعب و خطير للغاية و هولا يؤهلنا للأخذ بما انتهى اليه عصر
الاليكترون و الا وقعنا في اشكالية تقليد أثر رجل انتهت به الحضارة،برجل هو
في بادرة حضارة ، و هيهات أن يتوقف الاول ،وهيهات أن يصل به الثاني ، لذا علينا
أن نقدم الى الارض الجذباء في اعلى الجبل ماء من أسفل الجبل يروي ضمو ها ، انه
عمل مرحلة الروح - والروح وحدها ؟ . "

ملحق بالبحث

نبذة عن حياة مالك بن نبي

حياته: ولد مالك بن نبي في أول جانفي 1905 (05 ذي القعدة 1323هـ) بمدينة قسنطينة. وهو ابن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي [1] انتقل إلى تبسة حيث تعلم القرآن، ودخل المدرسة [2] نال بها شهادة الدراسة الابتدائية بدرجة جيد، انتقل بعدها الى التعليم الثاني بقسنطينة، فكان يحضر دروس الفقه للشيخ ابن العابد، ودروس النحو العربي والصرف على الساعة السابعة من كل صباح — قبل الالتحاق بالثانوية، في الجامع الكبير.

وبدأ يميل الى المطالعة منذ الصغر، فقرأ "لجول فرن" وتذوق العبقرية الشعرية الجاهلية وشعر العصر الأموي والعباسي، وبصورة عامة تطلع على الشعر العربي من أمرئ القيس حتى شعراء المهجر.

وفي سنة 1925 أنهى دراسته الثانوية، وألتحق في صيف نفس السنة بفرنسا بحثا عن العمل، ولكنه سرعان ما رجع وناضل العمل في بلاده حيث عين في "أفلو" في شهر مارس سنة 1927 [3] وعلى الرغم من أن مرتب المحاكم بالنسبة للأهالي كان ضئيلا إلا أن مالكا كان هدفه مناقشة الفرنسيين في هذا المنصب، وكان بهذه المناسبة سببا في دخول أول عدد " للشهاب الى أفلو" [4].

---

1) عمار طالبي، مالك بن نبي، والحضارة، مجلة الثقافة 18 السنة 3، نوفمبر ديسمبر 1973 ص 10.
2) مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن الطفل، ت مروان القنواتي ط1 دار الفكر بيروت 1969 ص 26.
3) ابن نبي، الطفل ص 305.
4) نفس المصدر ص 303.

وبدأ خبرتــه السياسيــة والاجتماعية تتكون ،حيثأنتقل في السنة الموالية الـــى شلغــوم العيد وبجفوت المعاملــة من طرف المستعمرين فضل الاستقالة .(1)

كما فشل بسبب الأزمة الاقتصادية العالميــة سنة 1929 في الاشتغال في مطحنـــة(2) وبدأ يفكــر في كيفيــة العمل في وقــت كانت الادارة الفرنسية تحضر لعيد مضي مئـــة سنة على أحتلال الجزائر وكان لهذا الحــدث الأثر الكبير في نفسه . وفي سنة 1930 أنتقل الى فرنســا لغرض الدراسة وأجرى امتحان الدخول " لمعهد الدراسات الشرقية" ،زار على اثره متحفـا للفنون والصنــاعــات ،كان ذلك سببــا في تفكيـــره لأول مـــرة في مشكلــة الحضــارة .(3)

لانضـــم الى " الوحدة المسيحيــة للشبــان الباريسييـن " وأكتمل فيها تكوينـــه باطلاعــه على الجانــب الروحي للحضــارة الغربيــة ،كما أن معرفتــه لصديق أوربـــي كان يأخــذه معــه الى بيتــه أطلعتــه عن الحضــارة والحيــاة الأوروبيــة من الداخـــل في اطـــار عائلـــي (4) ولما سجـــل نفســه في المعهد اللاسلكي ،تعرف على الحضارة الغربيــة من جانبهـــا النظـــري .

ولم يعد يفكــر في مركز اجتماعي بل أصبح يشعــر وكان المجتمع الجزائـــــي والاسلامــي ككل " ليحــقق له الخلاص بفضل دراستــه" .

وفي الحي اللاتيني كان يدعوا الى الاصلاح والوهابية والوحدة المغربيـــة(5) .

وفي سنة 1931 تزوج شابة أوربيــة أخذت على عاتقها حياته المادية في البيـــت وأنتظمــت بذلك حياته في البيت ،بعد أن هداها الله فسمت نفسها خديجــة ،ومع زيارة صديقــه حمودة بن الساعي كانت تدور مناقشات علمية ،سياسية ،دينية ،اجتماعية ،فاهتــم

---

1) المصدر السابــق نفســـه ص344 .
2) المصدر نفســـــــه ص346 .
3) مالك بن نبي ،مشكلة الحضارة مذكرات شاهد القرن" الطالب" المؤلف ط1 دار الفكر بيروت بيروت 1970 ص11 ،12
4) المصدر نفســــــه ص24 .
5) المصدر نفســــــه ص43 .

بالفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ أكثر من أهتمامه بمواد مدرسة اللاسلكي .
ونظرا لتكوينه العلمي واستعداده للدراسات النظرية ، فقد ألتحق بمدرسة الكهرباء والميكانيك ، التي ظل بها الى سنة 1935 .

عاد الى الجزائر سنة 1939 ، وما لبث أن قرر العودة الى فرنسا .
زار ابن نبي عدة بلدان ، كالصين ، وأندونيسيا ، وأمريكا ، والاتحاد السوفياتي وألمانيا (1)

كما أدى فريضة الحج عدة مرات ، وفي عام 1956 أقام بالقاهرة كلاجيء سياسي ، وهناك كان نشاطه يتمثل في عقد مجالس أسبوعية مع طلبة العالم الاسلامي ، يوقظ فيها العقول (2) .

لما حصلت الجزائر على استقلالها عاد اليها فعين مديرا للتعليم العالي وعلى غرار نشاطه في القاهرة أصبح يعقد مجالس أسبوعية مع الطلبة ، وفي الأحياء الجامعية

وفي عام 1967 أستقال من منصبه وتفرغ للبحث والنشاط الفكري وتنظيم الندوات
أنتقل ابن نبي الى جوار ربه يوم الأربعاء 4 شوال 1393 هـ الموافق لـ 31 أكتوبر 1973 بمنزله (3)

مؤلفاته :

- الظاهرة القرآنية
- وجهة العالم الاسلامي
- شروط النهضة
- مشكلة الثقافة
- ميلاد مجتمع
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة
- مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي
- حديث في البناء الجديد
- النجدة للجزائر
- في مهب المعركة

---

1) عمار طالبي ، الثقافة ص 11
2) المصدر نفسه ص 11
3) عمار طالبي ص 11 .

- آفــاق جزائريـــــــة
- بيـــن التيـــه والرشـــــاد
- تأمـــــــلات
- المسلـــم في عالم الاقتصـــاد .
- فكرة الافريقيـة الاسيويـــــة
- فكرة كومنويلـــث اســـلامي
- دور المسلـم ورسالتـه في الثلث الأخير من القرن العشريـن
- مذكرات شاهـد القـــرن : الطفـــل
- مذكرات شاهـــد القـــرن : الطالـب
- الاستعمـــار يلجأ الى الاغتيـــال بوسائل السلـــم .

فهرس المصطلحـــات

العصبيـــة

التطـــور L'EVOLUTION

الجدليـة الهيجليـة DIALICTIQUE.H

بـــدائـــــي PREMITIF

متحجـر أوراكـــد = متخلف أو غير نامـي

النهضـــــة RENAISSANCE

الانثربولوجيـا علـم ENTROPOLOGIE

الانثوغرافيا علـم ENTNOGRAPHIE

الماديـــــة MATERIALISME

الطفــــرة = التغير المفاجيء في علم البيولوجيلا

معامـــــل COEFICIENT

الفعاليـــة L(EFICACITE

الضرف الاستثنـائـي

البذرة الدينيـــة

التحـــدي LE DEFIT

الاستجابـــة

الدافـــع الحيوي

" الحالة " ETAT " الوضع النفسي والاجتماعي والاقتصادي لشعب ما

الروحيـــة

النمـــو = LA GERMINATION

المجتمع التاريخـــي SOCIETE HISTORIQUE

المجتمع السياســي SOCIETE POLITICIENE

الوعد والوعيــد

الوجوديـة التصـوف L'EXITANCISLISME

حوار الحضـارة DIALOGUE DE CIVILISATIONS

الافراط والتفريـط

المعتزلــــــة	
الميكانيكـا الكلاسيكيـة	
القضيـــــــــة	THESE
نقيــض القضــــــة	ANTITHESE
التركيب بين القضيتيـــن	SIçTHESE
الجدليــة التاريخيــة	DIALICTIQUE HITORIGHE
عالم الأشخـــــاص	LE MONDE DE PERSONNES
عالم الأفكـــــار	LE MONDE DES IDES
عالم الأشيـــــاء	LE MONDE DES CHOSES
حضــــــارة	CIVILISATION
ثقــافــــة	CULTURE
بادرة حضــــارة	
شبكـة العلاقـات الخارجيـة	
المؤاخـــــاة	
* اللاثقـافـــة	
* اللاتاريــــخ *	
المناعيــــات	LES ANTI.CORPS
الصناعـــة الفـــن	TICNIQUE
رأس مـــــال	CAPITAL
علـم الأجنــــة	EMBRIOLOGIE
العقـــلانيـــة	LE RATINALISME
مجتمــع قبـــل التحضـــر	SOCIETE PRES _ civilisr
مجتمــع التحضــــر	socite_CIVILISE
مجتمـع مابعـد التحضــر	SOCIETE APRES _SIVILISE
الجاهليـــة ≠ الاســـلام	
الأفكـــار القاتلـــة	
الأفكـــار المخـذولـة	
الافكـــار الصادقـــة	

الاقنـــــاع
الاقتنـــــاع
" روح السامرائيـــة"
التطميـــم الزراعـــي
قتلـــة الافكـــار LES IDEOPHASES
رجـل مابعـــد الموحد يـــن
" الشيئيـــــة"
الحرفيــــة في الثقافــــة
التعالم= رفعرايـات الثقافـة بدعوى التثقيـف
ذ هان السهولـــة psycose_ d'efacilitè
البوليتيكـا= الحرفيـة في السياسـة
الامكان المالـــي = LE POUVOIRE FINANCIER
الامكان الاجتماعـــي = LE POUVOIRE SOCIALE
الايد يولوجيـــة Ideologie
" الزردة" السيا سـية :
" الحاجـــــة"
المنوعـــــة
الاجتمــــاع
منتـــوج حضـــاري produit de civlisation
الافروآسيويـــة : الافريقية الاسيويـة AFRO_ASSIBTIQUE=
الملكـي الرسمالـي
الاسلام الاشتراكـي المنطـق العلمـــي
الذوق الجمالـــي
الانفصـــــام
انســان+ تراب+ زمــــن
التـــــراب= LE SOLE

الاستعمــــــار LE COLONIALISME

القابليــــةللاستعمــــار LA DECOLONISOBILITE

مرحلـــة الغريزة (الفطـــرة)

مرحلـــة الروح

مرحلـــة العقـــل

ارهاصنهضـــــــة

الاجتهـــــاد

الكومينويلـــث الاسلامـي " COMWWEALTH ISLAMIQUE "

الفكـــر الواقعـــي

الصـــراع من أجـــل البقـــاء

عقدة التفـــوق "COMPLEX DE SUPERIORITE"

الأهلـــي INDIAgENE

المدرســـة التقليديـــة

المدرســـة الحديثـــة

فهـــــرس الاعـــــلام

فهرس المصادر والمراجع

1 ــ المصادر باللغة العربية

1 ــ مالك بن نبـــي : شروط النهضة ،ترجمةعبد الصبورشاهين ط4 دارالفكر،دمشق(1981)

2 ــ مالك بن نبـــي : الظاهرة القرآنية ترجمةعبد الصبور شاهين ط4 دارالفكر دمشق (1981)

3 ــ مالك بن نبـــي : دورالمسلم ورسالته في الثلث الأخيرمن القرن العشرين ،ترجمة عمركامل مسقاوي ط4اصدارندوة مالك بن نبي :دارالفكر دمشق(1983) .

4 ــ مالك بن نبـــي : آفاق جزائرية ترجمة : الطيب الشريف ط4 ، مكتبة النهضة الجزائرية (بدون تاريخ) .

5 ــ مالك بن نبـــي : ميلاد مجتمع،ترجمة عبد الصبورشاهين ط4 دارالفكر،دمشق(1974)

6 ــ مالك بن نبـــي : وجهةالعالم الاسلامي ترجمة،عبد الصبورشاهين ط4 دارالفكر دمشق (1981) .

7 ــ مالك بن نبـــي : تأملات ،ترجمة عبد الصبور شاهين ،ط4 دار الفكر دمشق ،(1979)

8 ــ مالك بن نبـــي : مشكلةالثقافة ،ترجمة،عبد الصبور شاهين ط4 دارالفكر دمشق(1981)

9 ــ مالك بن نبـــي : مشكلةالافكارفي العالم الاسلامي ،ترجمة،محمدعبد العظيم علي ط4 دارالفكر دمشق (1981) .

10 ــ مالك بن نبـــي : فكرة الافريقية الآسيوية ،ترجمة عمر كامل مسقاوي ،ط4 دارالفكر دمشق (1981) .

11 ــ مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ،ترجمة بقلم المؤلف ط4 دارالفكر دمشق (1981) .

12 ــ مالك بن نبـــي . حديث في البناء الجديد ترجمة وتقديم ،عمركامل مسقاوي ط4 المكتبة العصرية ،صيدا بيروت (بدون تاريخ .

13 ــ مالك بن نبـــي : المسلم في عالم الاقتصاد ترجمة عبد الصبور شاهين ط4
دار الفكر ، دمشق (1981) .

14 ــ مالك بن نبـــي : في مهب المعركة ترجمة عبد الصبور شاهين ط4 دار الفكر
دمشـــق (1981) .

15 ــ مالك بن نبـــي : بين الرشاد والتيه ترجمة : عبد الصبور شاهين ط4
دار الفكر دمشق (1981) .

16 ــ مذكرات شـــاهد القرن الطفل ، الطالب ، ترجمة : مروان القنوات وترجمـة
المؤلف ط4 دار الفكر بيروت (بدون تاريخ) .

المراجع باللغـة العربيـــــة

ــ ابن خلدون ، المقدمـة تحقيق محمد عبد الواحـد وافي ط2 مطبعة لجنة البيان
العربي (بدون تاريخ) .

ــ أحمد محمود صبحي : في فلسفة التاريخ ط1 دار الثقافة بيروت (بدون تاريخ) .

ــ أرنولد توينبي ، مختصر لدراسة التاريخ ترجمة ، فؤاد محمد شبل الادارة
الثقافية جامعة الدول العربية (بدون تاريخ) .

ــ أرنولد توينبي : الفكر التاريخي عند الاغريق من هوميروس الى عصر هيراكليتس ترجمة :
معي المطيعي ط1 مكتبة الانجلو مصرية (بدون تاريخ) .

أرنست كسيرر : الدولة والتاريخ ترجمة : عادل زعيتر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان (1978)

ــ ألبيرت شفيتزر : في فلسفة الحضارة ترجمة : عبد الرحمن بدوي المؤسسة المصريـــة
العامة للطباعة والنشر القاهرة (1982) .

ــ ألبان ويدجي : التاريخ وكيف يفسرونـه ترجمة : عبد العزيز توفيق جويد الهيئـــة
المصرية القاهرة (1982) .

ــ ألكسيـس كاريـل : الانسان ذلك المجهول ترجمة : شفيق أسعد فريد ط3 مؤسسة
المعارف بيروت لبنان (1980) .

ـ جعفر حسين حصباك : في تفسيرالتاريخ ،منشورات مكتبة النهضة بغداد (بدون تاريخ)

ـ جماعةمن الأساتذة السوفيات . المادية الديالكتية ترجمة : فؤاد مرعي وآخرون
دارالجماهير ،دمشق (بـ بدون تاريخ)

ـ روجي غارودي : رجاء غارودي ،حوارالحضارات ترجمة : د/عادل العوا منشورات
عويدات بيروت باريس(1979) .

ـ السحراني : مالك بن نبي مفكرا اصلاحيا ،دار الفكر بيروت (1984) .

ـ سيد قطب : معالم في الطريق ط4 منشورات ،دار الشروق ،بيروت لبنان(1981) .

ـ سيد قطب : خصائص التصور الاسلامي ،ومقوماته ط2 ،دار الشروق ،بيروت،
القاهرة (1983) .

ـ سيد قطب : في التاريخ فكرة ومنهاج ،دار الشروق ،بيروت (1981) .

ـ سيغموند فرويد : قلق في الحضارة ترجمة : جورج طرابيشي ط2 دارالطليعة
للطباعة والنشر بيروت (1979) .

ـ شبنغلر أسوالد : تدهور الحضارة الغربية ترجمة : أحمد الشيباني ،دارمكتبة
الحياة بيروت (بدون تاريخ) .

ـ عمر كامل مسقاوي : نظرات في الفكر الاسلامي ،ومالك بن نبي دارالفكر،دمشق
(1983)

ـ عماد الدين خليل : ابن خلدون اسلاميا ط1 المكتب الاسلامي بيروت (1983) .

ـ عماد الدين خليل : التفسير الاسلامي للتاريخ ط1 دارالعلم للملايين بيروت(1975) .

ـ عبد الرحمن بدوي : نيتشه ط5 وكالة المطبوعات الكويت (1975) .

ـ عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب منشورات عويدات بيروت
لبنان(بدون تاريخ) .

ـ عفت الشرقاوي : في فلسفة الحضارة الاسلامية ط3 دارالنهضة العربية للطباعة
والنشر بيروت(1981) .

- غاني التوبة: تقويم الفكر الاسلامي ط1 دار القلم القاهرة (1976) .
- عبد الحميد صديقي : تفسير التاريخ ترجمة كاضم الجوادي، الدار الكويتية، للطباعة والنشر (بدون تاريخ) .
- عكاشة شايف: الصراع الحضاري في العالم الاسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون، الجزائر (1984) .
- محمد اقبال : تجديد التفكير الديني في الاسلام، ترجمة : عباس محمود ط2 لجنة التأليف والنشر القاهرة (1968) .
- محمد عابد الجابري : العصبية والدولة معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي الدار البيضاء المغرب .
- محمد باقر الصدر: اقتصادنا دار الكتاب اللبناني بيروت، لبنان (1980) .
- المودودي أبو الاعلى : نحن والحضارة الغربية ط1 دار الفكر بيروت لبنان (1979)
- مهرجان : ملتقى الفكر الاسلامي بالجزائر، فصل الحضارة لمالك بن نبي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر (1973) .
- معجم العلوم الاجتماعية : تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار العلم للملايين القاهرة (1970) .
- منح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي، دار العلم للملايين بيروت (بدون تاريخ) .
- مهرجان ابن خلدون : القاهرة (1962) .
- أنجلز فريد ريك : التفسير الاشتراكي للتاريخ (مختارات) ترجمة : راشد البراوي ط2 دار النهضة العربية (1968) .
- كولين ولسون : اللامنتمي : ترجمة : أنيس زكي حسن ط3 دار الآداب بيروت (1982) .
- هرنشو : علم التاريخ ترجمة : عبد الحميد عبادي .
- هيجل (ج، و، ف) . العقل في التاريخ ترجمة : امام عبد الفتاح امام، التنوير بيروت (1981) .

- ولش (هـ) : ترجمة د/ أحمد حمدي محمود ط1 المدخل الى فلسفة التاريخ منشورات دار الحداثة ،بيروت(بدون تاريخ) .
- ويل ديوارانت : قصة الحضارة الجزء الخامس ترجمة ،منح خوري ،دار الكتاب اللبناني (1970) .
- زكي نجيب محمود : الموسوعة الفلسفية المختصرة ،ترجمة مجموعة أساتذة عن الانجليزية ،دار القلم بيروت، لبنان (بدون تاريخ) .
- جيمي وير : المذاهب الكبرى في التاريخ ،دار القلم ،بيروت ،1972 .
- الدوري عبد العزيز: فلسفة التاريخ : مجلة عالم الفكر الكويت ،مجلد 2 ،العدد 2
- العلي ،صالح أحمد : تفسير التاريخ ،مطبعة الارشاد ،بغداد ،(بدون تاريخ) :
- مسلم عبد الرازق : نظرية ابن خلدون في الدولة ،مجلة الطليعة ،القاهرة العدد 13 (1966) .
- موسى حسين : الحضارة ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والادب الكويت سلسلة عالم المعرفة (1978) .
- هوركهايمر ماكس بدايات فلسفة التاريخ البرجوازية ،ترجمة محمد علي اليوسفي دار التنوير بيروت (1981) .
- زينب الغزالي (أيام من حياتي)
- فصل الفعالية " الهامش "
- الشهرستاني : الملل والنحل :
- محمود قاسم ،نصوص مختارة من الفلسفة الاسلامية ،مكتبة الانجلو المصرية "بدون تاريخ)

الـدوريـــــات

ـ 1ـ عمـار الطالبـــي : مالك بن نبي والحضارة، مجلة الثقافة(1973) العدد 18

ـ 2ـ مالك بن نبـــي : الحضارة مجلة ، ماذ أعرف عن الاسلام؟ ، مسجد الطلبة الجـــــزائر. (1973) العدد 10

ـ 3ـ مالك بن نبـــي : فكرة الافريقية الآسيويـة ، مجلة الجزائر الأحداث(1970) العـــدد 13 .

ـ4ـ مالك بن نبـــي : السياسة والايديولوجيا ، مجلة الجمهورية (1968 العدد 8 .

ـ5ـ محمد الهادي الحسني : حدثنا مالك بن نبي قال جريدة العصر(1985) العدد 12 .

فهـــرس المراجـــع باللغـــة الفرنسيـــة

-A. Toymbeé, Lhistoire, Edition Seuil Paris 1980.

-A. Toumbeé , Guerre et Civilisation. E Gallimard Paris 1953.

-A. Coligne- wood. Edition Gallimard Paris1980.

-F. Engels, La famille - Sainte Edition Seuil Paris 1980.

-Engels - Marx, Les premieres critiques de l'économie politique. U.G.E Paris 1976

- J.hypolite,La philosophie de l'histoire E. Seuil Paris 1984

- M. Bennabi,l'idée d'un commun wealth islamique imprimerie de la faculté d'Alger 1971.

- M Be.Nnabi,de l'orientalisme Imprimerie de la faculté d'Alger1970.

- M Bennabi, les grands thèmes , Edition Enahda ,Alger 1974.

- R Garaudy, Appel au vivant , Edition du seuil Paris 1983.

- R Garaudy, Parole d'homme Edi ion du Seuil Paris 1983.

- R Garaudy, La Philosophie de hegel , Edition Poyot Paris 1982.

- R Arom , critique de la philosophie de l'histoire Edi ion Gallimerd

- R Garaudy, Promesse de l'islam, Edition du Seuil Paris 1983.

- Karl, Marx , Manifeste communiste , UG.E. Paris 1976.

- Karl Marx Critique de l'etat hegelien U.G.E Paris 1976.

La coste (Yve) . Ibn khaldoune, Naissance de l'histoire passé du tier monde E Pointe Paris 1977.

- La Rousse grand la rousse[illegible] . E la rousse Paris 1985.

فهـــرس الآيـات القرآنيـــة

فهرس الأحاديث النبوية

فهرس

مقدمة: